إصلاح

للسيدتين

نعمت ذهني و عزيزة الابراشي

ملتزم الطبع والنشر

دار الكتاب العربي بمصر

١٩٥١

obeikandl.com

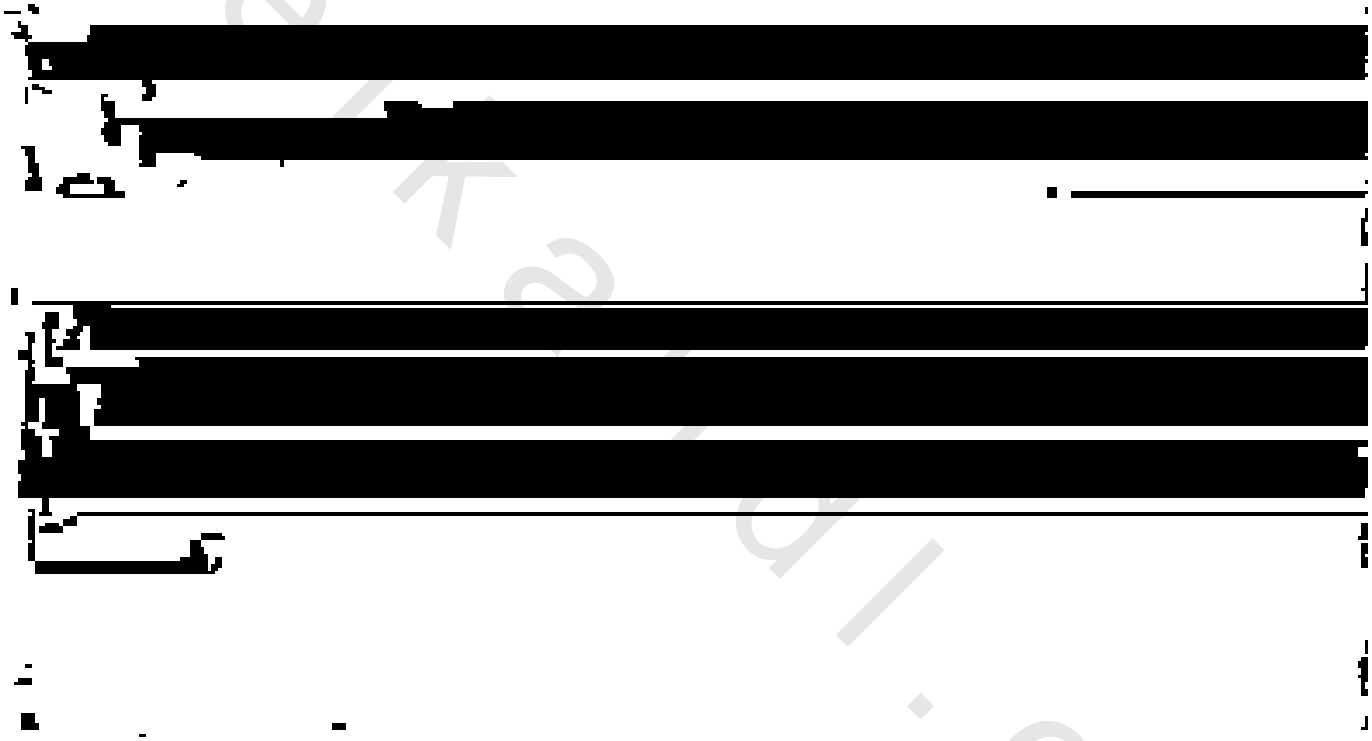

obeikandl.com

الإهداء

إلى الشباب من الجنسين
وإلى الأزواج والزوجات
نقدم تلك القصة الواقعية لعل فيها عظة وذكرى .

المؤلفان

obeikandl.com

كلمة الناشر

هذه قصة مصرية انتزعت وقائعها من صميم المجتمع الذى نحيا فيه.

وقد رأيت أن فى نشرها تدعيما لأخلاق هذا الجيل الذى كثرت أمامه المزالق وأغراه ما فى الحضارة الحديثة من تهور وانطلاق ...

وإنه ليؤسفنا أن تكثر الروايات الخليعة فى أيدى القراء ، وأن تترك آثارها السيئة فى نفوسهم وأعمالهم فراغا ومجونا .

فلتكن هـــذه القصة اتجاها جديداً فى الأدب الروائى يرفع مستواه ويقود الرجال والنساء إلى الفضيلة والعفاف ؟

محمد حلمى المنياوى

obeikandl.com

فى ذلك الحى الهادىء بالقاهرة ؛ وعلى إحدى ضفتى النيل الجميل ، حيث يهب نسيمه الوادع ، وتتمتع العين بمنظره الساحر ، تجد قصر (زينات هانم) رابضاً فى أحضان تلك الجزيرة الجميلة ، شامخاً بعظمة بنيانه ، وجمال منظره بين قصورها الشاهقة التى تكتنفها « البساتين المزهرة » وتظلل شوارعها الأشجار المورقة ويشملها الهدوء .

والحق أنه كان قصراً عظيم البنيان ، بديع التصميم ، تحيط به حديقة كبيرة منسقة على أحدث طراز . وتطل شرفات طبقتيه الواسعة على الحديقة من جهة ، وعلى النيل من الجهة الأخرى .

وكان يمتاز عما حوله بكثرة ضوئه وضوضائه . لما كان يقام فيه من حفلات اللهو والطرب .

فالقصر كان غالباً أشبه بناد أو مسهر . سيارات فخمة تقل إليه وفود الأصدقاء والصديقات ، ليقضوا معظم الليل مع سكانه بين حلقات الرقص والسمر . وخدم كثيرون يحملون إليهم أكواب الخمر ومختلف الشراب ، وحجرات عديدة مفروشة بأفخر السجاد وأحدث الأثاث . ويمكنك بعد ذلك أن تقدر ما كان عليه أصحابه من عيشة الترف والنعيم — وقد كان معروفا بقصر « زينات هانم » .

كانت « زينات هانم » سيدة « عصرية » فى مقتبل العمر ، على كثير من الجمال والثقافة ، إلا أنها كانت محبة لحياة اللهو والخلاعة ، منقادة « لهوى نفسها » ورغباتها .

ويقال إن الذي شجعها على المضى فى هذا ، هو تهاون زوجها « شاكر باشا » وإهماله فى ردعها أو على الأقل سلامة نيته وتسامحه ؛ فقد كان من أصل تركى ، كبير السن ، طيب القلب .

والباشا — وإن كان مؤمناً ومحافظاً على فرائض الدين — إلا أنه كان ضعيف الإرادة ، قليل النصح ، وهو بعد مغلوب على أمره أمام عناد زوجته وسيطرتها ، فترك لها حرية التصرف فى شئون بيته وأولاده ، فنشأتهم على حب اللهو وملاذ الحياة .

وكان « لزينات هانم » ابنان وابنتان تشبهانها فى صفاتها وأعمالها ، غير أن «إصلاح» صغرى الفتاتين كانت تمتاز بجمال فاتن وقوام بديع .

وتعتبر زينات هانم فى طليعة المشتغلات (بالنهضة النسائية) إذ كانت رئيسة لجمعية (السيدات العصريات) وغيرها من الجمعيات التى تهدف إلى مساواة المرأة بالرجل فى الأعمال .

وفوق ذلك كانت شديدة الحرص على الظهور فى المجتمع ، فكانت تكثر من إقامة الحفلات باسم الخير داخل القصر وخارجه .

ولم يكن حرص (زينات هانم) على الظهور فى تلك الحفلات مقصوراً عليها فحسب، بل كان يهمها كذلك أن تكون ابنتاها قبلة أنظار المدعوين إليها ومحط إعجاب الموجودين بها .

من أجل ذلك كانت تذهب معهما إلى محال التجميل والتزين كلما أقامت حفلة من هذه الحفلات .

ولهذا ما كادت تضحى شمس اليوم الذي ستقيم فيه أولى حفلاتها الخاصة بتأسيس ملجأ للفقراء حتى كن على أهبة الخروج من القصر .

كانت الساعة العاشرة صباحا عندما استقلت « زينات هانم » وفتاتاها « سوزان وإصلاح » سيارتهن الفخمة التى كانت تنتظرهن أمام باب القصر

وما كادت « السيارة » تنطلق بهن حتى أخذت تقطع طريقها وسط « رياض الزمالك » مخترقة « جسور النيل » إلى أن وقفت بهن أمام محل « حلاق » شهير للسيدات .

وفى تلك اللحظة أقبلت « سيدة » ترتدي « ثوباً أنيقاً » وبصحبتها « فتاة » لاتقل عنها أناقة هى ابنتها « يسرية »

ولاحت من « زينات هانم » التفاتة نحو السيدة ، فما إن رأتها تدخل هذا المحل نفسه حتى صاحت فى سرور :

— عنايات هانم ؟ يا لها من مقابلة سارة .

وتصافح الجميع فى سرور بهذا اللقاء . وما لبثت « عنايات هانم » أن بدأت الحديث مع « زينات هانم » قائلة :

— شكراً لك ياعزيزتى على دعوتك . فقد وصلنى خطابك أمس ، وإنى لسعيدة بأننا سنقضى الليلة فى « حفلتك الخيرية » .

قالت هذا ودخلن « المحل » ثم جلسن متجاورات يتشاورن فى اختيار أجمل « تصفيفات الشعور » اللاتى تتناسب ومسابقة « جمال الرءوس » المزمع إقامتها مساء اليوم ، فى « أوبرج الأهرام » ضمن حفلة « زينات هانم » الخيرية .

وفى خلال ذلك التشاور تسللت إصلاح فى هدوء إلى مدير المحل وطلبت منه آنسة للقيام بتزيين رأسها وتجميله ، ثم عادت إلى مجلسها معهن .

وبعد استهجان واستحسان ؛ واستنكار وإعجاب جاء الحلاقون فاتخذت كل منهن مقعداً أمام « حلاق » منهم

وقبل أن يجلسن أقبلت الآنسة تلبية لطلب إصلاح ، فعلت الدهشة وجوه الجميع وبالأخص يسرية .

كانت يسرية ، صديقة الفتاتين ، وكانت تمت بصلة القرابة إلى « زينات هانم » وكانت بحكم هذا تتردد كثيراً على تلك « الأسرة »

لكن حدث منذ أكثر من عام أن التحقت « بكلية الآداب » واشتغلت بعلومها . ومن ذلك الحين انقطعت زيارتها عنهن إلى أن كانت دعوة « زينات هانم » وكان هذا اللقاء

ومن الغريب أن « يسرية » قبل انقطاعها عن زيارتهن كانت تحضر مراراً مع « إصلاح » إلى نفس هذا « الحلاق » لتزيين رأسيهما . ومع ذلك ما كانت تشاهد « إصلاح » تمتنع عن الجلوس إلى « الحلاق » أو تطلب آنسة أو تفكر في مثل ذلك .

لهذا ما كادت ترى مابدا من « إصلاح » اليوم حتى استولى عليها الدهش ، وتملكها العجب وراحت تسائل نفسها :

— ماذا جرى لإصلاح ؟ وما هذا التغير الذى طرأ عليها ؟ لقد كانت مثالا للفتاة المستهترة ، ولم تكن يوما من المحافظات على التقاليد أو العادات الموروثة . فما سبب ذلك التطور ؟

وهكذا ظلت تسائل نفسها في صمت وحيرة

وفيما كان الحلاقون يعدون أدوات التجميل كان الجميع فى عجب يسرية ودهشتها

وسكتت لحظة خاطفة أقبلت « زينات هانم » بعدها نحو إصلاح وقالت هامسة فى ضيق:

— لماذا استدعيت الآنسة ؟ — أنسيت أن الرجال هم أجدر وأمهر من النساء فى فن « تصفيف الشعر » وتزيين الرأس ؟

فأجابت إصلاح بصوت مسموع :

— ما زلت أعلم ذلك يا أماه . ولكنى عرفت من « أستاذى » فى بعض دروسه أن جلوس المرأة إلى رجل ليزين رأسها حرام ويغضب الله

فزادت دهشة يسرية فى حين انفجرت سوزان ساخرة . ثم اتجهت إلى أختها وقالت :

— أستاذك ؟ .. حقاً لقد غير الشيخ كثيراً من طباعك العصرية وآرائك الحديثة ، ولشد ما أخشى عليك الاتصاف بالرجعية إذا ما تماديت في ذلك .

فنظرت إليها إصلاح ، ولم تزد على أن قالت :

إذا كانت الرجعية فى نظرك معناها الرجوع إلى أوامر الله ورسوله فما أسعدنى بتلك الرجعية .

كان هذا الحوار بينهن على مسمع من « عنايات هانم » التى جعلت تنظر إلى إصلاح فى صمت مالبث أن استحال إلى عجب أخرجها عن صمتها فراحت تتساءل :

— عجباً ! ! من يكون هذا الشيخ ؟

وكانت إصلاح تقف بالقرب منها فأسرعت قائلة :

— إنه عالم «جليل» كبير «السن» جاء به «والدى» بعد أن أتممت

تعاليمي في مدرسة « المير دي ديه » ليرشدني وإخوتي إلى . . .

فقاطعتها عنايات هانم قائلة في استنكار :

— عالم ؟ . . . مالك يا ابنتي وكلام العلماء والشيوخ وآرائهم ؟ إن لهم طريقة في الحياة لا توافق طبيعة نشأتك — التفتي حولك ثم انظري . . هل تجدين أحداً في هذا العصر يسمع لقولهم أو يعمل بوعظهم ؟ . — لا . لا . يافتاتي . لا .

إن من يستمع إليهم يعيش في وحشة ويحرم بهجة الدنيا . ومن حقك التمتع بها وأنت في ريعان الشباب ورغد العيش .

فأحست الفتاة بخطأ هذا الرأي وتمتمت في نفسها :

— يا لله .. ماأشد جهل الناس بصالحهم — إذا مرضت « أجسامهم » بادروا إلى علاجها عند الأطباء حفظاً لحياتهم « الفانية » ، أما من يشفون أرواحهم وهي مصدر حياتهم « الدائمة » فهم عنهم غافلون وبهم مستهزئون .

ثم تطلعت إلى عنايات هانم وقالت :

— عفواً يا سيدتي . . ما أحوجنا إلى وعظ العلماء في هذا العصر . أليس العلماء ورثة الأنبياء وللأرواح أطباء ؟ — فلم لا نستمع إلى العاملين منهم المخلصين ؟ — ومن غيرهم يشفي « قلوبنا » من الآثام ؟ ويرشدنا إلى معرفة معاني القرآن وفرائض الإسلام ؟ — ثم ألست مكلفة باتباع أوامر الدين وأنا في سن الشباب ؟ وأليس نعيم العيش يتطلب شكر الله وطاعته ؟

ثم استدارت وأخذت مكانها من الآنسة التي أقبلت تلبية لطلبها وما كادت تفعل ذلك حتى ظهر على والدتها الغضب والتأفف ثم قالت في شبه عتاب :

obeikandi.com

— ما كنت أنتظر منك هذا يا « إصلاح » بعد اعتراض « عنايات هانم » وما كان ينبغى لك أن تستمرى فى نزعاتك الشاذة ، بعد هـــذا النصح والإرشاد .

فصمتت إصلاح وانقطع الحديث .

ومضت فترة طويلة شغل الجميع فيها عن الفتاة بزينتهن وتصفيف شعورهن .

وظلت هذه حالهن حتى فرغ الحلاقون من تزيينهن فخرجن .

ثم دعت « زينات هانم » يسرية ووالدتها لتوصلهما إلى منزلهما .

فركب الجميع السيارة .

obeikandl.com

وفى السيارة جلست « يسرية » بجوار « سوزان » صامتة تسبح بخواطرها ، وكانت جاعلة للطريق وجهها ولاهية عما حولها . ولاحظت ذلك « سوزان » فلم تشأ أن تتركها على تلك الحال والتفتت إليها قائلة :

— (يسرية) ترى لماذا أنت صامتة ؟ وفيم كنت تفكرين ؟

فتنبهت (يسرية) والتفتت جهة إصلاح . ثم أجابت :

— لم أكن أفكر فى شىء بعيد (ياسوزى) ولكنى كنت أعجب من تقلبات هذه الحياة وعدم استقرارها على حال .

ففهمت (سوزان) ماترمى إليه ، ولكنها تجاهلته وقالت متسائلة :

— وكيف ؟

— أصرح لك (ياسوزى) أننى لم أزل مشغولة بالحالة التى رأيت عليها (إصلاح) اليوم ؛ فمن يصدق أن (إصلاح) التى نشأت على حب اللهو والسخرية من أهل الدين تصبح هكذا ؟

ترى ما الذى بدلها وغير من آرائها ؟

فأجابت (سوزان) فى شىء من السخرية :

صدقينى يا (يسرية) أننى أيضاً فى حيرة من أمرها ، ولا أعرف لذلك سبباً ، ولا أظن إلا أنه قد اعتراها نوع من الجنون

فلم تقتنع (يسرية) بذلك واستمر الحديث بينهما حول هذا التغيير وكان على مسمع من الوالدتين ، فما لبثت « عنايات هانم » أن قالت « لزينات هانم » :

ـــ الحق ياصديقتى أننى لم أزل فى عجب من أمر « إصلاح » بعد الذى رأيته وسمعته منها اليوم

فقالت « زينات هانم » فى أسى :

ـــ لقد أصبحت لا أطيق سماع شىء عن أعمالها الجديدة الشاذة . ولا أدرى من أين جاءت بها إلا أن يكون ذلك الشيخ العتيق

فاتجهت إليها « سوزان » وقالت :

ـــ لا أظن ذلك ياأماه. فقد سمعت منها بعض خرافات قبل وجود الشيخ ببضعة أيام ، وهى السبب فى وجوده ، وتنبيه والدنا إلى وجوب استماعنا إلى دروسه ومضايقتنا بحضوره كل أسبوع

وما انتهت « سوزان » من أقوالها حتى عادت « يسرية » إلى الحديث قائلة :

ـــ إننا فى الواقع لا يمكننا أن نقف على السبب الحقيقى لهذا التحول المدهش إلا من (إصلاح) نفسها . ثم اتجهت إلى إصلاح متسائلة :

ـــ هل لنا أن نعرف منك السبب الأول فى هذا التحول ؟

وصمتت وشمل الجميع شوق واهتمام

جرت أحاديثهن السابقة وإصلاح صامتة تنظر إليهن ، وأفكارها كلها منحصرة فى دهشتهن وما يجب أن تقوله لتخفف من سخريتهن وعجبهن

فما أن طرق سمعها سؤال (يسرية) حتى اتجهت إليهن وصاحت قائلة :

ـــ ياأختى ـــ ماذا يدهشكن من أمرى ؟ وماذا فيه من غرابة ؟ إن الدوام على حال ليس من صفات المخلوقات ؛ ولا من طبيعة الإنسان؛ فهو متنازع بين تغلب (سلطان العقل) وتغلب (إغواء الهوى)

من أجل ذلك نرى أحياناً إنساناً طائعاً لربه مؤمنا ، ثم إذا بنا نراه قد تغلب (هواه) على (عقله) فانقلب شيطاناً مريداً عاصياً لربه .

وأحياناً نسمع عن إنسان كان منغمساً فى شهواته ولذاته ، ثم ما نلبث أن نسمع أنه قد استقام حاله ، وتغلب عقله على هواه

كذلك كان شأنى .

فقد كنت إلى ما قبل العام الماضى إحدى ضحايا تغلب الهوى على العقل أهيم على وجهى فى ملاذ الحياة ومفاسدها . وكنت على الحال التى تعرفها عنى . واستمرت هذه حالى إلى أن استيقظ عقلى فأرشد (قلبى) وملك زمام نفسى وتغلب على « هواى » .

كان ذلك فى العام الماضى بعد رجوعنا أنا ووالدتى وإخوتى من الاصطياف فى الأقطار الأوروبية التى تنقلنا فى معظم بلدانها وملاهيها .

دخلت ليلة على والدى فى حجرته لأقص عليه ماشاهدته فى رحلتنا الجميلة وما رأيته فى تلك البلدان البعيدة ، فوجدته جالساً فى مصلاه ، وفى يده مسبحته ، وأمامه كتاب الله الكريم فحييته بتحية المساء . فبادلنى التحية برفع يده ولم يقطع قراءته ، فلم أشأ أنا أيضاً أن أقطع عليه عبادته ، وخرجت من عنده متأثرة بمظهره الجليل .

ومع أننى لم أكن قبل هذا الوقت أقدر أعمال والدى الدينية ولا ألتفت إليها ، ولا أعرف شيئاً عن شرائع الدين وكنت أسخر ممن يعمل بها كما تعلمن إلا أننى فى تلك اللحظة أحسست بأن عقلى قد تنبه وشعرت به يحفزنى إلى النظر فى أعمال ما كنت أفكر فيها من قبل إذ بدأ منذ الليلة يدعونى لألتفت إلى لون آخر من ألوان الحياة غير الذى تعودت أن أراه .

دعانى أولا لأتأمل فى أعمال والدى المخالفة لما أعمله طول حياتى . . ثم دعانى لأستمع إلى ما يلقيه بعض المصلحين فى المذياع من الحكم الدينية والعظات القرآنية فتنبهت إلى ذلك . وتاقت نفسى إلى معرفة هذا النوع الجديد . ولأول مرة استمعت « لصوت العقل » ورغبت فى أن أسلك الطريق الذى يسلكه والدى برغبة صادقة وعزم أكيد . ثم أمسيت معظم ليلتى أفكر فى تلبية هذا النداء ، وأصبحت أنظر إلى أعمال والدى ، وأستمع إلى العظات كما دعانى « عقلى » . . . فما لبثت كثيراً حتى تفتحت عين قلبى للايمان . وانبهرت بنوره . ورأت جمال الحق . وقبح الباطل . عند ذلك عزمت على أن أنال من كنز هذا الدين ما أستطيع الحصول عليه لتتحلى به نفسى ويستنير منه قلبى .

وما انتهت من سرد قصتها حتى ظهرت على وجوههن ألوان شتى وخلجات مختلفة . فقد وجمت والدتها وصمتت (عنايات هانم) على حين اقتنعت (يسرية) واستراح بالها ، أما (سوزان) فقد بدت السخرية من نظراتها وضحكاتها ، ولاحظت ذلك (إصلاح) فقالت لأختها الساخرة :

— لاتسخرى منى (ياسوزى) فأنا أعلم أن كلامى لا يروقك ، وقد كنت مثلك أسعى للاستمتاع بزخرف هذه الحياة الفانية حتى تحققت من وجود حياة ثانية خير منها وأبقى فآثرتها ورغبت فى متاعها .

وكانت (يسرية) تنظر إليها فى صمت ، فما انتهت حتى صاحت فى إكبار :

— لله أنت يا إصلاح . وإنى لأعتقد بأن لهذه الرغبة دخلا فى هدايتك وتحولك .

لمعت عينا إصلاح ببريق الموافقة وقالت :

— هذا حق . لأنى عند ما آثرت الحياة الباقية شرح الله صدرى لدينه وتكشفت لى كنوزه . والله (يهدى إليه من ينيب)

وما صمتت حتى عادت (يسرية) متسائلة فى اهتمام :

— وهل حصلت على كثير من هذه الكنوز ؟

فصمتت إصلاح ثم قالت فى شبه أسف :

— فى الواقع لم أحصل على شىء يذكر إلى الآن غير أنى شعرت بمقت شديد واحتقار زائد لتلك الحياة المظلمة التى كنت أحياها بقابله حب عميق وشغف للسير فى طريق النور الذي اهتديت إليه بعد أن ندمت على ما كنت أفعل من قبل — ولهذا استأذنت والدى فى إحضار « أستاذ » كى اكتسب منه كثيراً من المعلومات الدينية ، وشرائع الإسلام التى أجهلها . إذ كنت كسابح مبتدىء بين الأمواج ، يغوص تارة ويطفو أخرى ، ولا بد له من مدرب يأخذ بيده .

ولم أزل حتى الآن فى احتياج إلى استذكار واستطلاع ، فالقلوب تصدأ مثل النحاس ، وجلاؤها ذكر الله ونور العلم ، ولم أزل حتى الآن أجاهد فى معرفة ما يرضى ربى وما يغضبه ، وأرجو الله أن يظل عقلى دائما مسيطراً على هواى .

وكانت السيارة قد وصلت إلى منزل عنايات هانم فانقطع الحديث ونزلت مع ابنتها وواصلت السيارة سيرها إلى القصر

دخلت (زينات هانم) وفتاتاها القصر — ولما كانت ترغب فى الخروج بسرعة للاشراف على الحفلة قبل المدعوين فقد ذهبن تواً إلى (حجـــرة الطعام) .

وعلى مائدة الغداء اجتمعت الأم وأولادها كالمعتاد . إلا أن « سامى » الابن الأكبر كان قد تأخر عن الحضور . فانشغلت والدته وقلق إخوته عليه . وانقضت مدة دون أن يحضر فزاد انشغالهم ثم شرعوا يأكلون فى صمت وقلق .

وقبل أن ينتهوا أقبل « سامى » والبشر يلوح على وجهه والسرور يشع من عينيه .

فعلت الدهشة وجوه إخوته وراحوا يسألونه عن السبب فى شوق ولهفة

وكأنما أراد أن يزيد فى تشوقهم فجلس بجوار أخيه حسين وبدأ فى الأكل . . ثم طلب أن يتنبأ كل منهم بسبب لسروره

عند ذلك راح الجميع يفكرون . وطفق كل منهم يقترح سبباً . «وسامى» يضحك ولا يوافق عليه .

وأخيراً وقد ظهر عجزهم قالت الوالدة وكانت أعلم بطبع ولدها :

— إذا صح ظنى يكون « سامى » قد كسب مبلغاً من الميسر .

فصفق سامى طرباً وقال فى لهجة مضحكة :

— هو ذاك ياوالدتى . فقد لعبت اليوم الميسر مع أحد أصحاب صديق « توفيق » ويدعى « محسن المستكاوى » وكسبت منه مبلغ مائتى جنيه دون أن أخسر شيئا .

وكان (لزينات هانم) قريب يحمل اسم هذا الشاب فلم تكد تسمع اسمه حتى صمتت وكأنما أفحمها أمره — على حين انفجر الإخوة ضاحكين من حركاته .

ثم تقدمت « سوزان » إلى أخيها مهنئة وقالت مداعبة :

— وأظنه حنق عليك بعد ذلك يا « سامى » ؟

— كلا لم يحنق ولم يغضب بل هنأنى على حظى السعيد .

فقالت « سوزان » فى إكبار :

— ياله من شاب سخى !

— وغنى أيضاً لايهمه المال وقد ينفق على أصدقائه أكثر من عشرة جنيهات على مائدة شراب فى جلسة واحدة . هذا ما أخبرنى به صديق عنه .

ثم أخذ يوازن بينه وبين رجل آخر فقال :

— إن هذا الشاب على عكس رجل كان يلعب الميسر مع آخر بجوارنا ويظهر أنه كان فقيراً أو خسر كثيراً لأننا رأيناه رفع الكرسى على زميله هكذا .

وأمسك « سامى » مقعد المائدة الخالى بجانبه ورفعه بحركة مضحكة وهو يقهقه من فرط سروره .

فضحك إخوته . حتى خادم المائدة الذي كان يوزع الحلوي وقتذاك لم يتمالك نفسه من الضحك .

تم هذا التمثيل وتلك الضحكات فى الوقت الذى كانت فيه «زينات هانم» شاردة مشغولة بأمر محسن المستكاوى . وأكبر الظن أنها كانت تفكر — كيف يتسنى لها أن تعرف حقيقة هذا الشاب بنفسها قبل أن يعلم أولادها

لأنها لم تشترك معهم فى الضحك ولم تخبرهم بما يشغلها من أمر (محسن) .

ولاحظ هذا الشرود أولادها دون أن يعرفوا السبب .

فقالت « سوزى » فى مكر :

— يبدو أن والدتى لم تكن معنا بفكرها وإلا لضحكت من «سامى» وهو يمثل الرجل الفقير الذى خسر نقوده فى الميسر .

فتنبهت «زينات هانم» وأسرعت قائلة فى مواراة :

— حسبكم أن تضحكوا أنتم من الرجل الفقير . أما أنا فلا أبالى إلا بذلك الشاب الغنى السخي .

وما لبثت أن اتجهت إلى « سامى » وقالت :

— « سامى » . . أصغ إلى :

— ماذا يا والدتى ؟

فقالت وقد أخفت الدافع الحقيقى :

سأقيم حفلة خيرية فى الأسبوع المقبل بنادى جماعة (السيدات العصريات) لتتمة مشروع الملجأ . ويهمنى أن يحضر هذا الشاب الغنى الذى لا يعرف للمال قيمة فعلى أمثاله يقوم نجاح مشروعنا .

لهذا أرى ضرورة وجود من يدعى «محسن المستكاوى» فى هذه الحفلة.

فأجاب سامى مسروراً :

— لك ذلك يا أماه .

وتم الاتفاق وفرح الأبناء ووافقوا فى سرور .

غير أن « إصلاح » لم يلاحظ عليها شىء من الاهتمام أو الموافقة على ذلك المحفل بدليل ماظهر على محياها الصامت الجميل .

وكانت قد التحقت عضواً بجماعة (المسلمات المجاهدات) منذ شهر

فراحت تطلب من والدتها فى رجاء أن تأذن لها بعدم الذهاب إلى حفلة اليوم والحفلة القادمة معتذرة بانشغالها بأعمال هذه الجمعية .

فلم تكد الوالدة تسمع ذلك من إصلاح حتى تذكرت ما كانت قد رأته وسمعته منها عند الحلاق. وعندئذ عاودها الضيق وهبت فى نفسها ثورة حقد صامتة — لا شك أن هذه الجمعية من أهم بواعث تغير إصلاح وتحولها — فلماذا لا أحول بينها وبين الذهاب إليها ؟

وفى لهجة آمرة حتمت عليها الذهاب معهم فى كل حفل تقيمه .

وكان قد انتهى الغداء فأسرعت تستعد للخروج إلى الحفلة .

* * *

انقضت فترة بعد خروج (زينات هانم) دخل بعدها (حسين وإصلاح) كل منهما إلى حجرته ليستريح ويستجم بالنوم .

أما (سوزان وسامى) فقد خرجا إلى شرفة القصر المطلة على النيل وجلسا يقطعان الوقت بلعبة (الكونكان) المحببة لديهما حتى غابت الشمس واصطبغت السماء بحمرة الشفق فتركا اللعب وأسرعت سوزان إلى حجرة الزينة وما لبثت أن استعدت للذهاب إلى الحفلة .

أما (إصلاح) فإنها لم تكد تستيقظ حتى تذكرت صلاة المغرب فأسرعت إلى الحمام الملاصق لحجرتها .

وما انتهت من الوضوء حتى أدت صلاة المغرب فى خشوع واطمئنان .

وعندما أخذت تستعد للحفلة اتجهت إلى صوان ملابس السهرة ولكنها ما كادت تفتحه حتى وقفت حائرة لا تدرى ماذا ترتدى — فهذا ثوب مكشوف الصدر، وهذا أنيق ولكنه عاري الظهر ، وذاك لا أكمام له.

وأخيراً اختارت من بينها ثوباً يعتبرأ كثرها احتشاما وأقلها خلاعة .

ثم وضعت فوق كتفيها ملحفة من الحرير الموشى لتخفى ظهرها العارى وأخفت ذراعيها ويديها بقفازين طويلين يصلان إلى ما بعد المرفقين .

وما إن فرغت حتى راحت تسائل نفسها :

— أهذا الاحتشام يرضى ربى ؟ وهـــذه الرأس الحاسرة أيباح ظهورها ؟ وتلك الحفلة هل يجوز الذهاب إليها ؟ وذاك (الأوبرج) ماحكم الشرع فى ارتياده ؟

وهكذا ظل يتتابع فى ذهنها سؤال بعد سؤال شأن من تودع حياة الضلال لتستقبل حياة النور والهداية حتى استقلت السيارة مع إخوتها إلى الأوبرج .

إذا كنت فى (الجيزة) وسرت فى الشارع الموصل إلى (الأهرام) فإنك ترى بعد بضع خطوات من الترام فى الجهة اليمنى بناء مكوناً من طابقين . داخل فناء واسع يطلق عليه (أوبرج الأهرام) .

وهذا هو المسهر الذى اختارته (زينات هانم) لإقامة حفلتها الخيرية .

كان (الأوبرج) فى تلك الليلة آية فى الزينة والإبداع فقد ازدان مدخله الخارجى والداخلى بأنواع المصابيح الكهربية المختلفة الألوان والأحجام . وأضيئت مصابيح أشجاره فخلعت على فنائه زينة وجمالا ، وافتنت (زينات هانم) فأدخلت زيادة على ما يعمل فى حفلاتها نوعاً من التجديد فكانت مسابقة « جمال الرءوس » وكانت تذاكر نصيب تسحب على سيارة تبرع بها أحد المشجعين .

وكانت الموسيقى تصدح بأنغامها الشجية . والحسان بملابس السهرة غاديات رائحات فى أجمل زينة وأتم أناقة .

وكان الشيوخ والشبان بحلل السهرة الإفرنجية يتنقلون مع زوجاتهم وصديقاتهم من مجالس المبسر إلى حلقات الرقص . وكان الكل ينعمون بالأغانى المختلفة من المغنين والمغنيات . وجاء خدم الموائد بالعشاء الفاخر المرتفع الأثمان .

هذه هى حفلة « الليلة الخيرية »

وهذا هو (الأوبرج) الذى كانت (إصلاح) تحبه ويزيد قلبها سروراً كلما وجدت به — ولكن . . . ما بالها الليلة صامتة تشعر باحتقار لكل

ما فيه . واشمئزاز لما تراه أمامها . . عجباً ! لقد أخذت سريعاً تحس فيه الملل وأنه يضيق بها على سعته .

انظر . . . إنها تجلس الآن غافلة عما حولها أمام إحدى الموائد النائية مع (يسرية) وفتاة أخرى هادئة القسمات ناضرة الشباب .

ومن غريب أمرها هذه الليلة أنها أهملت كل من كان يوجه إليها نظرات الإعجاب . ولم تشترك فى شىء مما كان يعمل هناك . حتى أنها لم ترض أن تبتاع تذكرة من التذاكر التى بيعت على السيارة ولم توافق والدتها عندما دعتها إلى الدخول فى مسابقة (تصفيف الشعر) بل ظلت منفردة بصديقتها (إكرام) بعد أن تركتهما (يسرية)

كانت (إكرام) فتاة رائعة الحسن تمتاز بثقافة وخلق كريم صادقتها « إصلاح » فى الحفلة . وأعجبت بأخلاقها وما لبثت أن جلست معها وأخذتا تتحادثان . ولم يطل بهما الحديث حتى عرفت « إصـــلاح » أن صديقتها من أسرة كريمة ومن والدين صالحين أخذت عنهما الدين . ولما توفيا تولى (عمها) رعايتها ورعاية أموالها . وعاشت فى كنفه وأنها تأتى إلى هذه الحفلات مع أسرته مرغمة

وجدت « إصلاح » فى إكرام تشابها فى الميول واتفاقاً فى الآراء فلم يفترقا لحظة ولم يغادرا المائدة

وانتصف الليل وأعلنت (مسابقة الشعر) فـكانت الفائزة بالجائزة الأولى (سوزان) .

وكانت (إصلاح) لم تزل وصديقتها فى جلستهما الهادئة حينما أقبلت « سوزان » عليهما تختال بقامتها الرشيقة وتخطو فى سرور بثوب السهرة

العارى وقد حلت صدرها بشارة الجائزة فما إن تلقت منهما التهانى حتى جلست معهما .

وكانت رؤيتها لأختها على هذه الصورة من العزلة قد لفتت نظرها وضايقتها .

فما لبثت أن وجهت إليها الحديث قائلة :

— ما لى أراك الليلة معتزلة الناس على غير العادة طويلة السكت فى مكان واحد ؟

ولم تنتظر ردها بل راحت تتابع فى لهفة :

— انظرى.. هل ترين هذه المائدة ؟ تلك فتاة جالسة لاشك أن الذى بجوارها هو خطيب أو حبيب لأنهما يتقارعان الكئوس ، ويتبادلان نظرات الوجد والغرام . وهذا جمع من الرجال والنساء منهمكون فى لعب الميسر تعبر حركاتهم عما يشعرون به من سرور وأمل فى الكسب ، وهؤلاء يرمون سهامهم فى فرح وسعادة والكل فى نشوة كأنهم يحلمون وهم يقظون .

فلماذا لا تمتعين نفسك كما يتمتعون ؟ ولماذا تحرمينها من هذا النعيم ؟

ولم تكن « إصلاح » فى مثل إعجاب أختها . ولكنها كانت فى حال تعبر عن أسف واستنكار فلم تجب عن سؤالها .

ولاحظت ذلك « سوزان » فزاد ضيقها ولكنها استمرت تواصل إعجابها قائلة :

— ما أبدعه من حفل وما أعظمها من ليلة — أصغى إلى

يا « إصلاح » وعودى إلى ما كنت عليه تنعمى بما فى الحفلة وتشعرى بما أشعر .

وما صمتت حتى نظرت إليها إصلاح من خلال أهدابها الطويلة .

وفى هدوء وعدم اكتراث أجابت على ما سمعته من أختها بقولها :

— لا يا أختاه لن أعود ولن أتحول مهما سمعت ورأيت .

فملقت « سوزان » مدهوشة وقالت :

— واأسفاه . . ما الذى جرى لك الليلة ؟

— لا شىء إلا أننى لم أعد أشعر بمثل ما تشعرين — ولو أنك حكمت عقلك وتجردت من أهوائك لاشمأزت نفسك واستنكرت هذا الحاصل أمامك .

ثم اقتربت منها بوجهها وقالت :

— انظرى أنت معى إلى هذه « البارات »

وأخذت تشير بأصبعها .

— أليست هذه المشارب تباع فيها العقول ويشترى الجنون بالأموال ؟ ثم انظرى إلى هذا المرقص ألم يكن مكانا يباح فيه نوع من البغاء المكشوف ؟ حيث تتخاصر الرجال والنساء وتلتف الأذرع وتلتصق الأجسام؟ وهؤلاء ماذا يعملون ؟ ! أليسوا يقومون بضروب المنكر علنا وبمختلف الآثام فى جرأة ومباهاة . فما قولك بعد ذلك فى هذه المنكرات ؟

فأجابت سوزان مخالفة :

— أنا لا أرى فى ذلك شيئاً من المنكر مادام الغرض منه عمل الخير وجمع المال اللازم لتأسيس ملجأ لإيواء الفقراء إذ لاسبيل إلى إخراج هذا

المال من جيوب الأغنياء والبخلاء إلا بما يشبع رغباتهم ويمتع نفوسهم .

وتكفي نظرة واحدة إلى الأموال التي تتدفق من أيدي المتبرعين ثمناً لزهرة وابتسامة من فتاة جميلة أو امرأة حسناء للحكم على نجاح « المشروع الخيري » الذي سيعمل منها .

فوجمت (إصلاح) ثم قالت :

— هكذا حكمك ؟

— إنه عين الصواب .

— وهل تسمين مايعمل من هذا مشروعا خيرياً ؟

— دون شك — فما عمل كل ذلك إلا من أجل الإحسان إلى الفقراء

— أو تحسبين أن الله سيقبل هذا الإحسان الذي تجمع أمواله من هذه المحرمات ؟

— إنه بحث غريب .

— لكنه حق (فالله طيب ولا يقبل إلا الطيب) أما سمعت من أستاذنا الحديث الشريف :

(كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به)

فما أن سمعت (سوزان) هذا حتى مطت شفتيها وقالت في تأفف :

الأستاذ دائماً : ألا لعنة الله على هذا الشيخ الفاني ويوم حضر عندنا وعلمك مثل هذه الفلسفة الجديدة وهذا الكلام الغريب .

ثم أشاحت بوجهها عنها فوقع بصرها على فتاة كانت تثبت زهرة في سترة شاب تبرع بثمنها فصمتت ولم تتكلم .

وهنا لاحت من إكرام التفاتة فرأت نفس الفتاة فصاحت مستنكرة :

— ألا سحقا لمال يجمع من مثل هذا العمل وسحقا لخير يعمل لغير وجه الله

وفى تلك اللحظة أقبل شوقى خطيب (سوزان) وكان يرتدي (الفرالك) ذات الذيل الطويل . فجلس معهن وانقطع حديثهن .

كان شوقى من الشباب الذين يحبون فى المرأة المال والجاه ، خطب (سوزان) عقب تخرجه من الجامعة لما سيئول إليها من ثراء عن والدها الثرى بعد حب متبادل ترجح كفته عند (سوزان) ألد الأوقات إليه وقت يقضيه فى حفلة من حفلات « زينات هانم » متنقلا بين المسرات والملذات . لذلك كان يرى فى كل حفل مع سوزان .

ولم يطل جلوسه معهن وصدحت الموسيقى برقصة جديدة فاستدار وأخذ خطيبته من يدها فى رشاقة وخفة واتجه بها نحو المرقص .

واستمر الحفل حتى الفجر .

وعندما آوت « إصلاح » إلى فراشها أخذت تسترجع قبل نومها ماعملته فى هذه الحفلة من خير وشر — وأخيراً حمدت الله على أن حفظها من عمل المنكرات ، فلم تلعب الميسر ولم تذق خمراً كما كانت تفعل فى الحفلات السابقة ولم تلب دعوة الداعين إلى الرقص ، ونامت ملء جفونها مستريحة الضمير بعد أن أدت صلاة الفجر .

* * *

وفى الصباح عاد (شاكر باشا) من ضيعته وكان قد اعتاد التنقل بين ضياعه من وقت لآخر منذ أحيل إلى المعاش — فأسرعت (إصلاح) بالدخول عليه فى حجرته وكان قد خلع ملابس السفر واستلقى على سريره ليستريح . فأقبلت عليه تقبل يده فى شوق وحنان ، ثم جلست بجانبه .

وما هى إلا لحظات حتى راح يحادثها فى شأن جمعيتها ويسألها عن أغراضها ومبادئها وكان لا يعبأ بالجمعيات التى ترأسها زوجه ولا يرضى عنها .

فلما سمع من ابنته أن هذه الجمعية تهدف إلى النهوض بالإسلام أعرب لها عن رضاه وشجعها على المضى فيها والسير على مبادئها .

وكان قد حان ميعاد الإفطار فاستأذنت من والدها وانصرفت .

وعلى مائدة الإفطار طلب لإصلاح أن تذهب إلى جمعيتها فقد مضت عدة أيام دون أن تذهب إليها .

ولكنها ما كادت تبدى لوالدتها تلك الرغبة حتى بدا لها منها الرفض وعدم الموافقة فصمتت على مضض .

وما انتهى الإفطار حتى دخلت شرفة حجرتها المطلة على الحديقة وجعلت ترسل الطرف حولها تستمتع بجمال الطبيعة فى ذلك الصباح المشرق .

وبينما هى كذلك إذ بأحد الخدم يدخل عليها بأسعد نبأ كانت ترجوه ولا تتوقعه .

(إشارة تليفونية من جمعيتها تستدعيها بسرعة وتطلب حضورها لأمر هام)

وعلى إثر هذا النبأ استقلت « إصلاح » السيارة فى سرور على كره من والدتها التى لم تر بداً من الخضوع لهذا الطلب .

وصلت « إصلاح » جمعيتها عند الأصيل مستفهمة عن سبب استدعائها . فوجدت السيدات مجتمعات يتشاورن فيما بينهن فى عمل خيرى نافع يحقق بعض أغراض الجمعية ومبادئها .

فجلست معهن ، وانتظم عقدهن .

وفى غمار المقترحات ومختلف الآراء — انفردت (فتاتنا الرشيدة)

برأي أعجبت به الزميلات وأخذنه مسرورات .

كان هذا الرأى مشروع تأسيس مدينة يطلق عليها « مدينة السعادة » . لأيواء بنات الشوارع الساقطات والأولاد المشردين والأيتام — على أن تجمع الأموال الطائلة التى يحتاج إليها هذا المشروع من السيدات الأعضاء جميعاً دون أن يعمل أى حفل لجمع المال وبدون أن تجمع تبرعات خارجة عن دائرتهن ..

ولما كانت سيدات الجمعية كلهن ممن حباهن الله بالثراء والمال الوفير وكن يردن أن يدخرنه عند الله لينعمن به فى الدار الباقية ، فقد تمت موافقتهن بالإجماع فى هذه الجلسة ، ثم أخذت الآراء فى النظم التى ستكون عليها والغاية المقصودة منها وبقيت « إصلاح » فى دار الجمعية إلى أن رجعت السيارة إليها .

* * *

قالت « إصلاح » لوالدها تلك الليلة فى حديث بينهما حول مشروع هذه المدينة ردا على سؤاله :

— نعم ياوالدى فقد أذعنت جميع السيدات لرأيي وأخذن باقتراحى ، واتفقت كلمتنا على تأسيس هذه المدينة من مالنا الخاص . وقد رأيت أن أساهم بقسط وافر فى هذا المشروع الخيري . فإن رغب والدى فى الخير ساهم فى سبيل الله بإحدى ضياعه القريبة من القاهرة كى تقيم عليها المدينة ونبدأ فى تنفيذ المشروع .

قال الباشا وقد أعجب بالفكرة :

— نعم الرأي ما أشرت به يابنية ، بارك الله فيك وسأشرع فى عمل اللازم مع ناظر تلك الضيعة لنزع ملكيتها وتحويلها إلى الجمعية باسمك .

ولم تمض بضعة أيام . حتى أخطرت الجمعية بهذه المنحة الكبرى وبها رشحت سيدات الجمعية زميلتهن « إصلاح » للرئاسة عليهن .

ثم انهالت منهن التبرعات حتى بلغت عشرات الألوف من الجنيهات وبدىء فى تنفيذ المشروع .

ومضى أكثر من أسبوع — فأقامت زينات هانم حفلتها الخيرية التى كانت قد اتفقت مع سامى على إقامتها .

وكانت قد أرسلت دعوة إلى « محسن » فلباها وذهب إلى النادى الذي أقيمت فيه شاكراً مسروراً .

« ومحسن » شاب لم يتجاوز الثامنة والعشرين مشبوب العاطفة وسيم الطلعة ، أنيق الملبس مموج الشعر ، إلا أنه من النوع الذى تغلب هواه على عقله فانقاد لحياة اللهو .

واتخذ « محسن » مائدة حول ساحة المرقص بعد أن اشترك فى جميع الملاهى والمبيعات . وأخذ يملأ كأسه وينظر حوله .

وفى تلك اللحظة لاحت منه التفاتة إلى إحدى الفتيات فلم يتمالك نفسه وأبعد الكأس . وأخذ يتطلع إلى جمالها الساحر .

ثم جلس ساهما موزع الفكر خافق القلب ، إذ كانت هذه الفتاة قد رآها مرة قبل هذه فى حفلة سابقة . وكان قد بهره جمالها وأضنى فؤاده حبها ، على أنها لم تكن قد شعرت به أو التفتت إليه . وبالرغم من هذا فلم يزل خيالها ماثلا أمام عينيه .

آه . إنها هى ولو تغير ثوبها واحتجب جمال جسمها تحت ذلك الثوب الشتوى الأنيق . إنها فتاة أحلامه ومنتهى أمانيه .

وفى اتجاه المائدة التى ضمت مالكة لبه ظل ساهما خافق القلب يمد اليها بصره ولا تمتد إليه عيناها .

وإنه لفى مجلسه ذاك وإذا بشاب أسمر اللون متناسب القسمات لايقل عنه أناقة يقبل عليه فى لهفة ويتعانقان فى محبة وشوق .

كان هذا الشاب صديقه القديم ورفيق صباه وكان مستشاره السابق فى أموره وملهمه فى أعماله إذ كان « محسن » ضعيف الأرادة منقاداً لكل جديد كثير الوقوع فى الزلل .

وترجع هذه الصداقة إلى تجاور الأسرتين فى بلاد المغرب حينما كان منزل جد محسن لوالدته مجاوراً لمنزل والدة صديقه وكان بين الوالدتين صداقة وود متصل قبل وفاتهما .

ثم فرق بين الشابين السفر للتعليم ، فذهب محسن إلى فرنسا ، وذهب « ممدوح » إلى الجامعة المصرية .

ولم يلبث أن التحق بإحدى الوظائف الحكومية وابتاع منزلا صغيراً فى القاهرة وأقام فيه بمفرده .

عرف « ممدوح » أن صديقه جاء قريبا إلى القاهرة بعد حصوله على شهادة من « جامعة السوربون » بفرنسا ليكون بجانب أملاك والدته التى ورثها عنها فسر سروراً عظيما .

فرح الصديقان بتلاقيهما وأخذا يتحادثان وتناسى « محسن » بوجود صديقه الحالة القلقة التى كان عليها قبل حضوره وقدم لصديقه الشراب وأخذ يملأ له الكأس بعد الكأس .

ومرت « زينات هانم » فى تلك اللحظة بموائد المدعوين مرحبة على غير عادتها .

وفى خطا وئيدة تقدمت من محسن وخصته بترحيب زائد لا يدرى له سبباً .

وفى هذا الوقت كانت « إصلاح » تجلس على مائدة مع « يسرية » وصديقة لها هى الأستاذة « سنيه المحامية » وكانت فى ثوب السهرة المحتشم والوجه الطبيعى الخالى من المساحيق آية فى الحسن . وكانت تلك الليلة تخفى شعرها الذهبى بخمار قصير موشى حجب صدرها وعنقها وكانت بهذا الابتكار مثالا للجمال المحتشم الأنيق .

وأتمت « زينات هانم » دورتها حول الموائد حتى وصلت إلى مائدة « إصلاح » فاقتربت منها وقالت لها :

— بعد قليل يبتدىء جمع التبرعات . وعليك أن تحملى سلة الورد وتطوفى بها لهذا الغرض .

فوجمت « إصلاح » وقالت فى توسل :

— أرجو ألا تحمليني على ذلك ياأماه . فهذا عمل أستنكره ولا أقره

فغضبت والدتها وقالت :

— « إصلاح » . . يجب أن تمتثلى ما أقول . ولا أقبل منك أى اعتراض على ذلك .

وانصرفت إلى مائدتها

* * *

مضت مدة على تلاقى الصديقين . . شغل « ممدوح » بعدها بكأسه لاهياً عما حوله من موسيقى وجمال ، ورجع « محسن » إلى شروده الذى قطعه عليه حضور صديقه . واستأنف النظر إلى مالكة فؤاده ، وشرد له

مرة ثانية وسبح فى خياله . ترى من تكون ؟ داعية أم مدعوة ؟ متزوجة أم خالية ؟

ثم التفت إلى صديقه وكان مشغولا بكأسه وقال :

ـــ ممدوح أيها الأخ الرشيد أصغ إلى

ولم يترك الشاب كأسه وقال دون أن ينظر اليه :

ـــ ماذا ؟ أبك شيء يامحسن العزيز ؟

ـــ قد انتابنى عامل نفساني لا أستطيع الآن كتمانه ، إني أحس أن فراغ قلبي قد شغل وليس لى قدرة على إخفائه .

فلم يعبأ ممدوح بقوله وقال :

ـــ لا عليك ياصديقى فهذه أعراض كثيراً ما كانت تعتريك من زمن ولا تلبث أن تزول . إليك هذه الكأس ترجع بعدها إلى حالتك الطبيعية .

فاستاء محسن من قول صديقه وقال متسائلا :

ـــ ماهذا الذى تقوله يا ممدوح ؟

ـــ إنه الحب يامحسن . إنه صديقك القديم وحذار أن تقع فيه الآن .

وأغرق فى الضحك

فقال محسن :

ـــ دع المزاح يامدوح وانظر .

وأشار إلى المائدة المجاورة واستطرد :

ـــ هذه التى تسلمت الورد الآن . ما أبدعها . وما أجملها . لقد سحرت بها وفتنت بجمالها . وإني لأذكر أني رأيتها مرة غير هذه . رأيتها فى « الأوبرج » وكان قد دعاني أحد أصدقائي إلى حفل فيه لكنى لست

أعرف من هى ، فهل تعرفها يامدوح ؟ أرى أنك أعلم منى برواد هذه الحفلات .

وكان « ممدوح » لما يزل مشغولا بكأسه . فلم يرفع عينيه ، بل أمسك بالكأس وتجرعها جرعة واحدة . وزاد فى الضحك ثم ملأ غيرها . وقال مازحا :

— ترى من تكون « يامحسن » ؟ أليست واحدة من بنات حواء ؟ اشرب . . اشرب .

فتناول « محسن » الكأس من يده وأخذ منها رشفة واحدة لأنه كان لا يريد نسياناً لنفسه وقال :

— أستحلفك بحياتى « يامدوح » أن تنظر إليها .

فرفع « ممدوح » نظره إليها متكلفاً على أنه ما لبث أن أنعم فيها النظر ، ثم قال فى أعجاب :

— من تقصد « يامحسن » ؟

— لقد قربت منا . . وأشار إليها .

— إذا كنت تقصد هذه . فلا يسعنى إلا أن أهنئك ياصديقى إذ أرى أنك قد أفلحت هذه المرة ويحق لك أن أراك على ما أنت عليه من الشرود واللحسة .

فقطب « محسن » بعد سرور وقال :

— ألم أقل لك دع المزاح « يامدوح » الليلة .

— ما قصدت مزاحا ياصديقى . وما قلت إلا الحق .

فقال « محسن » فى لهفة :

— هل عندك ما تروبه لي عنها ما دمت تعرفها ؟

— نعم « يامحسن » . ومن ذا الذي لم يعرفهـــا . ويعرف والدتها وإخوتها . إنها الآنسة « إصلاح هانم » ابنة « زينات هانم » صاحبة الدعوة .

— « إصلاح » ؟ . . ياله من اسم جميل .

— ويالها من حسناء عصرية .

ثم أشار إلى إحدى الجالسات وقال :

— وهذه أختها سوزان تلك الجالسة مع خطيبها يحتسيان الخمر .

وأخذ بعد ذلك يحدثه عن والدتها ومنزلة أسرتها وما يعلمه عن حب « إصلاح » لحياة اللهو والترف ، « ومحسن » مصغ إليه فى شوق واهتمام إذ رأي فى وصف صديقه لحبيبته صورة لفتاة أحلامه العصرية التى يريدها شريكة لحياته .

ولم يخطر بباله أنها أتت هذه الحفلة مرغمة من والدتها .

ولم يخطر بباله أنها تقصد من هذا المظهر المحتشم إرضاء الله وخشيته.

بل رأى فتاة العصر والأناقة متجلية فى شخصها . كما رأي فيها جمالا وفتنة وحياة .

استمع « محسن » إلى صديقه وهو ينظر إليها واله النفس خافق القلب والحبيبة لاهية عنه . قد حال بينها وبين الاهتمام به وبغيره الخوف من الله وغض البصر .

وما إن انتهى « ممدوح » من حديثه حتى كانت « إصلاح » تحمل سلة الورد وتمر بها على الحاضرين نزولا على أمر والدتها لجمع التبرعات وقد

ارتسم على وجهها الجميل طابع الملائكة وزينة الحياء .

ثم استدارت إلى الموائد الباقية فإذا بها وجها لوجه أمام « محسن » .

فألفى « محسن » نفسه ينظر إليها مسحوراً مأخوذاً بجمالها ولم يصدق عينيه .

لم يسمع منها كلمة ولاحظى بنظرة ، غير أنه رأى نفسه بدافع خفى يمد إليها يداً مرتعشة بورقة من ذات المائة جنيه ثمناً لوردة من يدها .

وتناول منها الوردة بقلب خافق ثم تمثلت له فيها حبيبته فأودعها قبلة عاطفية وثبتها فى عروة سترته .

ولاحظ ذلك « ممدوح » فقال ضاحكا :

— ماذا ياسيد «محسن» ؟ أهذا بتأثير الحب أم بدافع الكرم والتبرع .

قال « محسن » فى أسى ولوعة :

— لكنها لم تنظر إلى ولم أحظ منها إلا بكلمة شكر عابرة .

فبدت لمعة الدهشة تبرق فى عينى « ممدوح » وقال :

— أتطمع منها فى أكثر من ذلك يامحسن ؟

— مازلت تسخر يا « ممدوح » وأنا أحوج الناس إلى معونتك .

— يالك من طفل كبير ياصديق ؟ ماذا عراك ؟ أتتصور أن ابنة « زينات هانم » يبلغ بها التواضع حداً يحملها على مكالمتك بمجرد تبرعك بمائة جنيه ثمنا لوردة ؟ ألم تر هذا الجمع يكاد يركع تحت أقدامها دون أن تلتفت إلى أحد منهم ؟ .

فاقتنع « محسن » بقوله وقال :

— الحق معك « يامحدوح » فإن هذا الجمال ليسمو بصاحبته أن تبذله

رخيصا ، وإنه ليعلو بها تيهاً وكبراً أن ينال بسهولة .

ثم هدأت نفسه لهذا الخاطر الذى اهتدى إليه هو وصديقه دون أن يعرفا الدافع الحقيقى لتلك الفتاة التى أصبحت ترى الله أمامها فى كل مكان .

وفى تلك اللحظة ساد الحفل صمت عظيم فقد ارتفعت « زينات هانم » المنصة بجوار الموسيقى لتلقى كلمة الشكر المتبرعين .

فدوى التصفيق وأصغى الجميع إليها .

وما انتهت من إلقاء كلمتها حتى خف إليها «محسن» مع العجبين، وكانت لاتزال فى مكانها فأثنى على حفلتها شاكراً جهودها ، وفى أثناء ذلك رأى منها اهتماماً به وابتسامة رقيقة خاصة له وكلاماعذبا موجها إليه . فعجب من هذا وتملكته الدهشة .

ولاتسل عن أثر ذلك فى نفسه فقد كاد يطير من الفرح .

وما لبث أن عاد إلى صديقه وهو يسائل نفسه عن سر اهتمام « زينات هانم » به .

وخيل إليه أنه ربما بالغها ثناء عليه من مالكة له .

فهل عندها مثل ماعنده من الحب ؟ وهل تعرفه وتعرف من أمره مثل مايعرف من أمرها ؟

ثم أفضى إلى صديقه بما كان يجول فى نفسه لعله يمده بما يريح قلبه . فقال :

— إن حبى لهذه الفتاة يا « ممدوح » وانطباق صفاتها العصرية على من أريدها شريكة لحياتى المستقبلة ، يدفعنى إلى غاية لم أشعربها نحو عشرات الفتيات اللائى أحببتهن قبلها إذ أجد فيها المثل الأعلى وضالتى المنشودة .

فقال « ممدوح » فى دهشة وبدون تفكير :

— أتريد الزواج من ابنة « زينات هانم » « يامحسن » ؟

— ولم الدهشة يا « ممدوح » ؟ وماذا فى ذلك ؟ أتظن أنى غير جدير بها أو أنها لاتقبلنى زوجا ؟

— ما قصدت ذلك . لـكن تشجع وأنت وحظك ، وما فاز باللذات إلا الجسور وبالسعادة من يتصل « بزينات هانم » إنه يتملك اللذات ويغرف النعيم .

ثم قال :

— هيا يا صديقى . تقدم إليها من الآن طالباً يد ابنتها . فلعلك تنال ما تريد .

فصمت « محسن » لحظة ثم قال :

— جدا لو أستطيع

— وماذا يمنعك ؟

— لست أجسر على ذلك .

— ومم تخاف ؟ ألست تقول إنها قدحاطتك الليلة بالرعاية ، وخصتك بالعناية ؟ . فما عليك إلا انتهاز هذه الفرصة ولاتدعها تفوتك .

فوقع القول فى نفس « محسن » موقعا حسنا وما لبث أن قام لتوه وأصلح من حلته واطمأن على الوردة التى فى صدره ، وأخذ بيد صديقه وخفا إلى «زينات هانم» كى يقدمه إليها مدعياً أنه يريد شكرها هو أيضاً لعله يجد فى ذلك فرصة مواتية لتحقيق غرضه .

كانت « زينات هانم » قد ذهبت إلى حجرتها الخاصة للاشراف على ما جمع من التبرعات ، وخلت مائدتها منها فى الوقت الذى ذهب فيه « محسن وممدوح » إليها .

فلما لم يجداها دلفا إلى حجرتها ووقفا بالقرب من بابها ريثما تخرج .

وما أشد دهشتهما عندما رأياها تنظر إليهما باسمة كمن تريد أن تتحدث إليهما .

ثم شجعتهما هذه الابتسامة وتلك النظرات المتحدثة

فتقدم إليها « محسن » قائلا :

— أقدم إليك صديقى « ممدوح بك » ليعبر لك عن شكره وتقديره .

فوقفت قبالتهما وابتسمت قائلة :

— وإني لسعيدة بك وبصديقك يا « محسن بك » .

فبهت « محسن » وقال مستفهماً :

— أتعرفينى ياسيدتي ؟

— لقد عرفتك من ولدى « سامى » ألست تعرفه ؟

— من بواعث سرورى أنى تعرفت عليه يوما .

فنظرت إليه وقالت بدون أن تفكر .

— لقد كنت عازمة الليلة على إرساله إليك . لاستدعائك كى تحدثنى عن نفسك .

فدهش « ممدوح » وظهر العجب على وجه «محسن» وقال :

— أيهمك أمرى ياسيدتي ؟

فبدا لها أنها تسرعت بهذا التصريح وحاولت تداركه فقالت مواربة :

— إن الكرماء أمثالك يا « محسن بك » لهم عندى المنزلة السامية والمكانة الملحوظة .

فاستخفه الطرب وقال :

— شكراً ياسيدتي . وما أستحق كل هذا .

وسكتت وسكت ، وساد بينهما صمت أحست خلاله فى نفسها رغبة ملحة تدفعها إلى معرفة أخبار هذا الشاب .

وسرعان مامدت إليه يدها وأخذت تمشى بجانبه فى جهة بعيدة عن المدعوين .

رأى « ممدوح » منها ذلك الاهتمام بصديقه فوجد من اللياقة أن يبتعد عنهما فاستأذن وقفل راجعاً إلى المائدة .

وخلا المكان إلا منهما ، ثم سارت به جهة الحديقة وسار بجانبها فى ضوء القمر ، وكانت تسير بخطوات متمهلة وأخذت تسأله عن نفسه ، وحياته الشخصية وعائلته .

سمع « محسن » منها تلك الأسئلة فوجد أن الفرصة مواتية يجب عليه انتهازها ، وألا يدعها تفوته كما وصاه صديقه ، ومن يدرى فلعل ذلك يساعده على الزواج بمالكة لبه فقال :

— بدأت حياتى بين والدتى وجدى (الشريف المرجانى) شيخ الإسلام السابق فى بلاد المغرب . إذا كان والدي « على بك المستكاوى » قد طلق والدتى بعد ولادتى بشهر واحد . فأخذتنى مع مربيتى (عسرانه)

وسافرت عند والدها تاركة أملاكها بالقاهرة ثم ماتت وأنا صغير .

فتطلعت إليه فى تفرس كمن اهتدت إلى ضالتها وكأنما اسم والده واسم مربيته زادا فى اهتمامها لسماع بقية الحديث فقالت مستفهمة زيادة فى التأكد :

— ألم تر والدك فى حياتك !

— كلا ياسيدتي . . ولم أدر عنه شيئا وتقول مربيتى أنه مات ، وترك فتاة من سيدة تزوجها بعد والدتي .

وعند ذلك تأكدت من صلة القرابة التى بينهما .

ولكنها ما كادت تهم بإطلاعه على تلك القرابة حتى بدا لها شبح سر دفين مع والده من خلال اسم مربيته فعادت تسأله :

— وهل مربيتك على قيد الحياة ؟

— نعم : وهى لم تزل فى خدمتنا حتى الآن .

فلم تكد تسمع ذلك حتى تغير وجهها ، وداخلها شعور أزمعت معه على إخفاء تلك الصلة عنه وعن أولادها ثم قالت متسائلة :

— ومتى جئت القاهرة ؟

— منذ بضعة شهور بعد أن نلت شهادة من « السوربون » وكان جدى قد عارض كثيراً فى سفرى . وأخيراً تغلبت أنا وخالتى عليه وجاء معنا ، وقد عينت مديراً لإحدي الشركات الكبرى بمرتب كبير . .

وإلى هنا رأت أن تغير مجري الحديث بعيداً عن أسرته حتى لايرتاب فى أقوالها فقالت :

— أتحب القاهرة « ياحسن بك » ؟

— ما أحبتها كحبي لها الليلة .

وأعجبها القول فابتسمت وقالت :

— لعلك وجدت فيها الليلة هوي يا « حسن بك » ؟

فانبسطت أسارير وجهه وتذكر في الحال قول صديقه « فاز باللذات الجسور » فاجترأ وقال :

— وإن هواي لعند سيدتي .

فأدهشها القول فقالت في عجب مستفهمة :

— عندي أنا يا « حسن بك » ؟

— نعم ياسيدتي .

ونظر إليها ونظرت إليه ، وكان يشع من عينيها بريق استفهام ممزوج بعطف نفذ إلى قلبه فشجعه على استئناف الحديث فقال في جرأة :

— وإن هواي لفي الزواج من الآنسة « إصلاح هانم » ، فهل تقبلني سيدتي زوجا لابنتها ؟

وصمت وانتظر الرد ، وكان قلبه يخفق ، وأخذ ينظر إليها في اضطراب .

كانت « زينات هانم » إلى هذه اللحظة تجد في نفسها رغبة تدفعها إلى معرفة أخبار هذا الشاب وصلة قرابة توحي إليها بذلك دون أن تفكر فيما طلبه منها الآن أو يخطر لها على بال . فلما ألقى عليها هذا الطلب حضرتها خواطر شتى وذكريات ماضية .. وما لبثت أن قالت :

— يلزمنى يا « محسن بك » قبل الإجابة عن سؤالك أن أتدبر الأمر وأفكر فيه .

إلا أن « محسن » تشجع وألح وأكثر ؛ واستعطف وتملق ، وكانت « زينات هانم » ترى ذلك وتعجب من تلك المصادفات التى أيقظت السر الدفين ومن المقادير التى تأبى إلا أن تربط الماضى بالحاضر . وأخيراً وأمام إلحاحه ورغبته الصادقة فى طلبه ، لم تجد مندوحة عن موافقته على ما أراد بعد أن راقتها صفاته ومؤهلاته .

ولما كانت تعلم أن ابنتها لا ترغب فى الزواج من أمثال هذا الشاب فقد طلبت منه ألا يكلم « إصلاح » هذه الليلة حتى تمهد له ذلك . وحددت له موعداً للحضور عندهم لمقابلة (الباشا) .

فابتهج « محسن » وغمره السرور . ووافق على ما أرادت . ثم قدم إليها بطاقته شاكراً . ورجع إلى صديقه وهو لا يكاد يصدق ماوصل إليه ، وأخذ يقص عليه ما تم بينهما فى فرح وسعادة .

فسر « ممدوح » وهنأه ثم أشار عليه بسرعة الخروج فامتثل لأمره واستمر الحفل إلى ما بعد منتصف الليل .

وقبل أن تأوي « إصلاح » إلى فراشها أخذت تستعرض كعادتها مارأته فى تلك الحفلة من موبقات ، وتسترجع ماسمعته من منكرات فاشمأز قلبها وضاق صدرها ، وفى الحال تذكرت الحكمة الملهمة :

« من لم يستطع أن يزيل المنكر فليزل عنه »

فعاهدت نفسها على عدم غشيان جميع الحفلات التى تقام باسم الخير ، وتحوى ضروب المنكر .

ثم أخذت تفكر فى حياتها الجديدة بعد أن نالت شرف الرياسة فى جمعيتها فعزمت على أن تكون قدوة صالحة لمن معها . وأن تجاهد فى سبيل الله وتدعو إليه ما استطاعت .

غير أنها رأت أن ذلك العزم لا يتحقق إلا إذا زادت عنايتها بفهم درس الدين الذي تأخذه من « أستاذها » مع إخوتها كل أسبوع . والعمل بما تسمعه .

وهكذا رسمت « إصلاح » لنفسها فى تلك الليلة نوعا من الحياة خالياً من مفاسد الدنيا ، موصلا إلى نعيم الآخرة .

فهل تريد أن ترى درساً من هذه الدروس ومقدار تأثرها به بعد ذلك العزم ؟

إذاً فهيا نستمع لما جرى فى درس اليوم .

٨

دخلت « إصلاح » الحجرة المخصصة للدروس قبل الميعاد بمدة طويلة وأخذت تراجع دروسها الماضية .

وبعد قليل أقبل أخوها « حسين » وجلس بالقرب منها . واشترك معها فى الاستذكار .

وحسين شاب فى الرابعة والعشرين ، أتم تعليمه الجامعى ثم التحق بإحدى الوظائف الحكومية الممتازة . وقد كان منقاداً لحياة اللهو كوالدته وإخوته . لكنه ما كاد يستمع إلى الدروس الدينية حتى تغلب عقله على هواه ، وأخذ يجتهد فى معرفة أوامر الله والابتعاد بنفسه عن المعاصى .

ومضت فترة وهما يتذاكران ، ثم بدأ حسين الحديث مع أخته قائلا :

— سمعت أن الأسرة ستذهب الليلة إلى إحدى دور الخيالة فهل ستذهبين معها ؟

فتركت الكتاب من يدها وقالت :

— نعم . . وهل ستذهب أنت ؟

— كلا وسأعتذر لوالدتى عن الذهاب الليلة .

— ولماذا ؟ أأنت على موعد ؟

— لا .. ولكنى أصبحت أستنكر وأشمئز مما أراه فى هذه الدور من الصور الخليعة . والمناظر المخزية التى تحتوي عليها معظم القصص المعروضة بها .

فصمتت هنيهة ثم قالت :

— الحق معك . . وقد كان بينى وبين والدتى صباح اليوم حديث

حول هذا الموضوع ، غير أنى علمت أخيراً أن رواية اليوم من الروايات الأدبية التى تحث على الفضيلة ، وتدعو إلى الخير .

وإلى هنا انقطع الحديث بينهما وتوقفا عن الكلام . فقد سمعا دقات حذاء ونعال تقترب من الحجرة . أدركت « إصلاح » من الدقات أن بين القادمين والدتها ، ولابد أنها آتية لتحول بينها وبين الاستذكار . وإلا فما الداعى لمجيئها .

لقد صدق حس « إصلاح » ودخلت الوالدة ومعها «سامى وسوازن» وعند دخولها نظرت إليهما فى غضب ثم قالت مخاطبة « إصلاح » :

— ألم أطلب منك هذا الصباح إلغاء درس اليوم لأننا سنذهب جميعاً إلى « السينما » فى ذلك الميعاد فلماذا تخالفيننى ؟

فقالت الفتاة فى هدوء :

— حقا يا أماه . ما كان ينبغى ذلك . ولكنى رأيت أن نجمع بين هذا وذاك فما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأخذنا بكل منهما . لهذا أرجوا ألا تحرمينا من درس اليوم . وسأجتهد أن نخرج فى الميعاد الذى ترغبينه .

فأعجب « حسين » بهذا القول وقال :

— قول حق . ومنطق معقول . وإنى أعاهدك يا والدتى . على أن تنهى الدرس فى ذلك الميعاد .

وبعد أخذ ورد وافقت الوالدة على كره من « سوزان وسامى » .

« وسامى » ولو أنه يكبر أخاه بعامين إلا أنه كان كغيره من الشبان الذين يعتمدون على ثراء آبائهم وجاههم ، فلم يتم تعليمه ولم يعبأ بوظيفة

واستمر هو وتوأمته « سوزان » على نهج والدتهما وطريقها فى الحياة .

ومضت مدة وجاء « الأستاذ » عند الأصيل .

أتذكره ؟

إنه الشيخ الذي طالما سمعت الكثير من القذف فى حقه من « سوزان » وشعرت بشدة كره « زينات هانم » له .

شيخ ورع . وعالم تقى ، أتاه الله الحكمة ونور الإيمان وقوة البصيرة أسمر اللون ، كبيرة السن ، له لحية بيضاء وعليه هيبة ووقار ، جمع فى هيأته بين سيماءى السماحة والشدة ؛ قوى العزيمة فى طاعة الله — لا يخشى فى الحق لومة لائم ، مخلص لله ، إذا صمت رطب لسانه بذكره وتسبيحه وحمده . وإذا تحدث إليك فى الدين أخذ بلبك حديثه ، ورغبت فى العمل للآخرة وترك ملاذ الدنيا لذلك ترى تأثيره قوياً فى معظم من يستمع إليه .

وعندما دخل الحجرة جلس أمام مكتبه المخصص له ، وجلس الإخوة على المقاعد الوثيرة المرصوصة فيها ، ومرت لحظات ثم بدأ فى الدرس وكان تفسيراً لمعنى الآيتين الكريمتين :

(قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون) .

(وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها . وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا

على عورات النساء . ولا يضربن بأرجلهم ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) .

وخلال تفسيره المطلق يكشف لهم عما بينه سبحانه من عقاب المخالفين لأوامره والمخالفات . وما يلحق السافرات المستهزئات بلبس الخمار من العذاب بأسلوبه الأخاذ . وبما يناسب مرمى الآيتين الكريمتين من الأحاديث والآيات .

وفى أثناء ذلك صاحت «سوزان» متحدية :

— أيها الأستاذ.. إن هذا الخمار لا يتمشى مع العصر الحاضر . ومدنية القرن العشرين . وما دمنا نعيش فى هذا العصر فلا مندوحة لنا من مجاراة أهله .

فصمت الأستاذ قليلا ثم قال :

— هذا غير صحيح . لكن قبل أن أرشدك إلى الصواب . أود أن أوجه إليك بعض أسئلة أرى ضرورة الإجابة عليها .

فأومأت موافقة . . فقال :

— هل جاء دين بعد الإسلام ؟

— لا

— وهل جاء نبي بكتاب من عند الله غير القرآن ؟

فلما أجابت بالنفى قال :

— إن أوامر القرآن . وسنن الإسلام يابنتى نزلت لكل زمان ومكان ومما لا شك فيه . أن الله سبحانه عندما أنزل كتابه . كان فى علمه أن الزمان سيتغير . وسيأتى هذا العصر الذى زعم قومه التمدن والتنور . وعبدوا

الأناقة والتجمل. وانتشر فيه الفساد . فأوحى إلى نبيه أن يعلم أمته. كيف يعيش من أدرك مثل هذا الزمن . . فقال صلى الله عليه وسلم :

— (من تمسك بسنتى يوم فساد أمتى فله أجر مائة شهيد)

لهذا فليس لمن يعيش فى هذا الجيل ، عذر وليس ثمة فرق بينه وبين من عاش فى عصر قبله . إذ الرجال فى جميع العصور هم رجال . والنساء هن نساء . والله واحد ولا مبدل لكلماته .

فقال حسين مستفهما

— معنى هذا يا « أستاذى » أن الذين أباحوا خروج المرأة سافرة كانوا مخطئين فى تلك الإباحة .

— كل الخطأ يا ولدى . وهم مسئولون عنه أمام الله . خصوصاً إباحة ذلك العرى الفاضح . والسفور الخارج عن الحد المطلوب شرعا . لأن جميع بدن المرأة عورة يجب سترها عن الأجانب . وقد يجوز لها كشف الوجه واليدين بشرط خلوها من الزينة والتجمل ـ وفرض مقدس خروجها محتشمة .

فما كادت إصلاح تسمع ذلك حتى بدا التأثر والاقتناع على وجهها . وفى ثقة وعزم ـ تقدمت إلى الأستاذ وعاهدته على ترك التبرج والسفور الخارج عن الحد المشروع .

فنظرت إليها سوزان فى ضيق ودهشة — ثم اتجهت إلى الأستاذ وقالت ساخرة :

— لكن هذا الاحتشام يعرضنا لسخرية السواد الأعظم من الناس.

فحدجها الأستاذ بنظرة ذات مغزى ثم قال متسائلا :

— أى ناس تعنين ؟

فأجابت فى تهكم :

— أعنى أهل التمدن والرقى منا ومن الأمم الراقية التى أباحت ذلك .

فتجاوز الأستاذ عن سخرها وتهكمها وقال فى هدوء :

— يجب يابنتى ألا تعتقدى أن أمة راقية رقياً حقيقياً تقر المرأة على هذا العرى الفاضح ؛ والسفور الخارج عن الحد .

فلم تقتنع بما سمعته وقالت متحدية :

— ولماذا ؟ . . أليست هذه المدنية الحديثة قد أتت إلينا من أرقى البلاد الأوربية ؟

فتصدى لها الأستاذ — وفى صراحته المعهودة انفجر قائلا :

— كلا . . . بل من أحط أهل هذه البلاد وأجهلهم

وكان يعنى الطبقة التى لا هم لها إلا نشر البدع الفاسدة والخلاعة ، دون أن يكون للعقل سلطان على هواهم . . . ثم استطرد قائلا :

— لأن رقى الأمم نتيجة لتمام عقل أفرادها واتباع أوامر دينها .

وعرى المرأة لا يقبله عقل . ولا يأمر به دين . . ولو بحثنا فى الأديان السماوية لما وجدنا ديناً يبيح للمرأة أن تخرج على هذه الصورة . عارية الجسم . والرأس . بدليل أن من تقلدونهن . لم يزل منهن محافظات على حجابهن عند دخولهن المعابد . ومنهن الراهبات المتحجبات . . ثم مالنا يا بنتى ولغيرنا من الأديان . وقد أمر الله النساء المسلمات بالحجاب فقال تعالى .

« يا أيها النبى قل لأزواجك . وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن »

وهذا أمر صريح للمرأة بالاحتشام. وعدم إباحة خروجها عارية .

وصمت لحظة — وكأنما عز عليه أن يتركها فى جهلها فعاد إلى الوعظ والإرشاد قائلا :

— فلو أنك اهتديت لطاعة الله يابنية لعرفت أن هذه الدنيا ليست دار عبث وتقليد أعمال منكرة ؛ إنما هى دار اختبار لطاعة الله ؛ واجتهاد فى تنفيذ أوامره التى أنزلت فى كتابه الكريم . وقنطرة توصل إلى النعيم المقيم أو العذاب الأليم .

أطيعى الله يا بنتى طاعة خالصة تجدى أنك مخطئة فى قولك هذا وابتعدى عن الشهوات . وتقليد أتباع الشيطان . تتكشف لك الحقيقة فتحتقرى كل من تخالف أوامر الله ؛ وتقول (بأن الخمار لا يتمشى مع العصر الحاضر ومدنية القرن العشرين) .

وما سمعت هذا « سوزان » حتى ظنت أنه يعنى تحقيرها فتمتمت ساخرة من قوله . وكانت بالقرب من سامى . فهمس فى أذنها أن تقصر الحديث معه فقد قرب ميعاد خروجهم .

٩

وقبل الغروب حضرت يسرية لتذهب مع الأسرة إلى (دار الخيالة).. فلما علمت أن الإخوة مع أستاذهم فى حجرة الدرس . أرادت أن تشترك معهم لترى ذلك الأستاذ الذى سمعت عنه كثيراً دون أن تراه .

وعند دخولها ـ نظر الأستاذ إلى ساعته ـ ثم بدأ فى اختبار تلاميذه المعتاد نهاية كل درس .

فأظهرت « إصلاح » من الخبرة بالدين ما أدهش يسرية وأعجبها . وظهر على حسين من النبوغ والفطنة ـ ما جعل « أستاذه » يثنى عليه ويفخر به .

وما انتهى الاختبار حتى قدم إلى كل من إصلاح وحسين مصحفاً مُميناً مذهب الأطراف مع نسخة من الأحاديث الصحيحة وقال :

ـ أقدم إليكما هذين الكتابين مكافأة لكما على التمسك بأهداب الدين .

ثم أخذ يبين لتلاميذه أهميتهما وفائدتهما فقال وهو يشير اليهما :

ـ هذان يا أولادى هما نور الله فى أرضه . ومصدر سعادة الإنسان فى دنياه وآخرته . . والصلة بينه وبين ربه . . تركهما النبى ﷺ لأمته وأوصاها العمل بهما فقال .

(تركت فيكم أمرين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا كتاب الله وسنتى) .

واستطرد قائلا :

ـ إنهما يا أبنائى باقيان مابقى الزمان ، صالحان لكل عصر خصوصاً هذا العصر الذى ضل فيه كثير من المسلمين للغفلة عنهما ، وعدم العمل بكل ما فيهما .

ثم راح يبين لتلاميذه فوائد القرآن الكريم فقال :

ـــ وكتاب الله يا أولادى فيه نبأ ماقبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم . هو الفصل ، ليس بالهزل . من تركه من جبار قصمه الله . ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله . وهو حبل الله المتين . وهو الذكر الحكيم . وهو الصراط المستقيم . من قال به صدق . ومن عمل به أجر . ومن حكم به عدل . ومن دعا إليه هدى إلى الصراط المستقيم .

وما وصل إلى هذا الحد حتى نظر سامى فى ساعته ثم مال على (حسين) يذكره بوعده لأمه .

ولاحظ ذلك الأستاذ فختم درسه وخرج .

ولو كنت حاضراً هذا الدرس لأمكنك الحكم على مقدار تأثيره فى نفس كل من الإخوة الأربعة ـــ فما كان أشبههم بأرض مختلفة التربة تسقى بماء واحد . ما كادت الخصبة منها ترتوى حتى (اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) أما الصخرية ؛ فانها أجدبت ولم ير للماء فيها أثر . ولم تنتج نفعاً .

أما يسرية ـ فإنها ما كادت تستمع إلى ما كان خافياً عليها من فوائد الكتاب والسنة . حتى هب عقلها مستيقظاً ـ وراح ينبهها إلى وجوب الانتفاع بهذين الكتابين المقدسين .

وسرعان ماشملتها موجة من الخشوع والإيمان ؛ وداخلها شعور أحست منه بظمأ يدفعها إلى الإرتواء من منهلهما العذب .

وما هى إلا لحظات حتى تقدمت من إصلاح .

وفى رغبة صادقة عاهدتها على دراسة أوامر الدين معها .

وكان قد حان ميعاد الذهاب إلى دار الحيالة. فأرسلت زينات هانم فى طلب أولادها .

وكانت سوزان عقب الدرس قد استكملت زينتها. فأسرعت إليها قبل أخوتها .

وفى الحديقة الخارجية وقفت سوزان مع والدتها تتحدث عن إصلاح وما سمعته منها فى درس اليوم .

فعلت الدهشة وجه أمها وغضبت من تصرفات ابنتها .

وفى تلك اللحظة أقبلت إصلاح » مع يسرية مرتدية أكثر أثوابها احتشاماً وأقلها زينة ... ثوب من الحرير المنقوش . له أكمام طويلة وصدر مغلق أكسبها رونقا وأناقة . وكان على رأسها منديل كبير مرقش « إيشارب » حجب رأسها وعنقها . كما لبست جورباً طويلا . ولم تضع على وجهها شيئاً من المساحيق . فظهر محياها الطبيعى الجميل ، وأشرق خداها الورديان ، وشفتاها القرمزيتان الطبيعيتان . وكانت على صورة رائعة تجمع بين الأناقة والحشمة والمظهر الداعى إلى الاحترام .

لكن هذا المظهر لم يسر والدتها. ولم يزدها إلا ضيقا وسخطا .

ومن خلال منظارها الأسود صاحت فى وجه ابنتها قائلة :

— أمتحجبة يا إصلاح ؟ . يا لسخرية الناس !

فقالت « إصلاح » فى عزم وإصرار .

— لست أخشى سخرية أحد يا أماه بعد الذى سمعته فى درس اليوم : ما دام فى ذلك طاعة لله ولرسوله .

وكان شوقى قد أقبل بسيارته ـ فانقطع الحديث وخرج الجميع . إلى دار الحيالة .

(واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) .

هذه هى أوامر الله للنساء المسلمات .

وذلك ما اعتادت أن تفعله « إصلاح » بعد أن أهدى إليها أستاذها كتاب الله الحكيم وعرفها قدره وشأنه .

فكانت تتلو بعض سوره فى حجرتها كل صباح طاعة لهذا الأمر الكريم . ثم تقرأ فى كتب الحديث والأحكام .

وكثيراً ما كان لها جلسات مع يسرية كلما حضرت عندها تنفيذا للعهد الذى قطعته معها .

ومر شهر — ومع مسيره الوادع أخذ قلب (إصلاح) يستنير بنور الدين — ويزداد ميلا إلى الاستزادة منه .

وفى نهاية هذا الشهر جاءت يسرية كعادتها وكانت تلبس ثوبا رمادى اللون — أهم ما يلفت نظرك إليه ذلك المظهر المحتشم الذى خلعه عليها ولم تضع على وجهها شيئاً من المساحيق ومع ذلك كانت تبدو أجمل من قبل بكثير .

وما هى إلا لحظات حتى كانت هى وإصلاح فى شرفة القصر المطلة على الحديقة تجاه النيل .

وعلى الأريكة الوثيرة التى تتوسط الشرفة جلست الفتاتان أمام منضدة صغيرة عليها عدة مجلدات من الكتب الدينية — جعلت إصلاح تنتقى منها ماستقرآنه الآن .

ومرت فترة على حضور يسرية أدتا فيها صلاة العصر بخشوع واطمئنان .

وما فرغتا حتى أخذت « إصلاح » تتلو معها بعض آيات من القرآن

الكريم والأحاديث الصحيحة بتدبر وفهم . ثم راحتا تتحادثان فيما فهمتاه في هدوء وانشراح .

وكان من عادة إصلاح أن تسلك مع صديقتها في دراسة الدين مسلكه السهل الذي أمر به ﷺ في حديثه الشريف .

(الدين يسر فأوغل فيه برفق) .

فكانتا لا تأخذان منه إلا بقدر مايطيقه عقلهما المستنير ؛ ويتحمله قلبهما التقي الرقيق .

وكانت في كل ذلك لاتتعدى حدود تلك الآية الكريمة .

(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا)

لهذا ما كادت ترى الشمس قد غربت واحتجبت وراء الشفق. حتى تركت هي وصديقتها القراءة . واضطجعت كل منهما على أريكة بعد أن أدتا صلاة المغرب ؛ وراحتا تتسامران بأحاديث طريفة ــ عن طيش الماضي وأمل المستقبل ــ في ضحك وسرور .

وهكذا كانت حياتهما .. دنيا ودين .. فيالها من سعادة

* * *

ومرت بجلستهما فترة طويلة .

وفيما هما تتحادثان إذ « بسوزان » تدخل عليهما ثم تضغط على زر الكهرباء فيسطع نور الثريا وتضيء الشرفة ، فتبدو أمامهما بملابس الخروج السافرة وفي أتم زينة ، ثم تجلس أمامهما على أحد المقاعد وتبدأ الحديث مع « يسرية » أثناء جلوسها :

ــ مساء سعيد يا « يسرية » .

ــ مساء سعيد يا أختاه ... أخارجة أنت أم آتية من الخارج ؟

— لقد أتيت الآن — وما أن علمت بوجودك هنا حتى أسرعت إليك قبل أن أخلع ملابسي . لأنى أصبحت لا أراك إلا مع إصلاح أو فى صومعتها

وفى نبرة ساخرة استطردت قائلة .

— فتعالى حدثينى عن الدين الذى عرفته منها . . ليكن فى الصلاة . . كم ركعة صليتما اليوم ؟ ومن منكما الإمام ومن المأموم ؟

وجعلت تتهكم عليهما وتسخر بصلاتهما .

فلم تطق يسرية تهكمها وأسرعت قائلة :

— كفى .. كفى استهزاء وسخرية . . أتهزئين بأوامر الله وبالصلاة التى هى فريضة عليك وعلى كل مسلم ومسلمة .

فابتسمت « سوزان » وقالت فى شبه اعتذار .

— لاتظنى ذلك يا « يسرية » . فأنا لا أهزأ إلا من المصلين فقط .. لأنى أشاهد الكثير منهم ، يسرقون ويكذبون ولا يوفون بعهد ويأتون فى نواديهم المنكر ومع ذلك يركعون ويسجدون .

فارتسمت الدهشة على وجه إصلاح ، ثم قالت :

— إنك لمخطئة ياسوزى فى اعتقادك هذا . فما مثل هؤلاء بمصلين وإن كانوا يركعون ويسجدون ، لأن « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » .

فقالت وكأنها تسخر .

— عالمة . . وفيلسوفة .

فربتت « يسرية » بيدها الرقيقة على وجه إصلاح المشرق . وقالت مدافعة :

— بل درة نادرة فى هذا العصر ولو كان لى أخت مثلها لما بقيت

مثلك إلى الآن . ولاتخذتها نبراسى فى الظلام . . عفوا يا سوزى ، ما قصدت بذلك إلا إرشادك إلى الصلاة وهدايتك .

فقهقهت سوزان ضاحكة وقالت :

— هدايتى ؟ يالك من ساذجة يا « يسرية » . أتظنين أن الصلاة هى كل شىء ؟ . .

إننى أضيع معظم أوقاتى فى أعمال كثيرة غيرها . ولقد عرف الناس كم أغدق على جمعيات البر ؛ والإحسان . وكم أساهم فى خدمة الإنسانية والنهوض بالبلاد؛ ولولاى مانجحت جماعة (المجاهدات فى سبيل الوطن) .

فقالت « يسرية »

— ليس لى أن أحكم على مقدار ما ستنالين من الثواب على تلك الأعمال. فهذا من علم الله وحده ، ولكن الذى علمته من الدين هو (أن الله لا يقبل عملا من تارك صلاة) .

وقد كنت أقرأ اليوم مع إصلاح فى أحد كتب الحديث . عن نفس هذا الموضوع. فعلمت أن الصلاة لابد أن تؤدى فى وقتها قبل أى عمل ، ولاعذر لتاركها . من سن البلوغ . حتى تخرج الروح من الحلقوم ؛ فمن الخير إذن أن نبدأ بالصلاة . ولانؤخرها عن أوقاتها .

وفى تلك اللحظة سطع القمر .فقد كانت الليلة من الليالى التى يظهر فيها القمر مبكراً .فلاح فى الأفق قرصاً قد كمل تكوينه . وأنار الكون بضوئه الساحر . فأطفأت « إصلاح » نور الشرفة وانقطع الحديث ووقفت الفتيات على حافتها وأخذن ينظرن إلى ماء النيل وقد أضيء سطحه وهب نسيمه . وأخذ يداعب ثيابهن ؛ وفاح الهواء العليل معطراً برائحة

زهور الحديقة ، فخلع ذلك الابداع على إصلاح « ويسرية » وجدانا شعريا اهتزله قلباهما . وملك مشاعرهما ـ فراحتا تتأملان فى صنع الله . وجمال خلقه وبديع صنعه ـ على حين وقفت « سوزان » تضحك منهما سخرية ومزاحاً .

وجلجلت فى سكون الليل دقات ساعة البهو القريبة من الشرفة فانتفضت يسرية كمن تذكرت أمراً .

وكانت والدتها قد اتفقت معها على أن تحضر لزيارة زينات هانم ـ فما لبثت أن قالت :

ـــ لقد أبطأت فى العودة .. وأظن أن والدتى قد طرأ عليها ما منعها من الحضور الليلة ؛ لهذا يجب ألا أمكث أكثر من ذلك .

وما إن سمعت « سوزان » ذلك حتى أتت بحركة كأنما تذكرت شيئاً وقالت :

ـــ أرجو المعذرة يا « يسرية » . فقد أنسانى الحديث معكما والضحك منكما أن أخبرك بأن والدتك هنا .

فبدت الدهشة على يسرية وقالت :

ـــ ولماذا لم ترسل فى طلبى ؟

فنظرت إليها سوزان ، ضاحكة كمن تحاول إخفاء أمر عنها .

ثم قالت :

ـــ لقد كانت تريد ذلك . غير أن أخى (حسين) آثر تركك قليلا .

فزاد اندهاشها وقالت :

ـــ عجبا ! ! ولماذا ؟ وهل هناك سر ؟

فتبسمت سوزان ضاحكة ـ ثم بدا عليها ما كانت تحاول أن تخفيه وقالت :

— ربما تكونين بعد قليل خطيبته :

ولم تكن يسرية تتوقع ذلك . فتورد وجهها ولم تتكلم . أما (إصلاح) . فلم يكن الوقف مفاجئاً بالنسبة اليها . فقد كانت تتوقع ذلك وترجوه . لهذا صاحت في بشر وسرور :

— أهنئك يايسرية . أهنئك يا أختاه بهذه الخطبة السعيدة . وأهنىء نفسي سروراً برؤية أخي يظفر بمثلك (خير متاع الدنيا المرأة الصالحة) .

بعد ذلك تحدثت (سوزان) فأخبرتهما بكل ما سمعته من أخيها في شأن سفره إلى والده في ضيعته وحصوله على موافقته .

ولم تمض فترة وجيزة حتى جاء (رئيس الخدم) يستدعي (يسرية وإصلاح) .

وسرعان ما انتشر النبأ . وأعلنت الخطبة . وفي نفس الليلة رأت (زينات هانم) أن تعلن على الحاضرين نبأ خطبة (محسن) (لاصلاح) التي تمت بينها وبينه يوم حفلة النادي ، فراحت تصف لهم ذلك الخطيب بما يرفعه في نظر من لا يهمهم إلا التمتع بنعيم الدنيا وملاذها . وتصوره بما يخفق له قلب كل فتاة تسمع بشريك حياتها المستقبلة .

فما أن طرقت أسماع الحاضرين هذه الصفات ؛ حتى غمرهم الفرح وشملهم السرور .

ثم مالت (عنايات هانم) والدة يسرية ـ على زينات هانم مستفهمة عن أسرة هذا الشاب في لهفة واهتمام .

ولعلها ظنته أخا لابنتها من والدها ؛ أو قريبا لها لتشابه لقبيهما .

لكن سرعان ما بددت زينات هانم ظنونها ؛ وغيرت أفكارها وأخفت الحقيقة عنها .

أما إصلاح ـ فإنها ما كادت تسمع من والدتها بصفات خطيبها وأخلاقه حتى أحست بانهيار أمانيها ، وبتهدم آمالها ؛ ولم تفرح بثرائه وجماله ؛ بل حزنت وتألمت . وبخاصة عند ماعلمت أن أمها قد ارتبطت معه . وتم الاتفاق دون أن تستشيرها .

فلما رأى الجميع ما ألم بها . حاولوا إقناعها بأن (محسنا) هذا خير زوج بالنسبة لشبان هذا العصر. وأن كل الشبان يقلعون عن عاداتهم ، ويغيرون من طبائعهم بعد الزواج . أما قبله ـ فإنهم يمرحون ويرتعون فى ملذاتهم وأهوائهم .

عند ذلك لزمت الصمت . ورأت من الخير إظهار الاستسلام كى تدخل السرور على أخيها وصديقتها فى مناسبتهما السعيدة ثم راحت تشارك الأسرة الاحتفال بتلك الخطبة .

فى هذه الليلة رأت (زينات هانم) أن تحتفل بخطبة ابنها احتفالا عائلياً .

فما انتهت الأسرة من تناول العشاء حتى اجتمعت بحجرة الموسيقى .

وهناك لعبت أنامل (إصلاح) الرقيقة على المعزف ؛ وتحركت أوتار العود والكمان من (سامى وحسين) وغنت (سوزان) بعض أغنيات بصوتها الرخيم ـ ثم راح الجميع يرقصون على نغمات (الحاكى) وامتد السمر بالأسرة إلى ساعة متأخرة من الليل .

ولو كنت حاضراً (إصلاح) وهى تعزف ألحانها لحناً بعد لحن

أو شاهدتها وهى تراقص (يسرية) لأيقنت أنها تبالغ فى اخفاء ما بها لتدخل السرور على الخطيبين .

ثم انتهت الحفلة؛ وهجعت الأسرة وقد شمل السرور أفرادها بما ستجلبه أفراح الزواج من مناسبات اللهو والطرب إلا قلباً واحداً لم يهزه الفرح ولم يحمل إلا أملا خائباً . وهما ثقيلا . ذلك هو قلب (إصلاح) . فقد ظل مشغولا بصفات ذلك الخطيب وأخلاقه .

ويقيناً لو أن هذا الخطيب صادف (إصلاحا قبل الآن بعام أو أكثر لاهتز له قلبها ولوجدت فيه رجل أحلامها والأمل المنشود . أما بعد أن أصبحت فتاة تقية متفقهة بما تعلمته من أستاذها . وبما درسته من مكتبة أبيها وما فيها من كتب الدين ـ فإنها نفرت من هذا الشاب المتفرنج .ولم تسر بهذا الزواج . وباتت ساهرة تفكر فيما سوف يصيبها معه بسبب اختلاف الأهواء . والآراء . ثم راح خيالها ينقل إليها عنه صوراً مختلفة ـ عكرت عليها ليلتها ... رأته على هيئة زوج سكير يدخل بيته ثملا يترنح . . ثم رأته يجلس على مائدة الميسر كما سبق له ذلك مع أخيها سامى وقد خسر ماله وتهدم بيته ـ وظل خيالها ينتقل بها من سيئ إلى أسوأ . حتى جمعت من تلك الصور هيئة رجل فاسق . مستهتر . وشملتها كآبة مظلمة .

وما كان أقسى هذه الأفكار عليها تلك الليلة . لولا أن الله الرحيم تداركها برحمته . أو أن نفسها المطمئنة انقادت إلى عقلها الراجح الذى أوعز إليها بأن الزواج من بواعث القدر (وما قدر يكون) وبأنه ربما يمكنها إصلاحه فتنال عظيم الثواب فى الآخرة ؛ وتسعد معه فى الدنيا .

فلما أصبح الصباح حتى كانت قد امتثلت مطمئنة إلى قضاء الله ؛ ورضيت بما قسم لها. وكتب عليها. واعتقدت بأن الله يختبر إيمانها بهذا الزواج الذى لا يرضيها. فلتجتز أول امتحان مكللا بالنجاح .

وهكذا استعوذت على نفسها قوة الإيمان الحق؛ تلك القوة التى لا توجد إلا فيمن هيأ لها الدين من جلاء الحكمة ؛ وبعد الرأى ؛ إلى ذكاء القلب واطمئنان النفس . ما يدل على رجاحة العقل وتمامه .

ومن الغريب أن والدتها وأختها ـ كانتا تعتقدان أن هذا الإيمان جنون وأن تقواها وتدينها مرض . وكانتا تخشيان عليها من ذلك . وتتمنيان لو رجعت سيرتها الأولى ...

ولهذا كان سرور « زينات هانم » بذلك الشاب العصرى يفوق الوصف ـ لاشىء إلا لأنها رأت فيه الزوج الذى يرد إلى ابنتها التمتع بملاذ الدنيا ويشفيها من جنونها .

والآن دعنا نترك تلك الأسرة قليلا لنعود إلى « محسن » فلعلك فى شوق إلى ما كان منه بعد الحفلة التى خطب فيها « إصلاح » من والدتها

١١

بات (محسن) بعد رجوعه من الحفلة يحلم بالسعادة التي نالها؛ فقد كان يتمنى أن يوفق فى زواجه إلى فتاة من فتيات العصر الحديث . وكان جده يعارضه فى هذا الرأى . ويحتم عليه الزواج من فتاة صالحة . تخاف الله وتحافظ على شرائع الدين .

وكانت الصالحة فى نظر محسن صورة لفتاة رجعية قعيدة البيت . لا تهتم بملابسها وأناقتها ، جاهلة بأمور الحياة العصرية ؛ ولا تعرف كيف تعيش فى المجتمعات .. لهذا عزم أن يختار زوجة بنفسه ومن رواد أماكن اللهو حتى لا يقع فيما يخشاه . وحتى لا يتحقق فيه دعاء جد العائلة الأكبر الذى كان يذكره به جده دائماً . فكثيراً ما كان يقول له (إن الجد الأكبر للعائلة ـ دعا الله فى بيته الحرام أثناء حجه ـ أن يكون نصيب ذكور ذريته فى الزواج (بذات الدين) من النساء ـ لهذا كان (محسن) يخشى الزواج ولا يريده .

أما وقد عثر على ضالته المنشودة هذه الليلة ؛ فلم يعد لدعاء الجد قيمة لديه . لاسيما وقد رأى خطيبته بعينه مرة فى إحدى الحفلات ؛ وخطبها فى حفلة ثانية ؛ ومن وسط النادى الذى ترأسه والدتها .

لم ينم (محسن) تلك الليلة إلا على ذكرى ، ولم يستيقظ إلا على أمل واستمر طول ليلته فى أحلامه الجميلة بين نوم ويقظة . يسبح بخياله فى جمال خطيبته العصرية ؛ وما سيناله من فخر ـ وهو يقدمها إلى أصدقائه ومعارفه . حتى إذا أشرقت الشمس وملأت الكون بنورها ـ قام من فراشه فى

نشوة وسعادة ـ وما انتهى من ارتداء ملابسه ـ حتى أسرع بالدخول على جده في حجرة نومه، وحياه بتحية الصباح. والجد كبير السن. محافظ على التقاليد. وكان يحب حفيده حب الوالد لابنه الوحيد.

فما كاد يراه حتى نظر إليه نظرة ملؤها العطف؛ ولاقاه بكلمات الترحيب قبل أن يلقى عليه التحية. وكان مستلقياً على سريره بجلباب نومه الأبيض فدعاه إلى الجلوس بجانبه وأخذ يسأله عن أحواله في شوق واهتمام.

وكان محسن يهاب جده. فجلس بجواره صامتا.

وفي صوت هادئ يحوى صنيع الحياء شرع يحدثه في شأن عزمه على الزواج مظهراً في ذلك طاعة لجده الذى كان يتمنى زواجه. وما انتهى حتى بدت على وجه الجد علائم الانشراح؛ ودلائل السرور؛ فقد ظن أن حفيده قد قبل الزواج من ابنة صديق له ـ سبق أن كلمه في شأن الزواج منها منذ قريب ـ وكان (محسن) قد رفض زواجها.

ثم راح يثنى على رجاحة عقله. وبعد نظرة. وطاعته لأوامره.

ومرت فترة. والجد سعيد بطاعة حفيده وتحقق دعاء جد العائلة الأكبر فيه.

لكن ما هى إلا فترة أخرى حتى تغير كل ما كان يجول بخاطره وعرف أن المقصودة غير الفتاة التى كان يقصدها.

عند ذلك إربد وجهه. وظهر عليه الاستياء والغضب.

وفي حركة آلية. جعل يمر بيده على لحيته وهو مطرق في صمت.

وكانت لحظة حرجة ـ تلك التى اتجه بعدها الجد نحو حفيده وقال في نبرة مؤثرة لا تخلو من حنان:

ـ استمع إلى يابنى .. إنك في هذه السن. لا يمكنك أن توفق بنفسك

إلى من تسعدك من الزوجات . خصوصاً فى هذا العصر الذى قل فيه من تنطبق عليها صفات (المرأة الصالحة) التى فضلها سيد الخلق على جميع النساء وحث رجال أمته على الزواج منها وهو أعلم بصالحهم فقال عليه الصلاة والسلام :

(تنكح المرأة لأربع . مالها . وجمالها . . وحسبها . ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك) .

لهذا أخشى عليك ياولدى. إن أنت تزوجت بنفسك. أن تكون مندفعاً كغيرك من شباب هذا العصر. بهوى نفسك الدنيئة. فتقع فيمن لا أرتضيها لك من فتيات اليوم. اللائي لايعرفن للدين أمراً. ولا لله طاعة — ثم ذكره بدعاء جد العائلة الأكبر —

استمع محسن إلى جده وهو صامت .

وما أن طرق سمعه لقب (ذات الدين) حتى ضاق صدره ، وانقبضت نفسه. حيث وجد رأي جده لم يتغير عن ذى قبل .

ومرت به فترة ثقيلة قضاها فى حيرة من أمره . لا يدرى كيف يخبر جده بمن اختارها زوجة ، وكيف يقدم له صفاتها وهو يعلم أنها بعيدة كل البعد عمن يريدها له .. ووقع فى تردد شديد بين أن يخبره الآن. وبين أن ينتظر حتى يفكر فى كيفية إقناعه بهذا الزواج .

وبغتة تذكر صديقه (ممدوح)

وسرعان ما نظر فى ساعته. وتمامل فى مجلسه كمن تأخر عن ميعاد عمله ثم اعتذر لجده بعدم تمكنه من تقديم معلوماته إلى مابعد رجوعه من مكتبه.

خرج محسن موزع الفكر ؛ ضائق النفس ؛ ولم يذهب إلى مكتبه بل

قصد تواً إلى صديقه (ممدوح) وكان فى حال من الأسى والهم . فما رآه ممدوح . حتى هب لملاقاته مبهوتاً . واستقبله فى دهش ـ حيث لم يمض على فراقهما سوى بضع ساعات ـ وما لبث أن قال فى لهفة :

ـــ خيراً ياحسن ماذا أتى بك الى الديوان فى هذه الساعة المبكرة ؟

فأجاب فى أسف . . .

ـــ لم أجدك فى المنزل فجئت هنا .

فزادت دهشته وقال فى اضطرب :

ـــ ماذا جد ياصديقى فى هذه الساعات القلائل ؟

ـــ هل أصابك مكروه ؟

ـــ لا يا ممدوح

ـــ من الجائز أن تكون قد أرهقت أعصابك من شدة الفرح فإننى أنكر حالك .

ـــ لم يحصل شىء من ذلك . غير أن جدى . . .

وارتبك كمن لا يعرف من أين يبدأ الحديث . ولما هم بالكلام كان (ممدوح) قد سبقه مازحا :

ـــ ماذا جرى لجدك ؟ وأين هو ؟ إننى فى شوق إليه من أمد بعيد

وكانت نبرات صوته تدل على أنه يسخر . فقال محسن :

ـــ دائماً تسخر (يامدوح) حتى فى أحرج الأوقات .

ـــ لم أجد بك ياصديقى ما يدعو إلى الحالة التى أراك عليها فهون على نفسك . وتعال نجلس ثم اخبرني بعد ذلك بكل ما يشغلك ، دون أن تزيد . فإنك كثيراً ما تبالغ ـــ واتجه به نحو مكتبه وجلس أمامه

فطفق (محسن) يقص عليه ما كان بينه وبين جده فى مسألة زواجه . وإنه لما يزل متمسكا بتحقيق أمنية (جد العائلة الأكبر) وكيف العمل وليس هناك وجه شبه بين فتاته . وبين من يريدها جده له .

وكان يتكلم والقلق باد على وجهه . والحيرة تملأ نفسه . وممدوح ينظر إليه بدهش .

وما انتهى من أقواله حتى قال ممدوح هازئاً .

— هيه . . ثم ماذا ياسيد محسن — والله إننى لفى عجب من أمرك ولا أدرى أجدك الذى سيتزوج أم أنت ؟

— طبعاً أنا ولكن جدى . .

فقاطعه ممدوح قائلا :

— ياأخى لا عليك من جدك الأكبر ولا الأصغر ما دمت أنت الذى ستتزوج وأنت الذى قد اخترت .

فاستطرد محسن قائلا :

— لكن جدى كان قد وعدني بتنازله عن أملاكه بالقاهرة التى ورثها عن جدتي إذ أنا تزوجت من توافقه .

فقال ممدوح متسائلا :

— أويهمك الحصول على أملاك جدك ؟

— ما كان يهمنى ذلك لو لم أكن قد جعلتها من أملاكى وأنا أقدم مؤهلاتي (لزينات هانم) .

فاكتست ملامح ممدوح أمارات الجد وأطرق برهة . ثم نظر إليه قائلا :

— أو تعمل بمشورتي ؟

— لهذا جئت إليك .

— هذا حسن . . . وهل تستطيع أن تتقن خداع جدك بالقول ؟

— أستطيع لو علمت ما أخدعه به .

— حسن أيضاً . ولم يبق إلا أمر واحد

— وما هو

— هل حدثت جدك بشيء عن والدتها ؟

— مطلقاً

— إذن فالأمر سهل والحل ميسور

فلمعت عينا محسن ببريق الأمل وقال في لهفة :

— ماذا ترى ؟

— لا شيء أكثر من أن تقدم خطيبتك إلى جدك على أنها ابنة (شاكر باشا التركي) فقط ذلك الرجل التقي البعيد عن كل شبهة ، وقد نسيت أن أخبرك بأن قليلا من الناس هم الذين يعرفون أنه زوج (لزينات هانم) . . وإياك أن تذكر له اسمها ؛ أو تصف له خطيبتك على حقيقتها .

وكان يتكلم باخلاص كمن يهمه نجاح خطته (ومحسن) مرتاح لكل ما يقول ؛ فلم يكد يستمع إلى مشورته . حتى ذهب عنه ما كان يثقل كاهله وهدأت نفسه . ثم شكره .

عند ذلك رأى (ممدوح) أن يخبره بما كان يقلق نفسه قبل حضوره وهو خبر نقله الذي فوجيء به اليوم إلى إحدى مدن الوجه البحري ابتداء من الغد .

فوقع هذا الخبر على نفس (محسن) وقعاً أليما وتكدر لفراق صديقه . ثم كان وداع سار بينهما . خرج (محسن) على إثره إلى مكتبه . وظل هناك يفكر فيما سيخادع به جده حتى انتهى ميعاد عمله ورجع إلى منزله .

***

قال الجد فى بشر وقد شاع السرور على وجهه :

— ماذا تقول (يامحسن) ؟ ابنة الحاج (شاكر باشا التركى) وهلة صفاتها . وأخلاقها ؟

فلبس (محسن) ثوب الخداع وقال :

— نعم ياجدى . وهذا ما دفعنى إلى الزواج منها .

— إنه رجل تقى يابنى؛ وله تاريخ مجيد، أفضى به إلى أحد رفقائي أثناء تأدية فريضة الحج — فنعم النسب ياولدى.

ولم يكن يبدو على (محسن) أنه كاذب أو مخادع . فلم يرتب الجد فى أقواله ؛ ووافق على زواجه ، ووعد بتحويل أملاكه اليه .

وكانت خالته معهما . ففرحت، ودعت له بالتوفيق.

بعد ذلك بر الجد بوعوده؛ وحظى محسن بأمنيته؛ قبل مضى المدة المحددة من (زينات هانم) لمقابلة الباشا .

مشت الأيام خطاها ومضى أكثر من شهر على تلك الحوادث كانت (إصلاح) خلاله قائمة على العهد الذى قطعته على نفسها — فكانت لاتحضر من حفلات والدتها سوى بعض ما كان يقام منها فى المنزل . أما الحفلات الخارجية الماجنة. فكانت لاترى فيها. ولا تذهب اليها . وكانت تقضى معظم أوقات هذه الحفلات فى جمعيتها نهاراً ؛ أو فى مشاهدة نوع من الروايات الادبية (تمثيلية . وسينمائية) بصحبة أخيها (حسين) ليلا . وقد تركت مسألة زواجها (بمحسن) لمشيئة الله . ولم تعد تفكر فى ذلك .

أما (محسن) فقد كان طوال هذه المدة — يمنى النفس بالآمال السعيدة والأمانى الحلوة التى كان يصورها له خياله عن فتاته العصرية . كان يراها مثله خارجة على التقاليد التى خرج عليها بتعلمه فى الخارج — فيشكر تلك المصادفات التى ستجمع بين روحين خلقتا من معدن واحد . وكان يتخيلها وهى تتصدر موائد حفلات شرابه . ومجالس أنسه — فيطير فرحا بما سيغمره من إعجاب أصدقائه وفخرهم بزوجه الأرستقراطية الحسناء . وكان بين هذا وذاك يعد الأيام يوما بعد يوم . وساعة بعد ساعة — فى شوق ولوعة حتى جاء اليوم المحدد بينه وبين (زينات هانم) فى الحفلة .

فى ذلك اليوم ارتدى (محسن) أفخر ثيابه ، ورجل شعره وطيبه بالعطور . وخرج بسيارته يقودها بسرعة إلى قصر خطيبته .

وقبل وصوله كانت (زينات هانم) قد رتبت كل شىء مع الباشا ومع العروس نفسها ؛ واستعدت لاستقباله .

فما إن وصل حتى استقبلته بالبشر والترحيب؛ وقدمته إلى عروسه وإلى إخوتها جميعاً .

وكانت (إصلاح) ترتدى ثوباً أنيقاً فى غاية الإبداع ـ بدت فيه بارعة الحسن . هيفاء القد . على مافيه من مظهر الحشمة . ورونق الكمال .

فما رآها (محسن) حتى اهتز قلبه وخفق فؤاده وقدم اليها خاتماً من الماس الثمين . بعد أن طبع على يدها قبلة أودعها عاطفته وحبه .

ثم قادته (زينات هانم) إلى حجرة الباشا . وكان مريضا . منذ عودته أول أمس من ضيعته وأشار عليه طبيب الأسرة بملازمة الفراش .

دخل (محسن) إلى حجرة مفروشة بأفخر أثاث النوم وكان (الباشا) مستلقياً على سريره نصف راقد ؛ وقد لف حول جسمه دثاراً خفيفا . وبجوار سريره نضد عليه مصحف كبير. وبعض زجاجات الدواء وآنية الزهور ـ فلقيه الباشا ببشاشة وترحيب . . . ثم اتخذ مجلسه على طرف أريكة كبيرة منجدة بالحرير كانت بالقرب من السرير مواجهاً (لإصلاح) وجلست بجانبه (زينات هانم) وحولهما بقية الأخوة .

وبدأ يتكلم

فأظهر إهتماما بصحة الباشا ؛ وتأثراً لمرضه. ثم أخذ يجيب عن كل ما كان يوجه إليه من الأسئلة برقة وبلهجة هى خليط من (العربية والفرنسية)

وكان كلما تكلم نظر إلى (إصلاح) موجهاً اليها الحديث .

وفى هذه الجلسة أعلنت الخطبة الرسمية ؛ وتم الاتفاق .

وأثناء ذلك لاحظ محسن أن الوالد يريد أن يؤخر الزفاف إلى ما بعد زفاف الأخت الكبرى .

فراح يلح . ويكثر من طلب الاسراع فيه .

لهذا لم تطل الخطبة الرسمية أكثر من أسبوعين — تم فيهما إعداد الجهاز الذى بولغ فى كثرته وفخامته . وكان الباشا قد أهدى ابنته (فيلا فخمة) بناحية مصر الجديدة بمناسبة زفافها — فرتبه فيها الأثاث وفرشت جميعها قبل ليلة الزفاف .

***

هذه ليلة الزفاف . فهيا لترى ماجرى فيها

تهيأ قصر (زينات هانم) وازدانت واجهاته بالمصابيح الكهربية المختلفة الألوان والأحجام — ثم أضيء من الداخل والخارج بأنوار أحالت ليل شارعه نهاراً . وازدحم الشارع بالسيارات التى أتت بالمدعوين والمدعوات ولبى الدعوة كثير من سيدات الطبقة الأولى ورجالها . والكل بملابس السهرة الأنيقة .

وكان اهتمام (زينات هانم) بهذه الحفلة عظيما . فأصرت على أن يطرب الحاضرين . أشهر المغنيين والمغنيات والراقصات .

ولما كان الطرب سيستمر حتى ساعة متأخرة من الليل — كان هناك مقصف فاخر . حوى مالذ وطاب من المآكل والمشارب .

وفوق هذا ترى (الكوشة) البديعة المخصصة لجلوس العروسين وقد زينت بالأنوار الكهربائية وأحيطت بسلال الورود الفاخرة — ثم أقبلت العروس الحسناء بقدها المشوق فى ثوب العرس الذى أبت إلا أن يكون جامعا للأناقة والحشمة — تحظر بين حشد من لداتها حتى تصل إلى تلك (الكوشة) الرائعة — وتجلس على أحد

مقعديها بعد أن تناثرت النقود على المدعوين .

والحق كانت ليلة زفاف رائعة جمعت بين أرقى ما يعمل فى الحفلات الشرقية والغربية .

ومع هذا كله فإن (إصلاح) لم تكن راضية عن كثير مما عمل تلك الليلة ـ ولو سمعت حديث نفسها لألفيتها تقول .

(ما أحوج الفقير إلى ما أنفق هذه الليلة فى القصف والطرب) .

* * *

كان كل هذا الجمال يتلألأ فى الطابق الأعلى الذى ضاق بالمدعوين على كثرة غرفه. وسعة ردهاته وشرفاته ـ على حين كان (شاكرباشا) وقد تحامل على مرضه. يجلس فى الطابق الأول مع نفر قليل من الفضلاء الذين لا يأبهون لمثل ما يعمل فى هذه الحفلات .

وتم العقد ـ فصعد محسن إلى الطابق الأعلى وكان يرتدى (حلة العرس الأفرنجية) فتحولت الأنظار إليه فى لهفة وشوق شديد لأن معظم الموجودين كانوا لا يعرفونه .

وكانت لحظة سعيدة تلك التى اتخذ فيها (محسن) مجلسه فى (الكوشه) بجوار (عروسه) بعد أن قبل يدها ولف حول معصمها (سواراً) من الماس الثمين وراحا يتقبلان تهانى المدعوين .

وبعد هنيهة جىء بعلب الملبس الفاخرة ؛ والشراب النادر والمرطبات .

وبينما الجميع فى هرج وسرور . إذا بهم يصمتون فجأة ، وإذا بالأنظار تتجه إلى جهة واحدة ثم تتحول نحو (العروسين)!

فقد صعد (شاكر باشا) والد العروس ومعه (الأستاذ الأكبر) جد العريس .

وكان للجد فى الواقع هيئة جليلة حولت الأنظار اليه — إذ كان يلبس ملابس الأتقياء العظماء . وعلى رأسه عمامة مرتفعة قليلا زادته هيبة وجلالا

وحينما رآهما (العروسان) وقفا احتراما لهما وقبلا يديهما وتقبلا تهانيهما .

رأى الجد عروس حفيده — ورأى مايحيط بها من الرجال والسيدات العاريات — فتجهم وجهه — ثم شاهد هذا الحفل الذى جمع بين المنكر والمعصية — ولاحظ تلك الخلاعة الواضحة . والفسق المكشوف — فهبت فى نفسه ثورة صامتة — وأيقن أن عروس حفيده من فتيات اليوم المتفرنجات وأنها من النوع الذى كان يتمنى أن يباعد بين حفيده وبينها ما بعدت السموات والأرض . وأن تفارقه الحياة قبل أن تنضم إلى أسرته الشريفة هذه (العروس) الخليعة .

واعتقد بأن حفيده ؛ خدعه ؛ وأنه أخطأ فى حكمه على (شاكر باشا) .

وكانت لحظة غريبة عندما تقدم (الجد) إلى (الباشا) معتذراً بعدم تعوده المكث كثيراً فى مثل هذه الحفلات .

وما لبث أن غادر الحفل ساخطا على حفيده؛ عازما على مقاطعته بسبب هذا الزواج . وبسبب خداعه إياه حتى استولى على ماله .

وطبعا لم يلحظ (العروسان) ولا أحد من أفراد الأسرة شيئاً عن غضب الجد . ولم يخطر لهم على بال . إذ كان الكل لاهياً . والكل فى شاغل بذاك السرور .

* * *

ولقد أثر سهر تلك الليلة فى صحة (الباشا) فزاد مرضه ونصحه الأطباء

بالسفر إلى الاسكندرية دون غيرها من مدن (الاصطياف الأوروبية) لعدم تحمل شيخوخته للأسفار البعيدة . ودفئاً للجو الذى لايلائم صحته فى القاهرة .

وأقام العروسان فى القصر بضعة أيام قبل سفر الأسرة كانا فى أثنائها يفكران فى المكان الذى سيمضيان فيه (شهر العسل) .

وتمكنت (إصلاح) وقتئذ من قلب زوجها وزاد حبه لها . فترك لها حرية اختيار ذلك المكان . وبالرغم من عدم ميله إلى الريف فإنه وافقها على قضاء شهر العسل بضيعة والدها الكبيرة دون معارضة منه .

كانت هذه الضيعة بالوجه البحرى . وكان بها (فيلا عظيمه) مبنية على أحدث طراز ؛ ومفروشة بأفخر الأثاث. وبها طاه وخدم مقيمون دائمون . وكان بها (حديقة واسعة) نائية عن المزارع والحقول . يجد المقيم بها كل راحة ولا ينقصه شىء من الضروريات والكماليات .

ومع ذلك فإن (زينات هانم) لم يرقها هذا الرأى وحرضت (محسنا) على أن يحمل زوجه على الاصطياف بإحدى المدن الخارجية أو أى مصيف خلاف الريف .

بيد أن (العريس) كان لايخالف (لعروسه) رأيا ولا يرفض لها طلباً وكان يعتقد يقينا بأن زوجه لم تقصد من وراء اختيارها هذا المكان إلا أن ينعما بحبهما فى عزلة خلوية .

على أنه لواستمع إلى دخيلة نفسها ــ لعرف أنها لم تفضل هذا المكان إلا ليبتعدا عن المصايف التى تدفع بهما إلى المعاصى ولتعوده ترك أماكن اللهو الفاسدة .

وقبيل سفر الأسرة بيوم واحد — انفرد محسن بعروسه في شرفة حجرتهما الخاصة . وجلسا يستنشقان نسيم الصباح اللطيف ويتحادثان عن رحلتهما القادمة في سرور واغتباط .

وفي تلك الجلسة تناول حديثهما تدبير شئونهما الخاصة في حياتهما المستقبلة .

ثم أحصت إصلاح ما جمعته من أموال بمناسبة زفافها ، وما كان مدخراً لديها قبل الزفاف ؛ وأضافت إليه مهرها الذي رآى والدها أن يكون لها خاصة — فوجدت ذلك بضعة آلاف من الجنيهات — صمم محسن على إيداعها أحد المصارف باسمها .

ولم تغفل « إصلاح » في تلك الجلسة عن حث زوجها على زيارة أسرته قبل سفرهما — إذ كان قد مضى أكثر من أسبوع دون أن يعرفا عن جده وخالته شيئا .

فما غادرا الشرفة — حتى خرج محسن قاصداً منزل أسرته. وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب عندما وصل إلى المنزل .

فلما لم يجد خالته ؛ دخل على جده في حجرته — وكان ملازما فراشه منذ ليلة الزفاف — غماً وحزناً على ما رآى هناك .

فلم يكد الجد يرى حفيده — حتى أنكره — وبدا على وجهه نوع من الكآبة ولم يتفوه بكلمة .

فبهت « محسن » لهذا اللقاء غير المنتظر ؛ وساد بينهما صمت — قطعه « محسن » قائلا في لهفة :

— ما بال « جدى » ملازما الفراش ؟

— . . . . . .

— أمريض أنت يا « جدى » ؟ . . . ومتى كان ذلك ؟

— . . . . . .

ولما لم يسمع منه جوابا كاد يغص بريقه . . ودهش لما رآه من صمته المحرج وتملكته رغبة شديدة فى أن يعرف دخيلة نفس جده وسبب ذلك فاستطرد قائلا .

— لقد جئت اليوم يا « جدى » لأسلم عليك . فقد عزمت السفر أنا وزوجى إلى . . .

وما أن طرق سمع « الجـــد » كلمة « زوجه » حتى قاطعه فى غضب قائلا :

— لا أريد أن أسمع منك كلاما ؛ ولا أرى لك وجها بعد الآن . وحسبى ما رأيته بعينى ليلة زفافك . وما خدعتنى به وبمن ضممتها إلى أسرتنا الشريفة .

وكان فى حال من الغضب والتأثر دفعته إلى أن يقول فى انفعال وهو يشير بيده .

— أخرج فلست بجدك .ولاأنت حفيدى . وكفانى ما أصابنى فى صحتى بسبب خداعك إياى .

عندئذ فهم « محسن » سبب غضب جده ومرضه . لـكنه لم يحاول

تهدئته . أو ينتظر حتى تهدأ نفسه ـ بل خرج لتوه ، غير عابىء بغضبه أو بمرضه .

وسرعان ما رجع إلى القصر وهو لا يفكر إلا فى حياته الجديدة وزوجته المحبوبة وما يهمه أن تهجره أسرته الرجعية وحسبه زوجه العصرية. وما أخذه من « جده » من الأملاك .

وهناك أخبر زوجه بأن جده وخالته بخير دون أن يزيد .

وفى مســـاء اليوم الثانى كان القصر قد خلا إلا من بعض الخدم والبستانى . . حيث سافرت الأسرة إلى مصيفها وسافر العروسان إلى الريف .

انتقلت (إصلاح) من بيتها الأول الذى نشأت فيه إلى (عش الزوجية) وتكوين أسرة جديدة .

فلما وجدت أنه قد تم نصف دينها بسبب هذا الزواج رأت أن تتقى الله فى النصف الباقى منه .

وعندما استقر رأيها على ذلك راحت تفكر فيما كلفت به المرأة من الأعمال فى حياتها بعد الزواج . فوجدت نفسها أمام واجبات ثلاثة : (ربها وزوجها والمحتاجين من الناس) .

ولو سألتها لماذا أضافت مسئولية القيام بواجبات زوجها إلى ما كانت تقوم به من قبل نحو الله والناس . لقالت : لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

(إذا صلت المرأة خمسها . وصامت شهرها . وحفظت فرجها . وأطاعت زوجها . قيل لها ادخلى الجنة من أى أبواب الجنة شئت) .

وهكذا تجدها فى جميع أطوار حياتها . تراعي حدود ما أمر الله ورسوله .

* * *

وقد يخيل إليك أن هذه الزوجة التى عاهدت نفسها على أن تقوم بواجبها نحو زوجها لابد وأن تكون سعيدة بهذا (الزوج الغنى الجميل) أو أن تكون قد تجاوزت عما فيه من الصفات التى كانت لا ترضيها . بعد أن رأت منه الكثير من الحب نحوها . والتفانى فى مرضاتها .

والحق أن كل فتاة لا تتمنى فى زوجها أكثر من هذه الصفات لكى تعيش فى سعادة وهدوء بال .

لكن (إصلاح) مع كل هذا لم تكن سعيدة فى بدء حياتها الزوجية . ولم تكن هادئة البال . بل كانت سليلة الخاطر مضنية الفكر حيرى .

— ترى ماذا كان يشغل هذا العقل الرشيد ؟ وماذا كان ينقصها من سعادة ؟

— إن السعادة التى كانت تنقصها قلما تفكر فيها أية فتاة أخرى أو تجعلها سبباً لهدم هناءتها .

بيد أن (إصلاح) كانت ترى أن السعادة الحقيقية بين الزوجين ليست هى التى يكون الحب فيها مؤسساً على الافتتان بالجمال ، أو المال والجاه . ولا التى تكون بين قلب سليم وقلب مريض سقيم وإنما هى التى يؤسس الحب فيها على الاحترام المتبادل — ويربط بين روحين طاهرين . محبين فى الله . مطيعين لأوامره .

هكذا استحوذت عليها هذه العقيدة واستقرت فى نفسها فقضت الأيام الثلاثة الأولى فى الريف . وهى لاتشعر بتلك السعادة التى كان يشعر بها (محسن) وذلك لأنها كانت تريد أن يكون حبهما فى الله ؛ وأن ترى زوجها يؤدى الصلاة . فلا يشغله حبه عن طاعة ربه ؛ ولا تمتعه بنعيم الحياة عن أداء فرائض الله . إذ كانت تعتقد يقيناً بأن (تارك الصلاة ملعون . وجاره إن رضى به ملعون) وكانت بهذا تخشى على نفسها غضب الله ولعنته

* * *

وجاء اليوم الرابع — فخلت (إصلاح) بنفسها وراحت تفكر فى حياتها الماضية والحاضرة .

— كنت أريد (زوجا صالحا) ليكون لى عونا على خوض غمار تلك الحياة

الفانية بسلام ! لكنى لم أوفق ولم أحظ به . هكذا الدنيا — من سعد فيها بنفسه شقى فيها بغيره .

ثم عادت إلى ذكرى الليلة التى أرغمتها والدتها فيها على قبول (محسن) زوجا فحدثت نفسها :

— لقد أرادت والدتى أن تسعدنى فأشقتنى . لكن عفا الله عنها . ما كانت تقصد إلا صالحى .

واستمرت فى هواجسها وآلامها حتى طرق ذهنها الحديث الشريف :

« لأن يهدى الله بك رجلا واحداً . خير لك من حمر النعم »

وسرعان ماعزمت على الأخذ بهذا الحديث والعمل على هدى زوجها فى بدء حياتهما الزوجية

غير أنها عادت فأصغت إلى عقلها الذى أوعز اليها أن مثل هذا الزوج الذى اعتاد حياة اللهو والمجون فى الخارج . ونشأ على ترك الدين وحب أعدائه . من المحال أن ينتصح بنصحها وأن ينصاع لإرشادها إذا هاجمته بالدعوة إلى تأدية فرائض الدين واتباع أوامره . وأن الأسلوب هو أن تنتظر حتى يألف ترك المعاصى شيئاً فشيئاً ثم تأخذه بعد ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة .

وعندما صممت على هذا الجهاد فى سبيل الله شعرت بقبس من نور السعادة يتألق فى قرار قلبها . وتبدد ما كانت تحسه من قلق ووساوس وعادت إليها الطمأنينة وهدوء البال .

ثم راحت طوال مدة إقامتها فى ذلك الريف تعمل بما عاهدت نفسها عليه نحو (الله . وزوجها والناس)

فاهتمت بشئون فلاحي الضيعة وما جاورها من القرى . واستجابت إلى مطالبهم ورغباتهم — وفاض حنانها وبرها هناك — فأمدت فقراءهم بالمال والكساء .

وكان قد حان ميعاد اخراج زكاة ماليها من حلى ومال مدخر قبل زفافها. فلم تغفل عن إخراج القدر المفروض عليها

ولو كنت من المقيمين فى تلك الضيعة وشاهدتها وهي تشرف على إخراج زكاة (مواشيها وزروعها) لرغبت أن تكون كهذه النفس السخية سماحة وكرما .

على أن الذى يبعث على التقدير والاعجاب هو أن قيام هذه الفتاة بتلك الأعمال الجليلة فوق ما كانت تقوم به من صلاة وعبادة . ما كان ليشغلها عما تطلبه حياة الأسرة السعيدة . وجعل (عش الزوجية) مبعثاً للهناءة والسرور .

فكنت تراها تقضى معظم أوقات فراغها فى اللعب مع زوجها بكل ما كانا يجيدانه من ألعاب الكرة المختلفة فى (حديقة الفيلا) الواسعة . وأحياناً يلعبان (الشطرنج) وبعض أدوات (اللهو المباح) داخل المنزل .

وكثيراً ما كانا يقضيان شطراً من النهار فى صيد السمك والبط وغيرها من الطيور هناك . حتى إذا ما انبلج الصباح أسرع كل منهما إلى اعتلاء صهوة جواده ثم ينطلقان بين المزارع النائية والحدائق الواسعة يتسابقان فى سرور . وكانت (إصلاح) تبدى من ضروب الفروسية وسرعة القفز . ما يجعلها تفوز عليه . ويزيد إعجابه بها .

* * *

وقد تعجب لتلك الأعمال العصرية وضروب التسلية التى كانت تمارسها مع زوجها وهي المتدينة التى آثرت رضاء الله والعمل بأوامره .

ولكنك إذا علمت أنها كانت تعلم يقيناً أن الله لم يحرم على عباده التمتع فيما خلق فى الكون من جمال وإبداع ، وتثق أنه تعالى ماحرم إلا ماصنع الشيطان من اللاهي والملاذ المحرمة — لزال عجبك — وأيقنت أن أعمالها كلها لم تكن إلا عن فهم صحيح ودراية تامة . وما هذه المتع التى تتمتع بها فى الواقع سوى طاعة لقوله تعالى :

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

غير أنها كانت تراعى أن تكون هذه الأعمال كلها بعيدة عن أعين الرجال بالنسبة إليها فكانت تتخذ الأماكن النائية لهذا الغرض .

* * *

وتلاحقت الأيام . وانتهى شهر العسل .

وكان (محسن) خلاله يرى زوجه تقوم بهذه الأعمال العصرية والألعاب المسلية . فيطير فرحا بها . وكانت هذه المسليات ملهاة عظيمة له . فزال مافى نفسه من مقت الريف وأصبح يشعر وكأنه فى أجمل مصايف العالم .

ثم طاب له العيش هناك فمد (شهر العسل) إلى شهرين قضاها فى تلك الضيعة الجميلة . منفرداً بزوجه المحبوبة دون أن يشعر بمرورهما

وهكذا مرت هذه الأيام السعيدة سراعا حتى إذا لم يبق من عطلة (محسن) الصيفية سوى بضعة أيام . عزما على السفر .

وفى ليلة السفر بات (العروسان) يستعرضان حياة الريف السعيدة ويذكران أيامه الجميلة

وفى الصباح . استيقظا مبكرين وبعد أن تناولا طعام الافطار

إرتدت (إصلاح) ثوبا أنيقاً وحجبت رأسها بخمار أبيض ثم وضعت على كتفيها (رداء كحلى اللون) يشبه المعطف الفضفاض (كاب) . بدت فيه أنيقة محتشمة

وما فرغت من ارتداء ملابسها حتى كان (محسن) قد استعد للسفر ثم أتى اليها مسرعا وصاح فى رفق قائلا :

— هيا ياعزيزتى فقد جاءت السيارة .

وما كاد يتم قوله حتى استرعى نظره ذلك الزى المحتشم الذى كانت ترتديه — فوقف مكانه مبهوتا ونظر اليها مدهوشاً لأنه لم يرها بذلك المظهر من قبل . فقد كان مجيئهما الى تلك الضيعة بالسيارة فى المساء . وكانت ملابسها التى ترتديها حينذاك فى غاية البساطة .

— ترى ماذا كان يدور بخلده وقت ذاك ؟

— إنه لم يتصور (أن زوجه العصرية) ترتدى هذا الزى بغية الحجاب . وهي وأسرتها عنوان السفور ورمزه

على أنه راح يفكر . ويفكر . وسرعان ماخطر له خاطر اطمأن اليه . ونفى به الشبهة عن زوجه إذ أيقن بأنها إنما ترتدى هذا الزى بحكم انضمامها إلى جمعية المسلمات المجاهدات — تلك الجمعية التى كان يعتقد بأن زوجه لم تنضم إليها إلا لتنال شرف الرياسة والظهور فى المجتمع .

وسرعان ماركبا سيارتهما — وكان الخدم قد رتبوا الحقائب بها . ثم قادها بنفسه وألقيا تحية الوداع على ذلك الريف الجميل.

وقبل أن تبرح السيارة الضيعة سلم ناظرها إلى (محسن) رسالة باسمه وكانت من (زينات هانم) وفيها تدعوه وزوجه لقضاء بضعة أيام عندها (برمل الاسكندرية)

رمل الاسكندرية — (ضاحية جميلة) هي ضاحية اللهو . والمتعة . ضاحية الأحلام والاستجمام . يؤمها المترفون . وذووا المال . وطلاب الصحة وغيرهم من جميع أنحاء القطر . فتغص فنادقها بالنزلاء . وتمتلئ شواطئها وتزدحم منازلها على كثرة أحيائها بالوافدين في فصل الصيف .

ومن الأحياء التي اشتهرت في تلك الضاحية بتردد مترفي القوم وقت ذاك (حي استانلي) الذي استأجرت (زينات هانم) في شاطئه إحدى (الكبائن الممتازة) بالطبقة العليا للاستراحة ولتقابل فيها الصديقات والأصدقاء . بعيداً عن زوجها المريض .

وكان بين الذين يترددون عليها في هذه (الكابينة) شخص حاز إعجابها ويعتبر أقرب المقربين إليها . هو « صفوت بك » الذي تم تعارفها به في إحدى حفلاتها الخيرية إثر تبرعه بمبلغ كبير . . ثم أخذت صلتها به تزداد كلما زادت تبرعاته في حفلاتها المختلفة حتى أصبح من أخصائها المقربين .

وكان يفد إليها عادة كل أسبوع فيقضي معها يوماً أو بعض يوم . بين السباحة والنزهة . وكانت شديدة الحرص على انتظاره في ذلك اليوم .

وفي اليوم الذي كان سيحضر فيه . جلست « زينات هانم » في (شرفة الكابينه) . وقد استلقت على أحد مقاعدها الطويلة بلباس البحر الحريري وراحت تعرض جسمها لأشعة الشمس وتقرأ في إحدى جرائد الصباح .

وما هى إلا ساعة أو بعض ساعة حتى سمعت وقع أقدام تقترب منها . ظنتها أول الأمر ذلك الصديق .

لكنها ما كادت ترفع بصرها حتى وجدت نفسها أمام مفاجأة سارة بمقدم « اثنين عزيزين » فرحت لمقدمهما ، وهللت عند رؤيتهما .

— فهل تعرف من هما ؟

— إنهما لم يكونا سوى ابنتها « إصلاح » وزجها « محسن » جاءا تلبية للدعوة التى وصلتهما اليوم .

وما اقتربا منها حتى انكبا عليها . وراحا يقبلانها فى شوق وتقبلهما فى حنان .

ثم تحولت عنهما إلى داخل (الكابينة) . وما لبثت أن عادت مرتدية (حلة الشاطئ) فوق لباس البحر . وجلست معهما فى سرور — وما استقر بهم المجلس حتى بدأت الحديث قائلة :

— متى وصلت رسالتى إليكما .

فأجابا :

— اليوم فقط . ونحن نتأهب للسفر إلى القاهرة .

فحدجتهما بنظرة ذات مغزى وقالت :

— إلى القاهرة ؟ يالها من صراحة جريئة ، إذاً لولا رسالتى ما جئتما اليوم .

فقالت « إصلاح » معتذرة .

— إننا لا نكذبك يا أماه . ومعذرة عن تقصيرنا .

وسرها الاعتذار فابتسمت وقالت :

— على كل حال يسرنى أن أرى دلائل الصحة تبدو عليكما .

فأسرع « محسن » قائلا :

— حيا الله الريف . وحيا جمال الطبيعة . فلست أنكر فضل هذه الرحلة . ولا أنسى أثرها ما حييت .

وغلبها مقت الريف . فحولت الحديث إلى مواضع أخرى

ومرت بثلاثتهم فترة طويلة . استفسرت «إصلاح» أثناءها عن والدها المريض . وإخوتها .

ولم تلبث « زينات هانم » أن انفردت بالحديث مع « محسن » حول باريس وما رآه فى شواطئ (فرنسا) مدة تعلمه هناك .

وعندئذ اقتربت « إصلاح » بمقعدها من (حافة الشرفة) وراحت تمد الطرف نحو البحر الذى طالما ضم موجه جسمها الرشيق . وداعب نسيمه شعرها الذهبى الجميل .

وكان البحر فى ذلك اليوم هادئا والشاطئ يعج بالمصطافات والمصطافين . وتجردت أجسام المستحمين إلا من ذلك اللباس العارى (المايوه) . وأخذ البحر يداعب الحسان بموجه الخفيف .

وظلت « إصلاح » تنظر إلى البحر وقد سبح خيالها مع أمواجه ثم انطلق بها فى قارب من ذكريات الضلال القديم . حتى ما كادت تحس من دونها شيئاً .

إنها تعجب كيف كانت تسمح لها نفسها بالاستحمام فيه مع الرجال والنساء عارية الجسم مجردة من الملابس .

وكيف كانت لا تستحى من الظهور بذاك اللباس المبتـــذل الذى لا يستر من جسدها العارى شيئاً .

ثم تسائل نفسها :

ـــ أين كان يذهب حيائى عندما أكون عارية على (البلاج) أمام الرجال ؟.. ولماذا يعاودنى إذا كنت فى البيت مثلا أو أمام نفس الرجال فى مكان غير الشاطىء ؟

هكذا استمرت فى عجب وأسف كأنما كانت تكفر عن الماضى بالندم والاستنكار .

وأخرجها من شرودها يد رقيقة حجبت عينيهـــا وصوت ناعم مألوف يردد :

ـــ يالها من مفاجأة سارة يا (إصلاح) !

وكانت (سوزان) بلباس البحر الحريرى ذى اللون الوردى الجذاب .

فتعانقت الأختان فى شوق . وتبودلت القبلات فى حنان ثم تحولت إلى (محسن) وقد قام لتحيتها وقالت :

ـــ صباح جميل ويوم سعيد .

وتصافحا فى حرارة وتحادثت معهما فى سرور بهذا اللقاء .

وما فرغت من ذلك حتى استأذنت من (محسن) وأخذت أختها لتذهب إلى مظلتهم القريبة من الماء .

وعندما غادرتا (الكابينة) هبطتا الدرج ، المؤدى إلى أرض الشاطىء وهناك اتجهت الأختان نحو المظلة وقالت (سوزان) أثناء سيرها :

ـــ لقد تقابلت أمس مصادفة مع (إكرام) فى هذا الشاطىء .

فصاحت (إصلاح) فى بشر :

— (إكرام) ؟ بالشوق إليها . أين تقيم ؟

— ربما تبعد عنا قليلا وعلى كل سأرسل البحار إليها يخبرها بنبأ حضورك . فقد أخبرتنى بأنها فى شوق إليك من يوم أن تعرفت عليك فى (حفلة الأوبرج) .

وكأن ذكرى الصديقة التى صادقتها على الحب فى الله. ذكرها بصديقتها الثانية (يسرية) فلم تلبث أن سألتها عنها قائلة .

— لقد سمعت أن (يسرية) جاءت لتقضى بقية الصيف هنا — فأين تقيم ؟

وكانتا قد وصلتا إلى المظلة — فأجابتها وهى تعد المقاعد لجلوسهما .

— إنها تقطن الآن مع والدتها منزلا بحى (سيدى بشر) وهما كثيراً ما تأتيان لعيادة الوالد المريض .

وتحت المظلة جلست كل من الأختين على مقعد متجاورتين ووجهاهما إلى البحر .

وعند جلوسهما لاحظت (إصلاح) آثارا تدل على وجود أشخاص مع أختها فقالت متسائلة :

— لمن هذه الأشياء ؟

فأجابتها فى بساطة :

— إنها ملابس لبعض صديقاتي وأقربائهن وهم الآن فى الماء وقد كنت فى زورقهم وخرجت حينما رأيتك فى (شرفة الكابينة) .

فران على (إصلاح) صمت خلعه الاستنكار لما سمعته وجلست ساهمة

وتمددت (سوزان) على المقعد الطويل الذى جلست عليه ثم وضعت ساقاً فوق الأخرى . وعقدت يدها خلف رأسها . وجعلت إلى البحر عينيها وفى سرور وإعجاب راحت تقول لأختها متسائلة :

ـــ ما رأيك فى منظر البحر اليوم ؟

فأنعمت إصلاح النظر فيه ملياً ثم قالت فى إعجاب :

ـــ إنه هادئ جميل .

ـــ حقاً . . إنه مغر جذاب . وقد كان بالأمس هائجاً . فهلا تفكرين فى الاستحمام كما كنت فى الماضى تفعلين ؟

فأسبلت (إصلاح) جفنيها كمن تستعيد ذكرى ماضية ثم رفعتها وقالت :

ـــ لا تذكرينى بالماضى ياأختاه . . عفا الله عنه وعفانى منه .

فنظرت إليها ساخرة ثم قالت مستنكرة .

ـــ عجباً . إنك لا تزالين على حالتك التى كانت قبل الزواج . وما كان ينبغى لك ذلك وأنت مع زوج مثل (محسن) .

ولشد ما دهشت عندما رأيت (أختى) التى كانت (فتاة البلاج) فى الأعوام السابقة تدخله اليوم مرتدية هذا (الكاب الطويل) وذاك (الخمار) الذى لا يناسب الدخول فيه !

وكم تألمت عندما رأيت أصدقائي وصديقاتي يسخرون منك ونحن فى البحر قبل أن يعرفوا علاقتى بك .

فعلا الدهش وجه إصلاح وتمتمت فى أسف .

ـــ يسخرون منى ؟ لشد ما عكست الأوضاع فى هذه الأيام . لقد ألف

الناس المنكر فأقروه ورأوا المعروف منكراً فسخروا منه .

ثم نظرت إلى أختها وقالت :

ـــ ما هذا الذى تقولين ؟ وماذا فى ذلك من عيب ؟

ألم تسمعى من أستاذنا القول الحكيم :

(ما من امرأة تخلع خمارها فى غير بيت زوجها إلا كشفت ما بينها وبين ربها) .

لكنى أراك دائماً تبتعدين بنفسك عن طريق الخير وتوعزين إلى غيرك بالخوض فى ظامات الضلال . . ألا يكفيك ما أنت عليه الآن حتى أراك تقدسين هذا البلاج ، وتحرمين الدخول فيه بالملابس التى تتناسب مع أوامر الله وتسخرين منها .

فقالت (سوزان) فى إصرار وكأنها لم تسمع من كلام أختها إلا طرفه الأخير .

ـــ بلا شك . . فإن لكل مكان زياً يناسبه ـ وما دمنا داخل الشاطىء فيجب أن نتبع تقاليده ونرتدى ملابسه المناسبة له .

فقالت إصلاح مستفهمة :

حتى ولو كانت هذه الملابس تخالف أوامر ديننا وتقاليده ؟

فأجابت فى عدم اكتراث .

ـــ هذا شىء أصبح لايفكر فيه أحد . ولا سيما داخل (الشواطىء)

فقالت إصلاح فى تأثر .

ـــ من أجل ذلك أراك باقية على ارتداء هذا اللباس الفاضح فى جرأة ومباهاة رغم الذى كنت تسمعينه من أوامر الدين ؟

— لكن حدثيني — ألم يكن الله هنا يراني ويراك ؟

— هو ذاك . لكننا في عصر يحتم علينا مجاراة التقاليد العصرية والعمل بأقوال العصريين .

وهكذا تجديني لا أحرم نفسي من متع الحياة كما تحرمين ؟

فأشفقت (إصلاح) لما رأته على أختها من ضلال . وذاب قلبها أسى وحسرة وأطرقت لحظة صامتة . سمعت خلالها هاتفاً يذكرها بالحديث الشريف :

(من رآى منكم منكراً فليغيره بيده . فان لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان) .

فرأت أن ترشد أختها بمنطق الحق . لعلها تعود بها الى الصواب أو تتركها دون سخرية وانتقاد .

وعندئذ اقتربت منها قائلة :

— إسمعي يا (سوزى) . لاتظني أنني أحرم نفسي من متع كما تقولين لكني أنقذها من العذاب الأليم .

فتعالى نتفاهم بصراحة تحت ضوء العقل والحق من أجل هذا الذى تسخرين منه أنت وصديقاتك ومن أجل الذى تلبسن . وأنا على استعداد لطاعتك إذا كنت أنا مخطئة وأنت محقة .

فلما أجابت بالموافقة قالت :

— أنت تقولين أن الناس قالت هذا — والعصر يحتم ذاك .

وأنا أقول إن الرسول قال حديثاً . حرم فيه على المرأة دخول الحمام

الخارج عن بيتها ، ورخص به للرجال بالميازر . وليس بذلك اللباس الذى نراه عليهم .

وقال فى حديث آخر :

(أيما امرأة تنزع ثيابها فى غير بيتها خرق الله عنها سترا)

وإذاً فالحمام مباح للرجال فقط بشرط التستر وغض البصر ومحرم على النساء لأن أمرهن مبنى على المبالغة فى التستر .

فأيهما تتبعين ؟ وعن أيهما تأخذين ؟

فأرادت أن تتخلص من الجواب الحق فقالت :

— لكن الناس قد اعتادوا أن يتمشوا مع ما أجمع عليه الرأى وأنا مع الأغلبية .

ونظرت إليها لتسمع كلمة التراجع لكنها سمعتها تقول :

— إنك مخطئة ياسوزى . هذه نظرية لايؤخذ بها إلا فى الأعمال الصادرة عن عقل ودين . أما وللانسان خلاف العقل — هوى يفسده ؛ وشيطان يضله . فكثيراً مايجتمع الناس على ضلال لأتباعهم هوى نفوسهم . فيقعون فى معصية الله ويحسبون أنهم على حق .

فهل أنت والأغلبية الآن على حق ؟ أم الله الذى خلقهم وخلق الحق وأمر به — والباطل ونهى عنه — ومن أولى بالإتباع ؟ الحق أم الباطل ؟ المخلوق أم الخالق ؟

وهنا وجدت (سوزان) نفسها مضطرة إلى الاعتراف بالحق فقالت :

— الخالق ليس فى ذلك شك . ولكن . .

فقاطعتها (إصلاح) قائلة :

— يكفى هذا الإعتراف . . ولعلى أجد من إقناعك تحبيذاً لما أنا عليه الآن . وتتركين لى حرية الدخول فى شواطئ (بلادنا الإسلامية) مرتدية ما أشاء من الملابس التى تناسب ديننا وتقاليده دون خوف من لوم أحد .

وفى هذه اللحظة رأت (سوزان) زورق الرفقاء ، وقد ظهر على بعد فلم تجب على أقوالها . بل أشارت إليهم وأشاروا إليها بالإنضمام .

ولاحظت (إصلاح) أنه لا فائدة من أقوالها لأختها فاكتفت بما فى الحديث من استنكار بالقلب . ثم استأذنت من أختها معتذرة بالذهاب مع زوجها لرؤية الوالد المريض بالمنزل .

وألقت (سوزان) نفسها فى أحضان الموج الضاحك .

وسرعان ماوصلت إليهم سابحة وانضمت إلى زورقهم فى سرور .

١٥

وفى عصر ذلك اليوم أتت (يسرية) مع والدتها للاستفسار عن صحة الباشا المريض .

وكانت (إصلاح) وقتئذ تتناول الشاى فى (جوسق) حديقة المنزل مع أختها (سوزان) ، وقد ارتدت ثوبا طويلا (روب) له (بنيقة) مقفلة حول عنقها ، ووضعت على رأسها (إيشارب) لفته على شكل عمامة حجبت أذنيها وأعلى عنقها من الخلف .

ولم تكد (يسرية) تعلم من البستانى بوجودها فى الحديقة حتى أسرعت إليها وقبلتها فى شوق .

وعلى المقعد المواجه لها جلست بالقرب منها وراحت تقول فى بشر وسرور

— مفاجأة يا (إصلاح) . . متى جئت ؟

— لقد جئت فى الصباح . ثم أرسلت الخادم إليك . لكنه لم يجدك .

— معذرة فقد كنت فى زيارة صديقتى (سنية) . ومن الغريب أننا كنا نتحدث عنك اليوم .

— الأستاذة (سنية) ! يالها من فتاة رشيدة . كيف حالها ؟

— على أحسن حال . وهى لم تزل تشتغل بالمحاماة إلى الآن وقد سألتنى عنك كثيراً ، وأثنت عليك ثناء عاطراً أمام زميلة لى بكلية الآداب كانت فى زيارتها اليوم

وهنا قطعت (سوزان) عليهما الحديث قائلة (ليسرية)

— لقد بلغنى نبأ عزمك على ترك الكلية . فهل هذا صحيح ؟

فاتجهت يسرية إليها وقالت :

- نعم صحيح وسأمتنع عن الذهاب إليها من ابتداء العام الدراسى الجديد

فعلت الدهشة وجه (سوزان) لما سمعته منها .. غير أنها عادت وتذكرت شدة استنكار أخيها (حسين) لاختلاط الفتيات بالشبان فى الجامعة فقالت :

— لرغبة أخى . . أليس كذلك ؟

— بلى . . . ولما فهمته أخيراً من وقوع المرأة المسلمة تحت ظلم نفسها. بسبب مشاركتها للرجل فى وظائفه الخاصة به . وقيامها بالأعمال الخارجة عن دائرة البيت .. على أننى لست فى حاجة مادية تلجئنى إلى حمل عناء هذه المشقة ومسئولية ذلك الظلم .

فلمعت عينا (سوزان) ببريق الأسف والدهشة . فقد تذكرت ما كانت عليه (يسرية) أيام اشتراكها معها فى جمعية (المجاهدات فى سبيل الوطن) وقالت :

— ماذا تقولين يا (يسرية) ؟ إننى ما كنت أ بك سماع هذه الأفكار الرجعية . وقد كنت وأنت فى (جمعيتنا) أول مطالبة بوجوب مساواة الجنسين فى الأعمال ووجوب منح المرأة حق الانتخاب . والحقوق السياسية و . .

فقاطعتها يسرية قائلة :

— لقد كنت مخطئة حينما كنت أفعل ذلك . أما الآن فأرى أنه لابد للرجال من تحمل هذه الأعباء الخارجية وحدهم — قياما بواجبهم . وحماية للمرأة من ذلك الظلم الذى ستجره على بناتها وأحفادها من بعدها أحقاباً طويلة .

فزاد دهش (سوزان) واشتدت رغبتها فى معرفة الدافع لها على ذلك فقالت متسائلة :

— ومن أين جئت بهذه الأفكار المخطئة ؟

ثم لم تنتظر الجواب بل نظرت إلى (اصلاح) كمن اهتدت إلى ضالتها وقالت :

— آه . . . لقد عرفت المصدر . لابد أنها (إصلاح) هى التى أوحت إليك بهذه الأفكار الرجعية ! ... لكن لماذا ؟ وقد كانت أسبق منك إلى المطالبة بهذه الأعمال ؟

فتجاوزت (إصلاح) عن هذا التهكم ونطقت عيناها بما يؤكد ظنون أختها

وعندئذ بدا على (سوزان) اهتمام كبير بهذا الموضوع ـ وفى نبرة تحوى معانى الدهشة والحيرة قالت لأختها متسائلة :

— ترى ما الذى حدا بك إلى هذا الذى أوعزت به إلى (يسرية) ؟ وهل لك أن تعرفنا أسباب هذا الاعتقاد لعله يتبين لنا صواب ماتدعين ؟

فاقتربت (إصلاح) بمقعدها نحوها وقالت :

— لكى أروى لك الأسباب . . أرى أن تصغى إلى قليلا دون سخرية أو مقاطعة أو تهكم .

فلما وجدت منها موافقة وإصغاء قالت :

— حقاً . لا أنكر أننى كنت أول المطالبات بوجوب مساواة الجنسين فى الأعمال . ووجوب منح المرأة حق الانتخاب والأعباء السياسية التى يمارسها الرجل وحده ـ وذلك لأننى كنت أعتقد بأن المطالبة بهذه الحقوق إنما هى تحقيق لما قرره الإسلام من المساواة بين الجنسين فى الأعمال .

ولكن عندما بدأت أدرس (الشريعة الإسلامية) دراسة حقة فهمت إجمالا أن الإسلام يرمى فى جميع أغراضه إلى منع اختلاط المرأة

بالرجال الاجانب عنها . . فدهشت لهذا التناقض وساءلت نفسى .

— كيف يمكن أن يجمع هذا الدين الذى لا اختلاف فى أحكامه بين تحريم اختلاط النساء بالرجال . وبين مانراه من مشاركة الجنسين فى الأعمال ؟

ومع اعتقادى بأن (آفة فهم الدين الجهل) فإنى لم أجد من نفسى جوابا مقنعا

لذا لجأت إلى (أستاذى) أستشيره فى هذا الالتباس وأستوضحه الرأى فيه.

وما أشد تقديرى (لذاك الدين) عندما أجابنى (الأستاذ) بأن المساواة بين الجنسين التى جاء بها الإسلام . لم يقصد منها المساواة بينهما فى الأعمال . إنما يقصد منها المساواة فى المعاملة فقط .

حيث كانت المرأة قبل الإسلام منبوذة من الرجل مهملة . .

ثم تابع الأستاذ شرحه فقال :

— فلما جاء الإسلام : أوجب على الرجل أن يعامل المرأة بما يحب أن تعامله به بعد أن كلفه الانفاق عليها؛ وحمايتها. وإصلاح مااعوج من أخلاقها نظير طاعتها له فى تنفيذ أوامر الله ورسوله .

ومع أن هذا الجواب قد أزال ما كان فى نفسى من شكوك . إلا أنه لم يكن كافياً لفتاة مثلى . نشأت على الاعتقاد . بوجوب مساواة الجنسين فى الأعمال .

فطفقت أسأله بعد ذلك عن الأعمال التى كلف بها كل من الرجل والمرأة فى هذه الحياة على ضوء الرغبة فى تحقيق الدين .

وما هى إلا برهة وجيزة ، حتى اهتديت إلى ما كان خافياً عنى إذ

أفهمنى (الأستاذ) أن للمرأة أعمالا . وللرجل أعمالا لاتتحد إلا فيما تطلبه الحياة الآخرة لأن العيش فيها لايخرج عن نعيم مقيم أو عذاب أليم .

أما الحياة الدنيا فنظراً لاتساع مرافقها وكثرة مطالبها وانقسامها إلى بيئة داخلية (البيت) وبيئة خارجية — فإن العمل فيها يحتاج إلى توزيع بين الجنسين . وتعاون على النهوض بهاتين البيئتين . بيدين مختلفتين .

وكعادة (الأستاذ) فى طريقة شرحه لم يشأ أن يكتفى بذلك فتابع :

— ولما كانت المرأة بحكم خلقتها أضعف من الرجل جسما وعقلا وأعصابا . وبطبيعة أنوثتها رقيقة لا تتحمل أعباء الحياة الخارجية الشاقة وجسامة مسئولياتها الخطيرة . كانت أعمال البيئة الداخلية على كثرة مطالبها . وعظم مسئولياتها — أهون البيئتين مشقة بالنسبة إلى أنوثتها . وأليقهما لكرامتها . وصيانة شرفها وحمايتها .

ثم ختم (الأستاذ) حديثه قائلا :

— هكذا جرت سنة العدل الإلهى . وبهذا حكمت الشريعة الاسلامية

وعندئذ ذابت نفسى أسى وحسرة من أجل المرأة الحالية : وما وقعت فيه من ظلم وإرهاق .

وما انتهت (إصلاح) من حديثها حتى ران على (سوزان) صمت خلقته الرغبة فى متابعة الضلال . وتشاغلت بتقديم الشاى إلى (يسرية) .

أما يسرية فإنها ما كادت تستبين حقيقة وظيفة المرأة فى الحياة وتعرف منزلتها فى الاسلام حتى أخذتها الشفقة بها بعد أن لمست مدى الظلم الذى وقعت فيه

وفى نظرة تحوى بريق الأسف والإشفاق قالت :

— لهف نفسى على المرأة المسكينة . لقد ظلمت نفسها بأداء عملين .

عملها الذى خلقت من أجله كأنثي . وعمل الرجل الذى شاركته فيه . .
وما أرى فى ذلك إلا نوعا من الرجوع بالمسلمات إلى (عصر ظلم النساء قبل الإسلام) .

ثم اتجهت إلى (سوزان) وقالت :

— أرأيت يا (سوزى) كم كنت محقة فى تركى الكلية وتحرير نفسى من ذلك الظلم الذى وقعت فيه المرأة الحالية .أوالعصرية كما تسمينها ؟

ولما لم تجب « سوزان » تابعت . يسرية قائلة :

— ما بالك صامتة لاتتكلمين وقدكنت من لحظة ترمينى و (إصلاح) بالرجعية والتأخر . . بيد أننى الآن أفخر بتلك الرجعية على أنها الرجوع إلى الحق وإنصاف المرأة ونجاتها من ظلم محقق .

وكانت (سوزان) لما تزل منصرفة عنهما بما أمامها فلم تجب على سؤالها.

وعندئذ تركتها (يسرية) . واتجهت إلى (إصلاح) متسائلة :

— (إصلاح) . ترى على من تقع تبعة ذلك الظلم ؟ أعلى المرأة ؟ أم على الرجل ؟

فأطرقت إصلاح لحظة ثم رفعت رأسها وأجابت قائلة :

— إننى أعتقد أن ظلم المرأة لنفسها جاء من جهلها بتعاليم الدين وعدم معرفتها بما لها من حقوق؛ وما عليها من واجبات إذ ترى فى ذلك انصافها ومساواتها بالرجال :

أما الرجال (آباء . وأزواج —أو أخوة . وأبناء) فإنى أرى أنهم هم المسئولون أمام الله عن نسائهم لعدم قيامهم بما كلفهم الله به فى الآية الكريمة .

(الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) .

إذ تركوهن يسعين على الرزق الذى كلفهم الله به دونهن . ومنحوهن حرية الاختلاط المفسد بالرجال — دون أن يراعوا حق القوامة عليهن .

ثم القت ببصرها من خلال أسوار الحديقه إلى الشارع وكان (طريق الكورنيش) يعج بالغادين والرائحين . من النساء والرجال . هذا يسير مع تلك ـ وذاك يقدم زوجه إلى صديقه . وهناك ضجك يترامى إلى السمع من . أفواه جماعة من الشبان والفتيات — فاستطردت مشيرة باصبعها .

— إنظرى إلى هذا الرجل السائر بجانب هذه المرأة . إنه يبدو محتجبا لايكاد يرى منه سوى وجهه ويديه .. أما هى فما يكاد يختفى من جسمها إلا القليل . . ثم انظرى نحو ذاك الذى يقدم زوجه إلى صديقه ومعارفه وهى بتلك الملابس الخليعة

أليس فى ذلك دليل قاطع على ما يقع على الرجل من تبعة ومسئولية ؟

ومع ذلك فالمرأة مسئولة عن نفسها .

(يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ماعملت وهم لايظلمون)

وفى تلك اللحظة أقبل (حسين وسامى) بملابس البيت (البيجاما) وكانا قد سمعا طرفا من حديث أختهما الأخير .

وبعد أن ألقيا التحية جلسا فى (الجوسق) معهن وبدأ (حسين) الحديث قائلا لاصلاح :

— أتتكلمين عن المرأة ؟ ومن المسئول عما وصلت إليه من الظلم والتدهور الخلقى ؟

فقالت (يسرية) موجهة إليه الحديث :

— وماذا ترى أنت فى ذلك ؟

فاعتدل فى جلسته وأجاب قائلا :

— إننى أشارك (إصلاح) فيما قالته من تحمل الرجل مسئولية ذلك الظلم .. ولست ألوم المرأة فى خروجها ومشاركتها للرجل فى أعماله مطلقا فلو لم تفتح أمامهن أبواب العلم التى تؤهلهن للعمل مع الرجال ما تعرضن لمنافستهم .

ولو اقتصرت برامج تعليمهن على ما يناسب أنوثتهن ما فكرن فى مشاركتهم أعمال الدولة الخاصة بهم .

ثم نظر جهة البحر وكان لم يزل يعج بالمستحمين والمستحمات وتابع مشيرا :

— ولو وجدن من أولياء أمورهن من يقوم أخلاقهن . ويغار عليهن ويحافظ على شرفه وشرفهن ؛ ما عرضن أجسامهن هذا العرض الرخيص على الشواطىء . وما سرن فى الطرقات كاسيات عاريات . وما اختلطن بالرجال فى الحفلات والمجتمعات .

وما فرغ من حديثه حتى كان (سامى) قد بدأ يتناول الشاى والكعك وقد ظهر على وجهه نوع من التبرم بأقوال أخيه . أخذ يعبر عنه بحركات مضحكة .

ولاحظت ذلك (يسرية) فاتجهت اليه تطلب رأيه هو أيضاً .. فلم يكد يسمع منها هذا الطلب حتى اعتدل فى جلسته . وفى حركة مضحكة ازدرد مافى فمه عجلان مسرعاً وراح يقول :

— أتريدين رأيى الخاص ؟

ثم صمت وجعل ينظر إلى أخيه كمن يحاول إخفاء رأيه عنه — وأخيراً تشجع وقال :

— إنى أصدق أخى فى كل ماقاله ... غير أنى أرى فى هذه الأقوال مايحرمنا من رؤية الجنس الناعم وسحره الفتان ويبعدنا عن سماع أحاديثهن العذبة . . وهـــذا مالا اعتاده ولا يتحمله شخصى الضعيف أبدا . أبداً .

وكان يعبر عن أقواله بحركات مضحكة تحوى معانى الاستهتار وعدم المبالاة

فضحكت الفتيات من حركاته ـ أما (حسين) فإنه نظر اليه فى استخفاف

وجلجل فى المذياع صوت المؤذن بصلاة المغرب فقام (حسين) وصلى إماماً وصلت خلفه (خطيبته) وأخته (إصلاح) داخل الجوسق على حين شغل (سامى وسوزان) بما أمامهما من الحلوى والفطائر .

وما انتهت الصلاة حتى سمعوا صوتاً ينادى من بعد :

— صو . صو . .

فعرفت (إصلاح) فيه صوت زوجها فصاحت فى صوت رقيق :

— نحن هنا . . تعال يا (محسن) .

فأقبل (محسن) وبعد أن حيا الجميع قبل زوجه وجلس إلى جوارها .

. . ثم أقبلت (زينات هانم وعنايات هانم) وقضى الجميع سهرة ممتعة تحت ضوء القمر فى الحديقة .

وتراءى إلى سمع (إكرام) وجود صديقتها (إصلاح) بالشاطىء فى نفس اليوم الذى حضرت فيه .

وسرعان ماذهبت إليها فى (الكابينة) غير أنها لم تجد أحداً هناك . فقد كانت (زينات هانم) تسبح وقتئذ فى البحر مع (صفوت بك) .

عند ذلك فكرت فى زيارتها بمنزل أسرتها القريب من ذلك الشاطىء .

وفى عصر اليوم التالى قرع الجرس فى منزل الأسرة — وحينما أقبل الخادم النوبى قالت الزائرة :

— لعل (إصلاح هانم) موجودة الآن ؟ أبلغها أن (إكرام) جاءت لزيارتها .

وما هى إلا برهة وجيزة حتى أقبلت (إصلاح) مرحبة فى فرح بهذا اللقاء .

وما ان جلست بالقرب منها حتى راحتا تعيدان ذكريات عزيزة عليهما فى نشوة وسرور .

وبينما هما فى الحديث إذ أقبلت سوزان ومعها صديقة لها .

وهى زميلة معها فى جمعية (المجاهدات فى سبيل الوطن) .

وكانت كل منهما ترتدى ثوبا قصيرا لا يكاد يغطى أعلى الركبة وفى أتم زينة .

وعند دخولهما نهضت (إكرام) لتحيتهما .

وما ان جلستا حتى أخذت (سوزان) فى الاعتذار قائلة :

— معذرة إذا لم أسارع إليك . . فقد كنت مستغرقة مع زميلتى فى

موضوع هام . يدور حول مشكلة من أهم المشاكل التى تهتم بها جمعيتنا هذه الأيام .

فما سمعت إكرام ذلك حتى تملكتها رغبة شديدة وشعرت باهتمام زائد لمعرفة هذا الموضوع الهام — وما لبثت أن قالت متسائلة :

— ترى ماهى تلك المشكلة الهامة يا سوزى ؟

فعلا السرور وجه سوزان لما رأته من اهتمام إكرام — وأسرعت مجيبة

— إنها مشكلة تدور حول جلاء الأجانب عن أراضينا . وقد كنا نقرر الآن نشر الدعوة إلى مقاطعة شراء البضائع الأجنبية . . كخطوة هامة فى سبيل استقلال بلادنا .

فصاحت (إكرام) فى دهشة :

— مقاطعة شراء البضائع الأجنبية ؟

— أجل . . . وإنى لأرجو مؤازرتنا فى تحقيق تلك الأمنية .

فبدأ على (إكرام) عدم الموافقة ثم قالت .

— لست أعتقد أن هذه المقاطعة تأتى بالفائدة المرجوة ط . . .

فقاطعتها سوزان قائله فى دهشة

— ماذا تقولين ؟

فنظرت إليها وعادت تتابع .

— أقول إنى لا أرى فائدة من تلك المقاطعة — طالما أن هناك أمرا آخر أكثر رواجا وأشد خطراً .

ففغرت (سوزان) فاهها دهشة ؛ ثم صاحت مستفهمة .

— لم أفهم — فماذا تقصدين ؟

— أقصد أن مقاطعة التجارة المادية وحدها . لاتكفى لتحقيق استقلال البلاد .

أما التجارة التى يجب أن يكسدسوقها . وأن يقاطعها كل غيور حريص على استقلال بلاده فهى (البدع الأجنبية والتقاليد المخالفة لأوامر ديننا وتعاليمه) التى تصدر إلينا مع كل فجر جديد .

فنظرت إليها (سوزان) دهشة ثم صاحت مخالفة .

— وما علاقة هذا باستقلال البلاد ؟ إنهم لايصدرونها إلا للفخر والمباهاة لالشىء آخر .

فأجابتها فى وثوق :

— لاتظنى هذا .. فهناك أكثر من ذلك .

— عجبا .. وماذا عسى أن يكون ؟

— إننى أعتقد أن وراء نشر تلك البدع خفاً منصوباً لاستعبادنا والقضاء على ديننا .

فلمعت عينا صديقة (سوزان) ببريق الارتياح — على حين استمرت إكرام ، فى حديثها قائلة :

— وما دمنا قد وصلنا إلى درجة عظيمة من الثقافة والتنور ؟ فلا ينبغى لنا أن نقع فى ذلك الفخ المعد لاقتناصنا .

وكانت صديقة (سوزان) تستمع إلى حديثها باهتمام . وكأنما تفتح أمامها فجأة عالم مغلق .

فما انتهت (إكرام) من حديثها حتى صاحت فى إكبار .

— يالك من فتاة ذكية يا (إكرام) وإنه ليبدو لى الآن أننا قد اهتدينا

إلى المفتاح السرى الذى يجب أن تعالج به جمعيتنا تلك المشكلة الخطيرة . بعد أن كنا عنه غافلين .

فما كادت (سوزان) تسمع ذلك من صديقتها حتى أحست كأن جمرة مست فؤادها وقالت فى خبث :

ولكنى لا أعتقد أن هذا الرأى من السهولة بحيث يمكن الأخذ به فى هذا العصر .

فأسفت (إكرام) لهذا الاعتقاد وقالت :

ـــ لماذا ؟ أذلك لأن كثيراً ممن قذف بهم هذا التيار فى لجته يخشون ألا يشار إليهم بالمدنية . فيسيرون وراء تلك التقاليد المضلة دون مراعاة لحدود دينهم ؟

على أننى لفى عجب من أن كثيراً من فتيات هذا العصر. يعتقدن أن من مظاهر المدنية. التفاخر بأنهن لا يعبأن بالدين؛ ولا يسرن على تعاليمه. ويتباهين بلبس الملابس القصيرة العارية فى خروجهن جريا وراء التقاليد الغربية ويسخرن ممن تخالف ذلك وتتبع أوامر الدين .

فأفلتت من (سوزان) ضحكة ساخرة فقد تذكرت ملابس أختها وهى على الشاطىء أمس ثم قالت :

ـــ أذلك لكونك ترتدين الملابس الطويلة والخمار مثل (إصلاح) ؟ ألا ترين أن هذا الشذوذ يعرضنا لسخرية الأجانب واستهزائهم .

فأجابت (إكرام) قائلة فى حماس :

ـــ لا يا أختاه .. فلست أرى ماترين .. إننى أرى من العار. أن يدخل الزائر الأجنبى (بلادنا مصر) رمز العروبة . وحاضرة (البلاد الاسلامية)

فلا يمكنه أن يميز بين نسائها المسلمات ؛ وبين الأجنبيات. فيما يلبسن ويعملن وهذه بلادهن وأوطانهن .

فبدا على الصديقة روح الاقتناع والموافقة ـ وقالت موجهة الحديث إلى (سوزان) :

ـ الحق أن هذا رأى صائب .. يجب ألا نهمله بعد أن لاح فى أفقنا . وبما أن الواجب يحتم علينا التضحية بالرغبات فمن الحتم أن نتخذ للخروج زيا مناسباً لتقاليد ديننا . كى نتميز به عن الأجانب ويكون رمزاً لقوميتنا وعنوانا لاستقلالنا .

فما أن سمعت (سوزان) ذلك حتى ضحكت ضحكة عالية أودعتها كل ماتحمله من بغض وسخرية بهذه الأقوال ـ ولاحظت ذلك (إصلاح) فأسفت لما رأته من تشبث أختها بالتمسك بالتقاليد الغربية . ثم قالت موجهة الحديث إليها :

ـ إلى متى (ياسوزى) تسخرين من أوامر الدين وماتتطلبه عاداته وتقاليده ! أرأيت إن عادت (موضة) ارتداء (الملابس الطويلة) من البلاد الأجنبية ـ الا ترتدينها حينئذ وتصير لديك أجمل من هذه الملابس القصيرة ؟ أما وقد جاء بها الدين من قبل . فهى أضحوكة فى نظرك . فهلا تخبرينى عن سبب اهتمامك بإخراج الأجانب وجلائهم ؟

فأجابتها فى حماس :

ـ السبب واضح والأمر معلوم . وماذلك إلا لكى نعيش أحراراً فى بلادنا ؛ غير عبيد لغيرنا .

فبدت الدهشة على «إصلاح» من تناقض أقوال أختها وقالت متسائلة :

— كيف تقولين ذلك . وأنت من لحظة تنتقدين (إكرام) فى اتباعها أوامر دينها وفى اتخاذها الزى الذى يناسب تقاليده . خوفا من سخرية الأجانب وانتقادهم ، وأراك دائماً تحبذين اتباعهم فى جميع تقاليدهم الخليعة . وأعمالهم الشاذة ! ألم تكن هذه عبودية لهم ؟ وأليس هذا الانقياد يحقرنا فى نظرهم . ويجعلهم ينظرون إلينا نظرة القوى إلى الضعيف . والسيد إلى المسود . والمتبوع إلى التابع ؟

ثم اتجهت إلى الباقيات واستطردت بصوت يعبر عن إخلاص وأسف .

— وإننى لواثقة كل الوثوق فى أن ترك أوامر الدين والانقياد وراء البدع الفاسدة . لمن أهم الأسباب التى تسهل السبل لاحتلال البلاد وعدم استتباب الأمن والرخاء .

(وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) .

وما انتهت من حديثها حتى صاحت الصديقة موافقة .

— قول حق . ومنطق حكيم .. وإننى لأعجب الآن كيف كنا نفكر فى مقاطعة البضائع . قبل أن نفكر فى مقاطعة البدع والتقاليد . مع أن مقاطعة تلك التقاليد أهم من مقاطعة البضائع وحدها . أو هى مقاطعة للبضائع نفسها . إذ أن معظم تجارة الأجانب مرتبط رواجها باتباع كثير من تقاليدهم وأعمالهم .

وإلى هنا لم تطق (سوزان) صبراً على سماع مثل هذه الأقوال وخشيت على صديقتها من تأثير (إصلاح) عليها فأرادت أن تقلل من أهمية أعمال أختها وأقوالها فاتجهت اليها وقالت :

— إن من يسمعك يا (إصلاح) ليخيل إليه أنك بعيدة كل البعد عن إتيان

شيء من تلك التقاليد ـ مع أن الواقع غير ذلك . ولو وجهت إليك الآن بعض أسئلة امام صديقتينا . لظهر لهما صدق ما أقول .

فبدت الدهشة على وجهى الصديقتين ؛ ونظرتا إلى (إصلاح) التى أجابتها فى هدوء :

ـ إنى على استعداد لكل ماتسألين ؟

وعندئذ قالت (سوزان) فى تهكم .

ـ إذا كنت حقاً تحافظين على التقاليد الاسلامية دون سواها . فلم تظهرين بمظهر الغنى والثراء فى ملبسك وأعمالك ؟ ولاتظهرين بمظهر الزهد والتقشف ؟

فعجبت (إصلاح) من ذلك الاعتقاد الذى يسىء إلى سمعة الاسلام ـ وقالت :

ـ لا يا أختاه ... إنه ليس من تعاليم ديننا الظهور بهذا المظهر الذى تتصورين !

ويجب أن تعتقدى أن ديننا برىء من هذه الصور البشعة التى يصورها أعداؤه والجاهلون بتعاليمه من قذارة ومظهر الفقر والبخل .. ويدلك على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام .

(إن الله يحب أن يرى أثر نعمه على عبده) .

فلو أنك فهمت حقيقة هذا الدين . واهتممت بدراسة كتاب الله وسنة رسوله . لما وجهت إلى مثل هذا السؤال الشائن .

فصفقت الفتاتان علامة النصر ونظرتا إلى « سوزان » فى تحد .

ولكنها أصرت على متابعة سؤالها بغيره ـ فقالت متحدية .

— ماقولك فى نظام المائدة الغربية . الذى تتبينه ؟ ولماذا لاتأكلين بيدك كما كان يأكل الرسول والصحابة الأولون ؟ ألا يعدهذا انقيادا لأعمال الأجانب واتباعا لتقاليدهم ؟

وما انتهت من سؤالها حتى ساد الحجرة صمت شامل وأرهفت الاسماع فى شوق وإهتمام . شأن من ينتظر الخذلان من مرتكب الاثم .

ولاحظت (إصلاح) ذلك التحدى . فرأت أن تجعل أجابتها بمنطق البرهان . حتى يكون الحكم فى النهاية لها. أو عليها. ثم أجابت قائلة :

— مهلا ياسوزى... إن أدوات الطعام التى نستعملها فى هذا العصر . لو وجدت فى عصر (رسول الاسلام) لاستعملها وأمر باستعمالها . لأنه عليه الصلاة والسلام . ماترك من الأعمال إلا ماحرم الله . وما عمل إلا بما أمره به . أما مثل هذه الأشياء مما ليس فيها تحريم ولا تحليل . فليس فى العمل بها ما ينافى ديننا. أو يعتبر تقليداً لغيرنا .

ونظرت إليهن . ثم راحت تتابع .

— ولقدجرت القاعدة الأصولية فى الشرع .. أن ما أمربه (الرسول) نأتى منه ما استطعنا . وما نهانا عنه يجب أن نتجنبه . وما سكت عنه فهو مباح مالم يكن فى العمل به مايضر بصالح العباد أودينا فى تعاليم الدين .

واتجهت إلى سوزان وتابعت .

— ولما كان فى استعمال أدوات المائدة كثير من الفوائد الناتجة عن النظافة التي يأمر بها هذا الدين . كان لابد لنا من استعمالها — طاعة لديننا. وليس تقليداً لغيرنا .. فلماذا نسىء فهم أحكامنا ؟ ونحط من كرامتنا ؟

ثم ختمت حديثها بقولها .

— ولقد قلت لك ماقلت — لكي أطلعك على ناحية هامة من نواحي ذلك الدين . الذي لو عرفنا قدره ، وسرنا على تعاليمه . لسدنا العالم . ولنعمنا بسعادة الدارين ؟

فصمتت (سوزان) في شبه خجل — ولاحظت ذلك الفتانان فلم تردا إحراجها — واكتفتا بتوجيه الشكر إلى «إصلاح» وبتهنئتها على هذا النصر!

وأقبل الخادم في تلك اللحظة بالحلوى والمرطبات فغيرت (سوزان) الحديث . ثم أرخى الليل ستاره . فاستأذنت الفتاتان في الانصراف !

وبعد خروجهما جاءت (يسرية ووالدتها) لتودعا (إصلاح وزوجها) بمناسبة سفرهما صباح الغد . . فقضى الجميع السهرة معهما .

ومما يذكر في تلك الليلة عن (إصلاح ويسرية) أنهما لاقتا من (سوزان) كثيراً من النقد والسخرية بسبب ما هما عليه من التمسك بأهداب الدين كما هي عادتها كلما رأتهما .

ولكن من حسن الحظ أن «محسناً» لم يشعر بشيء من هذه السخرية وأنهما قد سافراً وهو لم يزل يعتقد في زوجته « فتاة العصر والمدنية الحديثة » .

غير أن القدر كان واقفاً ليكشف له يوماً عما غفل عنه .

— فيا ترى متى هذا اليوم ؟

(لقد وصل العروسان . . فهيا أيها الخدم وافتحوا أبواب الحجرات)

هذا ما قاله بواب « فيلا » مصر الجديدة عندما أقبلت سيارة « محسن وزوجه » من مصيف الأسرة .

وسرعان ما أقبل (البستانى) وراح يعاونه على حمل الحقائب ثم يدفعان بها إلى خدم المنزل وأغلبهن من النساء .

وكانت هذه أول مرة يدخلان فيها عشهما الجميل .

فتقدم (محسن) وأخذ بيد (زوجه) ومشى بجانبها فى حديقة (الفيلا) الواسعة ــ وفى خطا وئيدة . اجتازا ممر الحديقة المرصوف وصعدا الدرج الرخامى، ثم طافا بحجرات الطابق الأول وأبهائه وكانت كلها مفروشة بالطنافس العجمية والأثاث الثمين . .

ولم يطل بهما الطواف حتى ارتقى الزوجان فى نشوة سلماً خشبياً مفروشاً بنوع من البسط ــ كان يتوسط (الفيلا) من الداخل ــ ويتهى إلى بهو الطابق الثانى .

وقبل أن يدخلا حجراته ، وقفا معجبين أمام (معزف) من النوع الحديث التصميم كان يتوسط الردهة الكبرى .

وما أن فتحاه حتى جلست إصلاح على مقعده وراحت تحرك أناملها الرشيقة بمقطوعة موسيقية رائعة أطربت زوجها بسحرها الشجى ــ وكان ثمنها قبلة حب وإعجاب .

وفى تلك الفترة السعيدة كانت الطاهية قد انتهت من إعداد الطعام

وتهيأت المائدة — فنزلا إلى حجرة الطعام ، بعد أن طافا بحجرات النوم والزينة .

وما كادا ينتهيان من تناول الغداء حتى كانا قد شعرا بتعب السفر ، فاستراحا قليلا بالنوم .

ولا بد أنهما سيسعدان بعد استيقاظهما لرؤية (حديقة السطح) الفخمة أو على الأقل سيتناولان فيها (الشاى) عصر اليوم .

وفعلا قضى الزوجان بقية هذا اليوم متنقلين بين (حديقة) السطح الجميلة ، وحديقة المنزل ذات السور المرتفع ، يلعبان ويتضاحكان كفراشتين بين الأزهار .

وفى المساء . استبدلت (إصلاح) (بالروب دى شامبر) الذى كانت ترتديه فى الحديقة أمام الخدم . (ثوب النوم) الحريرى العارى الذى يشف عن جسم لدن فاتن — وأمست فى زينتها الكاملة .

هكذا قضى العروسان أول أيامهما فى (فيلاهما الجديدة) .

ثم مشت حياة الزوجين بعد ذلك سعيدة متشابهة مايقرب من ثلاثة أشهر — لايشوبها شائبة . ولايعكر صفوها معكر . لولا ما كان يعترى (إصلاح) من ضيق . كلما رأت زوجها بعيداً عن الاهتمام بأوامر الله . تاركا فرائض الصلاة .. وكانت كلما همت بتنفيذ ما عاهدت نفسها عليه من نصحه وإرشاده عادت وفكرت فى التريث وتحين الفرص .

وفى تلك الأشهر ، كان (محسن) دائماً مع زوجه . لا يتركها إلا فى أوقات عمله التى كانت تقضيها فى الاشراف على بيتها وقراءة كتب الدين . . فإذا ما انتهى من عمله . بادر بالعودة إلى جنته . فيجد حوريته تنتظره فى أبهى (حللها المنزلية) تفوح منها رائحة العطر الزكية . وفى أكمل زينة . فيطبع

obeikandi.com

على وجنتيها قبلة اعتادها عند خروجه من المنزل — وعند عودته إليه . ثم يقضيان بقية اليوم معا . لا يخرج بدونها . ولا يرى إلا معها .

فكانا فى بعض الأحيان يتنزهان بالسيارة فى الخلوات البعيدة والأهرام وكثيراً ما كانا يخرجان ليلا إلى الحدائق القريبة من منزلهما . فيتمشيان واليدان متماسكتان كعاشقين يتحادثان ويتعاهدان على دوام الوفاء والمحبة الزوجية . . أما مشاهدة دور الخيالة والتمثيل . فكانا يذهبان إليها كلما عرضت من الروايات مايوافق هوى (إصلاح) ويرضى ذوقها .

وهكذا أمضيا أشهر الصيف فى هناء ؟

— فياترى ماسيكون فى الشتاء ؟

إنقضى الصيف بتمه ومباهجه . وخلت الشواطئ من بهجتها ومرحها بعد أن أخذ المصيفون يعودون تباعاً إلى بلادهم .

ولما لم تتحسن صحة (شاكر باشا) طوال أشهر الصيف عزمت أسرته على العودة إلى القاهرة .

غير أنه حدث والأسرة تستعد للسفر أن فوجئت بموت (عنايات هانم والدة يسرية) .

فكان لهذا الحادث الفاجع . وقع أليم فى نفوس الجميع . وبالأخص (حسين) فقد أصبح شغله الشاغل . أن يستكمل على عجل مراسيم الزواج حتى لا تترك (خطيبته) منفردة بأشجانها ووحدتها .

ومن أجل هذا تأخرت عودة الأسرة بضعة أسابيع . تم فيها زفاف (الخطيبين) دون حفل أو دعوة أحد .

وفى أمسية من أمسيات أواخر أكتوبر . عادت الأسرة من مصيفها إلى قصرها بالزمالك .

ولكن تشاء المقادير أن يأتى مع عودتها شقاء (محسن وإصلاح) وأن يخرج القدر عن صمته ليطلع (الزوج) على ما قد يكون سبباً فى انهيار سعادته الزوجية .

— فما سبب ذلك ؟

— لقد حدث غداة حضور الأسرة من مصيفها أن ذهبت (إصلاح وزوجها) للسلام والاطمئنان على صحة الوالد . وتصادف أن كان هناك شوقى (خطيب سوزان) فلم تشأ (إصلاح) أن تخلع خمارها عن رأسها

أو معطفها الذى كانت ترتديه ، رغم إلحاح أختها فى ذلك .

وبعد الغداء اجتمعت (إصلاح) بوالدتها وأختها ـ وأخذن فى الحديث فى حين جلس (محسن) مع سامى وشوقى ـ وراحوا يلعبون (الكنكان) بالقرب منهن .

ومن الغريب أن الحظ كان حليف (محسن) فى ذلك اليوم فاستولى عليه سرور الكسب. وبلغ به الفرح مبلغاً لم يشعر به من قبل .

ولكن القدر الذى تركه ينعم باللذات . ويجاهر بكراهة الدين والمتدينات ، أراد أن يكون بدء القصاص منه فى نفس اللحظة التى شعر فيها باستكمال سعادته .

حيث ترامى إلى سمعه بعض ألفاظ تنبئ عن السخرية والتهكم كانت موجهة إلى زوجه من (سوزان ووالدتها) لتحجبها بالخمار ـ أمام خطيب أختها.

وما أشد الدهشة التى استولت عليه . والهم الذى استحوذ على نفسه عندما سمع من بين دفاع زوجه .بعض الآيات القرآنية :والأحاديث الدينية.

على أن همه لم يكن هذا (الخمار) نفسه .ولكنه أيقن فى تلك اللحظة بأن زوجه من صنف المتحفظات اللاتى كان يكره الزواج منهن .

ثم حدثه قلبه بأنها لم تخرج بهذا (الخمار) إلا من أجل ذاك التحفظ وليس من أجل نظام الجمعية .أو حب الظهور كما كان يعتقد .

عند ذلك انتابه القلق. وأحاطته الوساوس. ثم أرهف سمعه ثانية .

ولكنه لم يستطع أن يسمع بعد ذلك من أحاديثهن المختلفة ـ سوى عزم (زوجه) على الذهاب إلى منزل أخيها (حسين) لتعزية (زوجه يسرية) فى والدتها .

ولم يمض كثير من الوقت حتى كان هو وزوجه . يقومان بواجب العزاء والزيارة .

وهناك جلس شارد اللب واجما . وقد ظنت زوجه أنه يشارك (يسرية) فى مصابها .

ولكنها لو كشفت عن دخيلة نفسه فى تلك الجلسة . لرأت أن مصابه فيما سمعه منها اليوم — أشد من مصاب (يسرية) فى والدتها .

وهكذا تغير (محسن) وتبدل دون أن يشعر به أحد .

وما انتهت الزيارة حتى عادا إلى منزلها . ولكن (محسن) لم يعد بتلك النظرة التى كان ينظر بها إلى زوجه من قبل. أو بتلك السعادة التى كانت تلازمه قبل ذهابه إلى أسرتها . وإنما رجع مبلبل الخاطر مشغول الفكر .. وبات حائراً يفكر فيما سمع ؛ ثم أصبح قلقاً — ومن ذلك اليوم شعر برغبة قوية فى مراقبة أعمال زوجه؛ وملاحظة ما كان غافلا عنه .دون أن تشعر .

وتمضى أيام قليلة وإذا (بمحسن) وقد رفعت الغشاوة عن عينيه يرى فى زوجه — غير ما كان يحب أن يراه، ويسمع منها غير ما كان يعتقده فيها ثم يتأكد لديه أن تلك الفتاة التى كان قد رآها فى (الأوبرج) وخطبها من وسط (نادى العصريات) وبين حفلات اللهو — إن هى إلا واحدة ممن كان يخشى الوقوع فى زواجهن .

* * *

لقد كان (محسن) يرغب الزواج من المرأة غير المتدينة . كى ينعم معها بملاهى الحياة ولذاتها . ولتتمشى مع ميوله . وتستقبل أصدقاءه كما يستقبله

زوجاتهم . وتشرب معه الخمر . ولا تمنعه لعب الميسر . وتنتقل معه بين أماكن اللهو التي نشأ على حبها .

أما وقد تكشفت له الآن حقيقتها ؛ فإنه لم يعد ذلك الزوج السعيد الموفق في الحصول على الزوجة التي كان ينشدها .

وجلس (محسن) يوماً وحده بمكتبه . وأسند رأسه بين راحتيه ، وانصرف إلى خواطره يستعرض الصور التي كانت عليها (زوجه) في الحفلة يوم أن خطبها ! ! . . فجعل الشيطان يصور له كل ما كانت عليه من مظهر الحياء والحشمة . . عيوباً رجعية — ويوسوس إليه بالباطل ، ويغريه بالضلال .

فإذا ما انتهى من تصوراته راح ينحى باللائمة على نفسه :

— يالغفلتي تلك الليلة . . لقد كانت في أناقتها محتشمة ، وفي وسط اللهو بعيدة عنه . وفي حديثها حيية . . لم تكن وهي توزع الورد كغيرها ممن يقدمن الزهور ويأخذن الثمن — إنها لم تبتسم لي . . . حتى ولم تنظر إلي . . ليتني لم أصدق (ممدوحا) حينما قال لي . إن ذلك تيه وكبر . لو كنت رأيتها وقت ذاك بالعين التي أراها بها الآن — لسهل انتزاع حبها من قلبي . إذ لا حياة لقلبي مع من لا تتفق ميولها وأهواؤها معه .

ومرت أمام عينيه أطياف حياته مع تلك الزوجة . . . فأنساه الشيطان جميع أعمالها العصرية . وثقافتها العالية . وكل ما كان يراه فيها جميلا . . ولم يذكره إلا بما أصبح يراه فيها من عيوب — وما كان يسمعه أحياناً من أحاديث دينية .

إنه ليذكر أنها قالت له يوم أن رفض الذهاب إلى جده :

— (لن يدخل الجنة قاطع رحم) .

وفى الخمر يوم أن تاقت نفسه إلى شربها :

— (من شرب الخمر سقاه الله من حميم جهنم) .

وأعجب من ذلك. أنه فهم الغرض الحقيقى من ارتدائها الملابس المحتشمة واختيارها لنوع مخصوص من أماكن اللهو والاصطياف — والآن فقط فهم سبب ممانعتها فى مقابلة أصدقائه كلما دعاها إلى ذلك .

ونظر حوله بعد هذا التأمل الطويل . وكان كل ما حوله ساكناً يشمله الهدوء — إلى ذهنه الحائر؛ وقلبه الشجى .

... إذاً .. لقد تحقق (دعاء جد العائلة الأكبر) ... فيا لحظى العاثر ..

وهنا تمثلت له صورة (ذات الدين) فى شخص زوجه . فزادت أشجانه وحار فى أمره . وساءل نفسه .

— كيف يمكن العيش مع زوجة أفكارها تخالف أفكارى ؛ وميولها لا تتحد مع رغباتى ؟ ثم ما هو الحل الذى يديم لى السعادة معها ؟

وكم تمنى فى تلك اللحظة — أن لو كان (ممدوح) بجانبه — يستجديه الرأى ويمده بالعون . . لكن أين (ممدوح) ؟ — لقد انقطعت صلته به منذ نقل إلى الوجه البحرى .

ثم أطلق لنفسه العنان . وراح يكدح ذهنه ويستجدى عقله وإذا بالشيطان يهبط عليه مرة ثانية — يوحى إليه بالمنكر . ويرشده إلى الضلال .

وسرعان ما استجاب له . وكانت النتيجة أن عزم على حمل زوجه على ترك ماهى متمسكة به من أوامر الدين .

وما وصل إلى هذا الحل حتى كان قد حان ميعاد إنصرافه من مكتبه فاستقل سيارته قاصداً منزله — وقد أحس أن هذا العزم قد بعث فى نفسه الأمل وأعاد إليها الهدوء .

فياللاقدار... لقد بات كل من الزوجين عازما على تحويل الأخر عما هو عليه من الأعمال والأهواء .

— فياترى لمن النصر ؟

obeikandl.com

وما كاد يمضى يومان بعد عزم (محسن) على مقاومة (رغبات زوجه الدينية) حتى أرسلت (زينات هانم) تدعوها إلى حفلة خيرية كانت تقيمها فى جمعيتها كل عام .

وكان (محسن) وقت وصول تلك الدعوة يستعد للخروج إلى مكتبه وكانت (زوجه) تجلس بالقرب منه تقرأ له فى إحدى صحف الصباح .

فما كاد يستلم بطاقتى الدعوه من الخادم حتى وجد أن الفرصة قد واتته وآن له أن يحمل (زوجه) على تنفيذ ماعزم عليه .

وسرعان ما التفت إليها وقال وهو يشير بالبطاقتين .

— لعل الوالدة قد سبقت إليك بهذا الخبر السار .

وكانت « إصلاح » مشغولة بالقراءة فقالت مستفهمة :

— ماذا ؟ وأى خبر ؟

فقال وكأنه يجهل أمر تمسكها بأوامر الدين .

— حفلة خيرية مساء الليلة من حفلات الوالدة الرائعة . ويسرنى أن أنعم بمرافقة زوجى الحسناء فى هذه الحفله

فرنت إليه باسمه فى صمت ثم اسبلت جفنيها كمن تستعيد ذكرى ماضية .

وما لبثت أن قالت معتذرة فى هدوء .

— لقد سبق لى رؤية كثير من هذه الحفلات حتى ملتنى وملتها ولم أعد أشعر بأية لذة فيها :

وكان (محسن) يتوقع منها هذا الرفض — ولكنه أراد أن يتمادى فى تجاهله حتى يرى مايكون من أمرها فقال ملاطفاً :

— مهما يكن بك من ملل فلا بد من ذهابك معى الليلة .

وجلس بجانبها وراح يتابع متسائلا .

— ألا ترين أن والدتك هى التى ترأس تلك الحفلة . وأنك أولى منى بالوجود فيها ؟

فتبسمت فى استخفاف ثم قالت متسائلة :

— أتعتقد أن والدتى هى التى ترأس هذه الحفلة ؟

فتطلع إليها فى عجب من هذا السؤال وقال :

— وهل هناك شك ؟

— يؤسفنى أن يخدعك هذا المظهر .

— أى مظهر ؟

— الواقع أن والدتى لم تكن سوى آلة تحركها يد أجنبية تدير تلك الجمعية ولولم تشعر هى بذلك .

فقال مدهوشاً :

— لم أفهم شيئاً ! فماذا تعنين ؟

— أعنى أن كل خطوة تخطوها تلك الجمعية — وكل بدعة تظهر فى حفلة من حفلاتها — لم تكن سوى ثمرة غرس فئة من الأجنبيات المندسات فيها بقصد النهوض بها . وهن فى الواقع . لا ينشدن سوى هدم ديننا . والقضاء على تقاليده . دون أن يخطر ذلك ببال أحد . وما سيقام فيها الليلة ما هو إلا تحقيق لبعض آمالهن وأغراضهن

فشعر (محسن) بضيق مصدره اهتمام زوجه بالتقاليد الدينية ، ولكنه تحامل على نفسه ولبس ثوب الخداع والمكر كى يحملها على الذهاب معه فقال :

— لقد زاد شغفى لرؤية ما سيقام فى تلك الحفلة بعد قولك هذا فلعلك تذهبين من أجلى فقط .

فتطلعت اليه ثم قالت وقد تذكرت وعداً سابقا منه :

— أما قلت لى منذ جئنا إلى (فيلانا) إنه لا يطيب لك رؤية شىء من اللاهى والحفلات إلا إذا كانت تعرض ما يرضى ذوق وما يوافق اختيارى ؟

فقال وقد تذكر عهده الذى قطعه على نفسه .

— ولكنى منذ الآن أصبحت أرى ضرورة اتباعك لى فيما أريده من متع، وماأبغى من ملاذ .. ألست زوجك الحب الوفى. ومن حقى ذلك؟

فلم تكد تسمعه يطالبها بواجب عليها — حتى تذكرت الأحاديث الدينية التى كلفت المرأة بطاعة زوجها — فتحركت فى نفسها عوامل الموافقة على ما أراد لكنها ما كادت تهم باجابة طلبه. حتى تذكرت مافى هذه الطاعة من معصية الله ومخالفة أوامره — فصمتت حائرة ... ماذا تفعل ؟ وأيهما تطيع ؟.

واستمرت هذه حالها حتى طرق ذهنها الحديث الشريف .

(لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) .

عند ذلك سكنت نفسها وعاودها الهدوء واقتنعت بوجوب رفض الذهاب معه .

وسرعان ما بدا لها أن تتفاهم معه فى صراحه حسما للموقف — فطوت الصحيفة التى فى يدها ونظرت إليه وانطلقت قائلة :

— إن من أسباب السعادة الزوجية . أن يكون بين الزوجين حب ووفاء . . ولكن من سوء الطالع — أن يكون مع هذا الحب شىء من فوارق الطبع واختلاف الميول — خصوصاً إذا كان هذا الاختلاف فى طاعة الله من أحدهما ومعصيته من الآخر .

ثم استطردت مصممة العزم فى قوة وصراحة :

— والآن ياعزيزى. قد آن لى أن أصارحك بأن هذه الطاعة الخالصة لله هى التى تمنعنى من الذهاب معك — إلى هذه الحفلة — أو إلى أى مكان يحملنى على ترك تعاليم الدين .

ولا تسل عن مقدار ما انتاب (محسن) من الهم إثر هذا التصريح ولا تحاول أن تسمع منه الآن كلمة بعد تلك الصدمة العنيفة

وماذا عساه أن يقول وقد خاب أمله فيما كان يرجوه من زوجه — ورأى أمامه (ذات الدين) وجهاً لوجه .

إنه لم يتكلم بكلمة حتى ولم ينظر إليها . . ولكنه قام غاضباً مهموماً ولأول مرة خرج إلى مكتبه مطرق الرأس واجما .

وهناك أخذ يفكر فيما سمعه من زوجه . وماذا يفعله تجاه هذا الاختلاف ثم جعل من نفسه سائلا ومسئولا وراح يسألها ويجيبها :

— أأترك زوجى ؟ وهى الصفاء والوفاء . وهى أمى وأبى وكل مالى فى الوجود ؟

— إننى لا أستطيع ذلك .

— أأستطيع أن أتساوى معها فى آرائها ؟

— بالطبع لا يمكن ذلك لأنى لا أطيق البعد عن لذات الحياة المليئة بالمتع وأماكن اللهو .

— لماذا لا أذهب بدونها إلى تلك الأماكن ؟

— لأننى رجل عصرى ولا أحب هذا النوع :

— إذن ماذا أفعل أمام هذا الاختلاف الذى بيننا ؟

— لا حل لذلك سوى الاستمرار فى الاحتيال عليها بشتى الوسائل حتى تذهب معى الليلة ثم يسهل بعد ذلك ما أريد .

وعاد (محسن) إلى منزله . ودخل على زوجه — فوجدها بزينتها المعهودة وابتسامتها المشرقة فقبلها كعادته . ثم تناول معها طعام الغداء . وكان من عاداته النوم بعده — فأرجأ عزمه إلى ما بعد استيقاظه من النوم .

وعند الغروب استعد (محسن) للذهاب إلى الحفلة . وكانت زوجه وقتئذ فى حجرة الاستقبال (بالطابق الأول) مع بعض زائراتها .

فجلس ينتظرها فى البهو المؤدى إلى السلم حتى انصرفن .

وما كاد يراها صاعدة حتى ابتسم لها وأقبل عليها ملاطفاً .

وعلى الأريكة المجاورة للمعزف — جلس بجانبها كمن يريد أن يتحدث فى أمر هام .

وما استقر بهما المجلس حتى أمسك يدها بين يديه ملاطفا . ثم بدأ الحديث قائلا فى هوادة ورفق :

— لقد فكرت ياعزيزتى فيما قلت فى الصباح بخصوص اختلاف آراء الزوجين . وما يترتب على ذلك الاختلاف من شقاء الحياة الزوجية .

فخفق قلبها وخيل إليها أنها فى ساعة حاسمة وتابع محسن قائلا :

— وبما أن هذا الاختلاف بين زوجين متماثلين فى التعليم والرقى ومن عصر واحد فإنى أرى أنه من السهل إيجاد حل لدوام الحب والسعادة بيننا .

عند ذلك خشيت (إصلاح) أن يكون لزوجها قصد يخفيه فقالت متسائلة :

— وماذا ترى فى ذلك ؟

فحدجها بنظرة ذات مغزى وقال باسما :

— إننى أرى وجوب تركك لهذه العادات الرجعية والتقاليد القديمة ثم توقف فقد سمعها تتمتم متقاطعة — عادات رجعية : وتقاليد قديمة — يالها من ألفاظ خرقاء . تخرج من أفواه من لم يعرفوا قدر هذا الإسلام وعظمته — ثم نظرت إليه وقالت قبل أن يتكلم .

— إنك (يا محسن) لمخطىء فى اعتقادك بأنى متمسكة بالعادات الرجعية والتقاليد القديمة — إذ أن (الشريعة الاسلامية) أجد الشرائع . وتبعاً لذلك تكون تقاليدها أحدث التقاليد — ومن هنا ترى خطأ نسبة هذه الألفاظ الخرقاء . إلى المحافظين على أوامر هذا الدين القويم .

وكان محسن قد شعر بما فى أقوالها من حق . ولكن شيطانه كان أقوى من شعوره — فما لبث أن قال وقد اتخذ منهاجا آخر فى الاغراء :

— قول حق — وإننى لأعتذر عن تلك الألفاظ الخرقاء ؛ وأعود إلى الحل الذى يديم علينا الحب والسعادة الزوجية ثم قال :

— (إصلاح) — إصغى إلى ياعزيزتى — إننى أرى ضرورة إتباعك لما يتمشى مع روح المدنية الحديثة ، والعصر الحاضر . خصوصاً وأنت فى هذه السن الصغيرة . فدعى ذلك يا حبيبتى للعجائز ؛ أولمن هن دونك فى التمدين والرقى . وتعالى نتحد معا ، ونتعاهد على أن نمتع نفسينا فى هذه الحياة المليئة بالمتع واللذات . . نرتشف من كئوسها . ونمرح فى ملذاتها . ونتنقل بين مراقصها وملاهيها .

وهنا نطق فمها دون أن تشعر . . . تفعل كل هذا ؟

— نعم يا حبيبتى وأكثر من ذلك . وإننى لعلى استعداد أن أبتاع لك

باخرة على سطح الماء . تقيم فيها الحفلات. وندعو إليها الأصدقاء والصديقات. ولن أضن عليك يازوجتى المحبوبة . بما يناسب جمالك من الجواهر والملابس التى تجعلنى أفاخر بك جميع هؤلاء فى الحفلات والمجتمعات ؛ ثم لا تنسى أننا سنقضى الصيف بين ملاهى باريس (بعيداً عن ذلك الريف البغيض) . فلا تحرمى هذا الشباب من تلك الملاذ الدنيوية . والسعادة الزوجية .

ثم أراد أن يزيد فى الأغراء ؛ فربت فى خفة على وجهها الجميل وقال ضاحكا :

— وإنى لأعاهدك على أن نتبع أوامر الدين عندما نكبر ونصير عجوزين . فماذا تقولين ؟

وكانت (إصلاح) تستمع إليه وهى ساهمة . تأسف لتمسكه بمفاسد المدنية؛ واستسلامه لإغواء الهوى ـ وشد ما آلمها أن ترى ذلك الزوج المكلف بإرشادها إلى اتباع أوامر الدين ـ يزين لها عمل المحرمات وترك أوامر الله . فما كاد ينتهى من حديثه. حتى رأت أن الفرصة قد واتتها. وآن لها أن توقظ « عقله » وترشده إلى ما كانت قد عزمت عليه نحوه فبدأت حديثها قائلة :

تسألنى ماذا أقول يا محسن ؟ . وماذا عساى أن أقول بعد كل هذه المغريات المخالفة لشريعة الإسلام وأوامره ؟

— إن السن ياعزيزى والرقى — لادخل لهما فى طاعة الله . والكل عنده سواء . ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، ولو كان اختلافنا لغير الله لاتبعتك فيما تريده وتهواه . . ولقد آن لى أن ألفت نظرك إلى أمر طالما كان يشغلنى السكوت عنه .

فخفق قلبه ونظر إليها متسائلا ـ فتابعت فى هدوء وإخلاص :

— ذلك هو. أننى وأنت يازوجى من دين واحد. والذى فرض على طاعته

قد فرضها وأوجبها عليك أيضا . فلم لا تتحد سويا على طاعته. ويكون حبنا في الله أدوم وأقوى ؟

وكان محسن يستمع إليها في ضيق ووجوم. فما وصلت إلى هذا الحد من القول ـ حتى أحس كأن سهما أصمى قلبه لما في أقوالها من انهيار أمانيه . ثم أطرق صامتا وقد بدا على وجهه الغضب والتبرم .

ولاحظت ذلك « إصلاح » فاستطردت في أسى قائلة :

ـ ما كنت أحسب أن هذا القول سيضايقك ؛ وأنت الذي من حقه ارشادي . وعليه إصلاحي. ولكني أردت أن نتعاون على طاعة الله . وأن يتمم كل منا دين الآخر ـ ولقد ذقت حلاوة الايمان وامتلأ قلبي بنوره بعد أن تجرعت مرارة كأس الضلال . فما وجدت خيراً من نعيم الطاعة وأمل الثواب ـ ولو كنت آمل في ملاذ الدنيا ؛ لرقص قلبي لما سمعت . وتاقت نفسي لما عرضته على الآن .. لكن شيئا من ذلك لم يبلغ نفسي . ولم يهز قلبي . وما قيمة هذا المتاع الزائل . بجانب ما تأتي به الطاعات . مما لا عين رأت ؛ ولا أذن سمعت ؛ ولا خطر على قلب بشر .

وإلى هنا رأت وجومه يزداد وغضبه يكاد يتفجر فأرادت أن تدعوه بالحكمة والموعظة الحسنة . لعله يعود إلى الصواب فتابعت :

ـ ومع ذلك فأنا لا أكرهك على شيء لا تريده . أو لا تندفع إليه من تلقاء نفسك . ولكني أرجو ألا تكرهني على أمر لا يريده الله . وأن تكون لي الزوج المعين على عبور تلك الحياة الفانية بسلام .

وما انتهت من حديثها حتى نظر إليها غاضباً ثم قال في شيء من السخرية والتهكم :

— هذه الأقوال إن دلت على شيء — فإنما تدل على روح متزمته لا تليق « بزوج عصرى » قد ارتشف من مناهل المدنية الغربية ونهل من ينابيعها قدراً جعله يخشى الزواج بمن تخالف ميوله وروحه العصرية .

ثم تذكر دعاء جده الأكبر — فاضطرب وقال فيما يشبه الندم :

— على أنى لا أنكر أننى قد اخترتك بنفسى من بين فتيات هذا العصر . وتزوجتك من والدتك باختيارى . لكن يظهر أن اختيار الانسان لا يمنع ما هو مكتوب له. ومقدر عليه .

وخرجت من صدره آهة عميقة .أعقبها صمت وإطراق .

رأت « إصلاح » هذا الانفعال فكادت عيناها تدمعان — وسمعت هذه الأقوال . فعزعليها أن ترى ذلك الزوج الذى كانت ترفض زواجه. يلقى على مسامعها ماتشم منه أنه خدع فى مظهرها عند زواجه. ولكنها تحاملت على نفسها، وتغلبت على شعورها. ثم قالت فى شبه رضاء بالقدر :

— لن ألومك الآن على ما تقوله . ولا على ما سمعته منك وإن كنت لأمة أحدا . فلا ألوم إلا والدتى . لا على أنها جمعت بين طرفى نقيض « فكل شيء بإرادة الله » بل على أنها لم تطلعك على حقيقة أمرى — وتمتمت فى نبرات خافتة :

— سامحها الله فقد كانت ترى فيك الزوج الذى يرد إلى نعيم الحياة .

وكانت تتكلم بصوت كأنه لحن حزين — توحى نبراته بالألم ، وتدعو إلى الرثاء .

فلم يكد يسمع ذلك حتى غلبه حبه وزال عنه بعض مابه. ثم اقترب منها مدفوعا بعاملى الحب والأمل وقال فى شبه اعتذار :

— « إصلاح » . . . أنت ضرورة لحياتى . . . وما قلت كل هذا إلا لأطلعك على بعض خفايا نفسى ؛ ولدوام الحب بيننا . ولكن أصرارك هذا . وعدم ذهابك معى الليلة . سيهدم سعادتنا ويحملنى على أن آخذ ما لا تحمد عقباه .

وكان الليل قد أرخى ستاره ، وميعاد الحفلة يقترب . فعاد إلى الإلحاح عليها — وتمسكت بالرفض .

وعندئذ ثارت نفسه — فارغى وأزبد . وهدد وأوعد ؛ ثم قام يذرع البهو جيئة وذهابا .

وما لبث أن وسوس إليه الشيطان بخاطر ارتاح له — ولأول مرة خرج من المنزل لغير عمله دون زوجه ثم ذهب إلى (الحفلة) غاضبا . وقد حمل فى خبيئة نفسه أملا وانتقاماً .

٣٠

كانت الحفلة هذه الليلة كغيرها من الحفلات، التى كانت تقيمها (زينات هانم) باسم الخير كل عام . وكانت فى بهجتها لا تقل عن (حفل الأوبرج) الماضية . وحفلة النادى السابقة .

وهذه الحفل وإن كانت تماثل سابقاتها فى كل ما كان بها من لهو وملاذ — إلا أنها كانت تخالفها فى (نوع) يبدو جديداً ويلوح غريباً .

فقد كانت تمتاز باستعراض الجمال والأناقة وبعرض أحدث الأزياء التى أبدع فى حياكتها أشهر خائطات باريس . والبلاد الغربية .

فما وافت الساعة العاشرة مساء حتى رفعت الستار عن موكب الاستعراض العجيب .

فدوى التصفيق — وتطلعت الأنظار . واتجهت كلها جهة المسرح . وساد الصمت بين الجميع .

ومن غريب أمر محسن فى تلك اللحظة . أنه ما كاد يرى (ربات الجمال) يتهادين فى إغراء أمام المدعوين عارضات ملابسهن العارية المختلفة . حتى عاودته ذكرى حفلات (باريس) أيام تعلمه هناك .

وما لبث أن عادت إلى نفسه أقوال زوجه عن أغراض الأجانب من وراء نشر تقاليدهم الفاسدة . وداخله شعور تصديقها فيما قالته خلال شجارهما السابق . . لكنه سرعان ما تناسى كل ما سمعه من أقوالها الصادقة وإرشادها الحكيم ولم يعد يفكر . إلا فيما أغضبه من آرائها . وما أمامه من لهو ومتاع .

وما انتهى العرض حتى بدأت المساومة .

وكان كل من يشترى ثوباً له أن يراقص لابسته ، ويقضى السهرة معها . فاختلفت الآراء ؛ وارتفعت الأثمان . وجعل كل يساوم بما يحلو له ويزيد

عليه حتى وصل ثوب احدى الفائزات إلى ثلثمائة جنيه. دفعها أحد المعجبين بلابسته .

على أنك لو تركت هذا العرض الآن . واتجهت بنظرك جهة الحديقة لرأيت (محسناً) — وقد استجاب لوسوسة الشيطان — مشغولا بامرأة من النساء الموجودات ـ يساومها الرجس والعلاقة الآثمة .

وسرعان ما تآلفا وقضيا السهرة معاً . ثم كان بينهما ميعاد للمقابلة بعد ذلك .

وقبل أن يفترقا أهدت إلية زهرة صغيرة من نوع (البانسية) بنفسجية اللون. دقيقة الصنع، من الخزف الثمين ـ عربون التعارف، وتذكاراً منها إليه.

فمن هى تلك المرأة التى قذف بها القدر فى طريق ذلك الزوج الخائن؟

— لم تكن سهام — سوى امرأة لعوب — مات عنها زوجها. فاتخذت سكناً أنيقاً فى عمارة فخمة وسط القاهرة ـ وكانت تعيش بمفردها مع بعض الخدم الذين جعلتهم عدتها وساعدها .

وهذه المرأة — وإن كانت على جانب كبير من الجمال والجاذبية ، إلا أنها كانت امرأة .لا قلب لها ولا ضمير . كانت تصادق هذا . وتأخذ مال ذاك والويل لمن يخدعها منهم — أو يتركها قبل أن تتركه .

رأت « محسنا » فى الحفل — ورأت فيه مميزات لم تصادفها فى غيره ممن أحبتهم وتركتهم عندما وجدت صيداً آخراً — وابتدأت العلاقة بينهما وسط الحفلة التى دعته إليها والدة زوجه .

وكثير من الأمهات يعتقدن أن سعادة بناتهن الزوجية .لاتتم إلا بذهاب الزوجين إلى أماكن اللهو . والحفلات الساهرة — ولذلك كان يهم (زينات

هانم) أن ترى ابنتها وزوجها فى كل ملهى وحفل — وكان سرورها بوجود « محسن » بقدر أسفها على حرمان ابنتها منها .

* * *

لم يعد « محسن » إلى منزله تلك الليلة إلا بعد انتصاف الليل بكثير وكان ثملا يترنح من كثرة ما شرب من الخمر .

فلما دخل حجرة النوم استيقظت زوجه وكانت هادئة رزينة ، تضىء فتنتها . وتغرى الناظرين . فاضطرب قلبه لمرآها وأقبل عليها لثماً وتقبيلا — ثم وسوس إليه الشيطان بخداعها — فلم يشر إلى ما كان منها قبل خروجه . ولم تشم منه رائحة عتاب ولا غضب . ومع ذلك كان يبدو أمامها فى سكره . كأنه شبح مخيف طلع عليها بغتة .

ولكنها عادت وعللت نفسها بأن هذا الذى تراه طارئاً من أثر انغماسه فى موبقات الحفل ومنكراتها . ولن يلبث أن يعود إلى ما كان قد عاهدها عليه من عدم شرب الخمر — ونامت مستسلمة .

بيد أن « محسنا » تبدل بعد تلك الليلة تبدلا ملحوظاً . وأصبح كثير الخروج بمفرده ، وطالت سهراته الخارجية . وكثر شربه للخمر . وتغيرت معاملته لزوجه الحبيبة وراح يختلق لها الأعذار الكاذبة؛ ولا يطيع لها أمراً .

ومضى أسبوع بعد تلك الحفل المشئومة « ومحسن » كما هو . وزوجه ترى ذلك ولا تتكلم — لعله يرجع من نفسه . أو يثوب إلى رشدة .

وفى نهاية هذا الأسبوع رأت « زينات هانم » أن تزور ابنتها فى منزلها — فما جاء المساء حتى كانت هى « وسوزان » تجلسان مع « إصلاح » فى الردهة الكبرى التى تتوسط حجرات الطابق الأعلى .

وكان (محسن) خارج المنزل وقت حضورها .

ولاتسل عن مقدار القلق والوجوم الذى استولى على (زينات هانم) حينما عرفت أنه فى الخارج بدون زوجه .

على أن هذا الوجوم لم يكن لعدم خروج ابنتها معه فقد كانت تعتقد بأنها هى التى ترغب ذلك . ولكنها كانت قد تذكرت فى تلك اللحظة (والد محسن) والأوقات التى كان يقضيها معها تاركا زوجه وحيدة . وخشيت أن يكون الابن مثل أبيه .

لكن أنى (لإصلاح) أن تعرف ذلك السر أو تفطن إلى قصد والدتها وقد رأتها على تلك الحال .

وتحكم العقل — فخشيت من إرغام أمها إياها على مجاراته . وأشفقت من أن تكون سبباً فى تعكير صفوها وانشغالها — وشر ما كانت تخشاه ازدياد مرض والدها لو علم بشىء عن سوء معيشتها الجديدة .

وكانت لحظه مريرة تلك التى مرت « بإصلاح » قبل أن تجيب على سؤال من والدتها عنه .

على أنها ما لبثت أن تعمدت إخلق جو من المرح والسرور أمامهما كى تبعد ما عساه أن يكون فى نفسيهما — وراحت تبرر خروجه بما كان له أكبر الأثر فى تهدئة والدتها وإزالة ما بها من شكوك .

أما « سوازن » فلم يكن يبدو على وجهها أثر لتصديقها . ويظهر أنها كانت هى الأخرى تخشى تعكير صفو والدتها — فتصنعت الاقتناع وغيرت الحديث عن « محسن » وشمل مجلسهن السرور .

وبينما كن فى الحديث والضحك إذا بجرس « التليفون » ينبعث من

حجرة النوم المجاورة . وإذا بالخادم تستدعى « زينات هانم » (للمكالمة)

وما انفردت (سوزان) بأختها ، حتى تعمدت إعادة السؤال عن (محسن) وعن سبب خروجه بدونها كعادته ـ ولما لم تظفر منها بما يقنعها راحت تنحى باللائمة عليها وتعيب تصرفاتها — وما لبثت أن قالت :

— إسمعى يا اصلاح — ألم أحذرك بعد زواجك من الاستمرار فى ذلك الشذوذ الذى أصبحت عليه ؟ وقلت لك أن أكثر رجال هذا العصر لا يقدرون أمثالك ؟ وزوجك واحد منهم .

— فنظرت إليها إصلاح فى شىء من عدم الاكتراث وقالت :

ـ ولكننى سعيدة بهذا الذى أصبحت عليه . وحسبى تقدير ربى الذى أعمل من أجله .

فأسرعت « سوزان » قائلة فى شبه نصيحة !

— سعيده ؟ يالك من بلهاء ـ إنك بهذه السعادة ستخسرين زوجك وسوف لاتلومين إلا نفسك . فكم من زوجة يخونها زوجها فى الخارج بسبب تركها إياه ينعم وحده بالمسرات والملاهى . وكم مثلك أهملن أزواجهن مع ماكان فى قلوبهم لهن من حب ، وما هن عليه من جمال لا لشىء . إلا لأنهن كن متمسكات بالعادات الرجعية ، والآراء المخالفة لميولهم العصرية .

فأثرت هذه الكلمات فى نفس « إصلاح » واضطرب منها فؤادها ولكنها استطاعت اخفاء مابها وتمتمت فى آهة خافته .

— إن الله وحده يا أختاه هو الكفيل بهؤلاء وهؤلاء .

ثم ساد الصمت بينهما فقد قطع حديثهما رجوع والدتهما تستأذن

فى سرعة العودة ـ بسبب انتظار بعض أكابر المهتمين بشئون جمعيتها فى القصر .

ولم تمض فترة وجيزة بعد خروجهما . حتى دخلت إصلاح حجرتها وألقت بجسمها على الأريكة الكبيرة « الديفان » الموضوعة بالقرب من سريرها . وراحت تعيد ما سمعته من أقوال أختها . فى شأن زوجها . وتردد نصحها لها بالخروج معه متسائلة فى حيرة :

ـــ لم هذه النصائح ؟ أتكون صادرة عن أساس ؟ لابد أن تكون قد رأت منه فى الحفل الماضية . مادعاها إلى ذاك النصح والتلميح .

ووسوس الشيطان . . فتملكتها الهواجس وأحاطتها الأوهام .

ثم تمادت فى تصوراتها . فتمثلت لها صورة عكرت عليها ليلتها .

صورة رأت فيها زوجها وكأنه يعاشر امرأة غيرها . وحدثها قلبها بأنه يفضلها عليها . وأنها السبب فيما وصل إليه من السهر فى الخارج .

وهنا بكت عينا تلك الزهرة الندية . وتساقطت عبراتها على وجنتيها وأخذ بكاؤها يزداد كلما زاد تفكيرها فى الماضى السعيد . والشقاء المقبل .

ـــ فيالها من ليلة ليلاء ! !

obeikandi.com

الليل سكون . والنجوم ساطعة . وكم فى الليل من عجائب ومصائب وأفراح وأتراح . وكم فيه من عيون ساهدة وعيون حالمة .

وهذه « إصلاح » بين السهاد ، لما تزل قلقة تستعيد ما سمعته من نصائح أختها . ويزيد الشيطان فى آلامها . ثم تستعرض أطياف حياتها طوال الأشهر الست التى مضت على زواجها وما كانت تنعم به من حب زوجها ووفائه — ثم تسبح فى أفكارها وتغوص فى همومها وظلام مستقبلها .

ولو أنها المؤمنة التقية التى ترضى بكل شىء ؛ إلا أنها لم تكن حتى منتصف هذه الليلة تشعر بشىء يرضيها .

وأخيراً مالت فى فتور إلى ظهر « الديفان » وانصرفت إلى خواطرها تفكر فيما أحدثته الأقدار فى حياتها العجيبة — منذ كانت طالبة فى مدرسة (الليردى دييه) وهى تحس نفسها تتفتح للحياة . وترى الدنيا كأنها حلم جميل — فأخذت صور الماضى تتتابع أمام عينيها سراعا .

— لقد كانت حتى السنة النهائية منها تخبط فى ظلمات الضلال بعيدة عن نور الهداية . ولكم ذاقت الحب والغيرة . واندمجت مع أمها وإخوتها وسط الملاهى والملاذ — وتمتعت بكل ما يمكن أن يتمتع به كل محب للحياة ولذاتها ... فماذا وجدت بعد ذلك كله ؟

— إنها لم تجد فى الحب إلا ألما وانشغالا . وفى اللهو إلا خداعا ؛ وفى اللذات إلا سرابا وحلما . ولم تحس طعم السعادة وهدوء الضمير إلا بعد أن انقشع ذلك الحلم — واستيقظ عقلها — وهداها إلى طريق الخير — وتغلب على هواها .

تذكر هذا فتشعر بالهدوء ويغلبها الاطمئنان — إذ ترى عظم الفرق بين ما كانت فيه وما آلت إليه .

— إنها لتفضل الآن الحرمان من هذه الملاذ الزائلة ، في سبيل ما تأمله من النعيم الدائم في الآخرة — وتستعذب شقاء الحياة الزوجية . عن مر العذاب الذي تسببه المعاصي . لو انقادت لأهواء زوجها ونفذت رغباته .

لكنها ما تكاد تذكر زوجها حتى يعاودها الشيطان — يوسوس في صدرها عنه . ويصور لها أعماله في أبشع صورة . فتحس بشعور غامض يسري في جسدها — وبالغيظ يستحوذ على مشاعرها — ثم تنفجر عيناها بالدمع ويعتريها الهم والجزع .

— ألا لعنة الله على إبليس وجنوده « إنه لا يعرف اليأس مع أبناء آدم » أجمعين .

— لقد عرف هذا العدو الماكر . أن معصية الله كما تأتي من اتباع الشهوات في السراء — تكون كذلك من السخط وعدم الصبر على الضراء . لذا حام حولها تلك الليلة وأخذ يوسوس إليها بعد خروج أمها وأختها — حتى جعلها تسخط على حظها الذي أوقعها في هذا الزواج الذي كانت لا تودّه — وتبكي سوء حظها وخيبة آمالها .

لكن رحمة الله اقتضت أن يكون سلطان ذلك اللعين قوياً في حزبه ضعيفاً أمام قوة إيمان المؤمنين وعقولهم .

(إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) .

فلم يمض كثير على هذا السخط؛ وذاك البكاء ؛ حتى (استيقظ عقلها) وسمعت صوته يرشدها . كما سبق أن أرشدها أول تدينها إلى الانتباه لأعمال والدها الدينية ووجوب العمل بها ..

— ترى ماذا قال هذه المرة ؟

— لقد سمعته الليلة يعرفها بأن الله لا يترك عباده المؤمنين دون ابتلاء بأنواع المصائب . ودون اختبار لقوة إيمانهم وتوكلهم . وينبهها إلى أغراض الشيطان وكيده . ويذكرها بقوله تعالى .

(أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) .

ثم دعاها لأن تكون تلك المؤمنة الصابرة الناجحة فى اختبار ربها وسرعان مالبت النداء وكفت عن البكاء — ثم دبت فى قلبها حرارة إيمان قوى. محت ما كان يقلقها من الظنون والأفكار — وأمست مستغفرة تائبة .

وما لبثت أن قامت وأدت (صلاة العشاء) ثم تناولت عشاءها وذهبت إلى سريرها راضية بما يأتى به القدر .

ولقد حدث قبل أن يداعب الكرى أجفانها أن عاودها ذكرى العهد الذى كانت قد قطعته فى بدء حياتها الزوجية — بأن تكون (لربها . وزوجها . والناس) .

وحينئذ خطر ببالها أن تزيد فى أعمال البر بالناس ونفعهم .

وسرعان ما عزمت على أن تفتح منزلها كل أسبوع للسيدات كى يستمعن إلى إرشادات دينية من (أستاذها الكبير) .

وهكذا رسمت لنفسها تلك الليلة نوعاً من الحياة يلهيها عن التفكير في مساوئ زوجها، ويزيدها تقرباً إلى الله .

وما كادت تنتهي من عزمها حتى عاد زوجها بأعذاره الكاذبة وخداعه . وقد انتصف الليل أو كاد .

ثم أخذت الأيام تمر وتتابع حتى مضى أكثر الشتاء . و (محسن) كما هو سهر . وخداع . وأكاذيب .

أما زوجه فكانت طوال تلك الأشهر تبدو سعيدة أمام أسرتها وجميع الناس . ولا يعلم سوى الله وحده ما هي فيه من شقاء ، وما تتحمله من صبر وألم .

وكانت كلما همت بالشكوى إلى والديها ، أو برفع أمره إلى من بيدهم ردعه — كما تفعل غيرها في مثل هذه الظروف — عدلت وأبعدت ذلك . إذ كانت لا ترى أمامها سوى الله في السراء والضراء . وكانت لا تريد أن تشرك بربها أحداً في ردعه وعقابه .

بيد أن هذا التوكل ما كان ليمنعها من الوقوف بمفردها أمام زوجها المستهتر — أو ليجعلها تصمت تجاه أعماله المنكرة . بل كانت لا تفتر عن تقويم ما أعوج منه . ولا تغفل عن محاولة إصلاحه بشتى الوسائل .

فحينا كانت ترده بالنصح والارشاد . وحينا باللوم والعتاب . وأحيانا بتنبيهه إلى عاقبة الاندفاع في المعاصي .

لكنها ما كانت تجد من وراء ذلك فائدة في إصلاحه أو إرجاعه عن غيه . . بل كثيرا ما كان ينقلب الموقف بينهما — فيعيب فيها تمسكها بما كان يعتقده عيباً في هذا العصر .

وهكذا أصبحت (إصلاح) ترى من زوجها مثل ما كانت تراه من أمها وأختها ومعارفهن .

ـ فماذا تعمل تلك المجاهدة التقية أمام هذه القوة الشيطانية ؟ وماذا تستطيع ؟

ـ لا شيء إلا العزم على التمسك بأهداب الصبر ، والاعتماد على الله وحده .

(وكفى بالله ولياً . وكفى بالله نصيرا)

obeikandl.com

مضت عدة شهور على علاقة (محسن بسهام) كثرت فيها هدايا المجوهرات والملابس الفاخرة . وتعددت رحلات البذخ . وحفلات اللهو حتى بدد (محسن) جميع ما كان يحصل عليه من إيراد أملاكه . ورهن ما ورثه عن أمه . وما كان قد أخذه من جده ـ كل ذلك فى سبيل أطماع (خليلته) التى لا ينقطع لها مطلب ، ولا يكفيها الكثير .

واستمر فى تلبية طلباتها والإنفاق على ملذاتها . إلى أن شعر يوما بعاقبة ذاك الإسراف ـ وما هو مقبل عليه من الأفلاس .

وهذا يوم أن جاء إليه إعلان بالحجز على أملاكه المرتهنة . إذا لم يسدد ديونه فى مدى معين .

ولاشك أن زوجه لم تكن تعلم شيئاً عن أمر هذه الديون ـ أو تخطر لها على بال . فقد كان لها مرتبه الشهرى ـ وعليها تدبير المنزل ؛ فى حين كان (محسن) خمس ذلك المرتب (لنفقاته الشهرية) أما أموال أملاكه فتدخر ويعمل حسابها نهاية كل عام .

هكذا اتفقا فى بدء حياتهما الزوجية .

وهكذا استمر (محسن) لا ينقص شيئاً من راتب المنزل ، حتى بعد الاختلاف الذى وقع بينه وبين زوجه . مخافة أن ينكشف أمره .

وكان من عادة (محسن) مع (سهام) ألا يؤخر لها طلباً مهما عظم ثمنه . وبلغت قيمته ـ وظل هذا حاله . حتى جاء اليوم الذى اضطر فيه إلى ذلك .

كان هذا فى ليلة من لياليهما السعيدة . وكان يقضى السهرة فى منزلهما (إذ أصبح لا يجد ما يكفى لسهراته معها فى الخارج) .

وفى تلك الليلة نوهت (سهام) برغبتها فى معطف من الفراء الثمين كانت قد رأته فى إحدى (محال الأزياء الكبرى) يقدر ثمنه بأكثر من مائتى جنيه .

ولم يكن هذا الطلب منها عن احتياج لهذا (المعطف) فلديها غيره ، ولكنها كانت قد شعرت بإمساكه عن البذخ فى الأيام الأخيرة وباقلاله من الهدايا ـ ورحلات اللهو .

ولعلها ظنته قد مل عشرتها ـ أو أراد التخلص منها ـ فنوهت بذلك لتعرف حقيقة أمره . .

وطبعا كان هذا الطلب هيناً ميسوراً لو لم يكن قد وصل إلى ذلك الإفلاس الذى وقع فيه .

أما الآن ـ فمن أين له إجابة هذا الطلب ؟

وتكالبت عليه الهموم ، فاكفهر وجهه ؛ واضطربت حواسه ؛ وحار فى أمره ـ وشد ما آلمه أن يرفض لها طلباً .

ومضت لحظة مريرة حاول فيها إخفاء ما فى نفسه . ثم وعدها بتنفيذ هذا الطلب قريبا .

ولاحظت سهام كل ما بدا على وجهه من حيرة ؛ وما حاول إخفائه من اضطراب ـ فظنت هذا عن تبرم بمطلبها . وخالت ذاك الوعد مراوغة منه وتملصا .

وعندئذ زادت شكوكها فيه ؛ وانمحت ثقتها به . لكنها أفلحت فى إخفاء ما فى نفسها . وأظهرت تصديقه . وانتظرت تنفيذ وعده .

ومضى يوم بعد تلك الليلة قضاه (محسن) بين موائد الميسر دون جدوى . وأقبل يوم ـ وهو كما هو ـ لا يملك ثمن المعطف ؛ ولا يطاوعه قلبه

على عدم الذهاب إليها . . ثم كان يوم أسود من الليل ، ذلك الذى ذهب فيه إليها معتذراً بعدم إمكانه شراء (المعطف) شارحا لها ما وقع فيه من الحجز والإفلاس .

ويالها من لحظة رهيبة تلك التى مرت (بسهام) وهى تستمع إلى أقواله التى خالتها تخفى وراءها كذبا وتضليلا .

فما انتهى من اعتذاره وأسفه ـ حتى انقبضت نفسها ؛ واضطرب فؤادها وتخيلت ما تخيلت من أوهام المرأة (العاتية)

ثم دبت فى نفسها عوامل الظنون ـ خيل إليها أنه يكذب عليها ، وأنه قد مل عشرتها ـ ويزعم ذلك للتخلص منها .

لكن من هو « محسن » هذا الذى يمكنه أن يتخلص من « سهام » بهذه السهولة ؟ أو يخدعها ويغرر بها . وهى التى طالما كشفت كثيراً من أكاذيب الرجال وخيانتهم ـ ولم يفلت من انتقامها كاذب أو مخادع .

وهنا يخطر ببالها خاطر لم تستطع دفعه . ولم تقو على عدم تنفيذه . إذ ترى نفسها مدفوعة إلى عمل تجربة قاسية ـ تكشف بها عن مقدار كذبه وخداعه ... والويل له إذا كان يبطن غير ما يظهر .

وسرعان ما تخفى ما استولى عليها من شعور الغدر ؛ وتلبس ثوب الخداع ، وتتصنع الرثاء لحاله ـ والشفقة به . فاذا ما أفلحت فى ذلك راحت تهون عليه أمر الحجز ـ وتدعوه إلى عدم التفكير فيه . وتعلله بالآمال فى عدم دوام هذا الحال .

فما يكاد يسمع ذلك منها حتى يثوب إلى نفسه ، ويهدأ قلبه ويداخله شعور بأن (خليلته) تقصد من وراء هذه الأقوال . رفع الحجز

عنه بما لها من نفوذ عند أولى الشأن « بمصرف الرهونات » من معارفها وأصدقائها .

وعلى هذا الزعم الباطل ـ يقضى السهرة أكثر ما يكون إعجابا بها وتقديراً لعواطفها ؛ دون أن يفطن إلى أنها تضمر له أمراً . وتعد له خفا .

ولم تمض السهرة حتى كانت قد استطاعت بدهائها أن تتفق معه على نزهة خارج المنزل . على أن يوافيها غداً عند الأصيل ـ فى مكان معين (بحديقة الأندلس) .

ثم يودعها وهو ممتلىء أملا وسروراً ـ وهى ساهمة شاردة ـ قد امتلأ قلبها بسوء الظن ـ وأوحى إليها بالأنتقام .

ولو أنه عاد بعد خروجه . لرأى تلك المرأة التى ظن أنها سترفع الحجز عنه ـ تدبر له مع فتاة جميلة من اتباعها أمراً . لو لم ينج منه . لوقع فى حجز مرير ، ودين لا سداد له ... « لكنه لم يعد » .

وما انتهت « سهام » من اطلاع فتاتها على خفايا نفسها نحو (محسن) حتى كلفتها بالذهاب غداً بدلا عنها . إلى ذلك المكان المعين . لتطلعها على ما سيكون من أمره معها . ثم زودتها بكافة ما تريد .

***

أصبح صباح اليوم الموعود . ثم أمسى ليله ـ وهاهى (سهام) فى منزلها ترقب وتنتظر عودة الخادم بفارغ الصبر .

فما وافت التاسعة مساء ـ حتى أقبلت صنيعتها . وكانت كاملة زينة الوجه والشعر .. ترتدى ثوبا أنيقاً ، وعلى كتفيها نوع من الفراء الثمين بدت فيه كحسناء «ارستقراطية» . تغرى الناظر . وتخدع المفتون .

وما رأت سيدتها حتى صاحت فى تملق :

— سيدتى . . . لقد وقع ما كنت تظنين — وحق عقاب ذلك الخائن المخادع .

فخفق قلب (سهام) وهى وإن كانت تتوقع الغدر — منه إلا أنها كانت ترى فى حصوله — جرحاً لكرامتها ، واذلالا لكبريائها — ثم أخفت ما بها وتساءلت .

— أجاء فى الميعاد المحدد ؟

— لقد كان فى الحديقة قبل الميعاد . وكان يبدو عليه أنه على موعد من كثرة ما كان ينظر إلى ساعة يده . لكنه ما كاد يرانى أجلس فى نفس المكان — حتى راح يوجه إلى لفتات الإعجاب — ويختلس النظرات . وما كدت أدعوه للجلوس . حتى لبى فى سرور ظاهر من حركاته ، وعبارات الشكر الرقيقة ... ولم يمض كثير على جلوسه بجانبى — حتى كان قد نسى من كان ينتظرها — وشغل بمسامرتى — ثم مرت بنا فترة طويلة عبر فيها عن إعجابه بى . ودعانى فى أثنائها إلى قضاء سهرة فى أحد المساهر . . دون أن يفكر فى سيدتى أو يذكرها أمامى .

فعز على « سهام » أن تسمع هذا — وظنت أن الفتاة تبالغ فيما تقول ولاحظت الفتاة ما يخالج نفس سيدتها — فراحت تثبت صدق أقوالها بما أوتيت من براهين وأدلة .

وما لبثت أن فتحت حقيبة يدها وأخرجت منها « زهرة خزفية » ثمينة بنفسجية اللون . على أنها هدية منه ورمز لحبه .

فما كادت تقع عينا «سهام» على تلك الزهرة — حتى اضطربت واستحوذ

عليها شعور الحنق ـ والرغبة فى الانتقام ـ فقد كانت تلك (زهر البانسية) التى أهدتها إليه أول يوم تلاقيهما فى (الحفلة الخيرية) . . .

ثم استبد بها الغيظ فهتفت فى نفسها بنبرات الحقد والأسى .

ـ آه . . لم أكن مخدوعة ـ إنه يدعو الفتاة إلى سهرة فى الخارج وقد كان يدعى الإفلاس لى ـ والفقر أمامى ـ ثم هاهو يهديها زهرتى !! لاشك أنه كان يدعى الفقر ليتخلص منى ـ ويحطم كبريائى . . . الويل له من « سهام » . . . الويل له منى .

ثم التفتت إلى الفتاة وقالت متسائلة :

ـ والآن . . علام اتفقتما ؟ ؟

ـ كأمر مولاتى سيكون منزلى الخاص مسرحاً لتمثيل دور الانتقام فبعد أن لمست خيانته لسيدتى ، وتكشف لى أنه يظهر لها غير ما يبطن ، رفضت السهرة التى كان يرجوها الليلة فى الخارج ـ ودعوته غداً لقضاء السهرة فى منزلى . . . فلا تخشى يا سيدتى شيئاً ، فلم أزل خادمتك المخلصة الأمينة ـ ودعى هذا الأمر لى ـ فأنا أعرف ماذا تريدين ـ وأنا الكفيلة غدا بالإنتقام من ذلك الكاذب المخادع .

ثم رسمت مع سيدتها خطة الانتقام وأحكمتا التدبير . . .

* * *

هذه شمس الغد قد أشرقت .

وتصادف أن أشرقت مع أول الشهر ـ فكان سرور محسن لايعادله سرور . . وكيف لايضحى مسروراً وقد دخل جيبه اليوم مبلغ لايستهان به . مبلغ لا يقل عن عشرين جنيها . وهومقدار الجزء المخصص له وحده

كل شهر من راتبه. وسوف يظهر اليوم بمظهر الثراء والبذخ، أمام (خليلته الجديدة) — فيا لها من طالع سعد، وفأل حسن — لقد انزاح عنه غراب الشؤم التي سببت افلاسه، وأقبل الطائر الميمون بالخير والرخاء — وها هي (فتاة الحديقة) مطلع يمن وتيسير.

وخرج من تأملاته — ودخل في الموازنة بينها وبين سهام. فصاح في نفسه:

— لا ... إنه ليس هناك ثمة وجه شبه. بين تلك الأنانية التي أفلستني بكثرة مطالبها، وبين هذه الحسناء التي رفضت السهرة في الخارج. ودعتني الى منزلها الليلة — حتى لا أتكلف الكثير من النفقات .. (ورب صدفة خير من ميعاد)

وما كاد ينتهي من تلك الخواطر — حتى راح يتهيأ للذهاب إلى موعد (خليلته الجديدة) — فارتدى حلة أنيقة، وطوى معطفه ووضعه على يده اليسرى، وأمسك بيده اليمنى قفازين من الجلد الفاخر. وغادر المنزل متوجلا إذ كان يخشى صعوبة الوصول بالسيارة إلى منزل (تلك الخليلة) الذي يقع في منعطف ضيق ... (وعين الحب عمياء)

وعلى ظلام هذا العمى — أخذ يتحسس طريقه، وراح يتخبط في مشيه حتى وقع في الفخ المعد له.

والآن دعنا نترك محسنا، في نحسه .. ونتنظر حتى تعود الخادم الى سيدتها حسب الخطة المرسومة بينهما.

* * *

لا تقلق . . . فنحن الآن عند منتصف نفس الليلة. وقد أطفئت كل

الأنوار فى منزل سهام ؟ الا فى حجرة واحدة ـ كانت فيها (سهام وخادمتها) تسرد على مسامعها ما كان من شأنها مع محسن هذه الليلة وما جرى له على يديها . .

قالت الخادم . فى فرح وتملق . . .

ــ لقد انتهى كل شيء ـ ونجحت خطة سيدتى وأفلح تدبيرها .

ــ ومحسن ذلك الكاذب المخادع ؟ أين هو الآن ؟

ــ انه سجين الليلة

ــ لله أنت يا فتاة ، وهل أتممت بقية الخطة ؟

ــ لقد قمت بجميع ارشاداتك بكل دقة ، فبعد أن جاء محسن ، إلى منزلى ، وأرسلت الخادم إليك . . . لم يطل بنا السمر حتى داهمنا البوليس ولسوء حظه ... كان يحوطنى بين ذراعيه ، بقصد حمايتى . . . أثر صرخة فزع وبكاء . اصطنعتهما عند ماشعرت بهجوم البوليس ـ ولما كان فى حالة ذهول من أثر تلك المفاجأة ـ فانه لم يشعر بسوارى الذهبي الذى دسسته فى جيبه ؛ ولم يتمكن من تبرئة نفسه . أمام الجنود الذين رأوا بأنفسهم ما أثبت شهادة الخادم . وأقنعهم بصدق ما نسبته إليه من تهم . . . ثم توجهنا الى البوليس .

وكانت سهام تصغى إليها فى اهتمام وقد علا وجهها سرور الإعجاب بجرأة الفتاة ــ وما لبثت أن قالت فى تشف وحقد :

ــ يالك من داهية رشيدة . . . ويا له من غر أحمق . . . ثم ماذا بعد ذلك ؟ ألم يظهر عليك أى اضطراب هناك ؟

ــ كلا . . . بل كنت أملأ مركز البريئة الصادقة . . . فى حين

كان (محسن) فى موقف المجرم المرتبك . . . وبالأخص عند ما أخرج المحقق من جيب سترته السوار الذهبي ، وسلمه إلى . . وهذا ما ساعدنى على أن أطالب بمحاكمته أمام ساحة العدل .

وأخيراً أفرج عنى ، وبقى هو فى السجن الى يوم المحاكمة

ثم مالت عليها وأخبرتها بأن محسناً قد ترك فى بيتها (معطفه وقفازه) وبأنها أنكرتهما حين نوه عنهما .

فما كادت سهام تسمع ذلك حتى أحست شعور النصر ، وتملكها غرور المرأة الغادرة وسلطانها ، وراحت تضحك هى وفتاتها فى تشف واستهزاء وكان قد مضى أكثر الليل فاستلقت على سريرها وقالت فى حنق .

ـــ لقد ذهب مع الشيطان الى حيث . . . فلم أعد اهتم بشأنه بعد أن انتقمت من خداعه إياى . . . أما أنت فتلك المخلفات لك وحدك ... وسأزيد أجرك . . . وسوف يتضاعف لك الاجر بعد محاكمته .

فبلغ الفرح بالفتاة أقصاه ؛ وهمهمت بدعاء طويل لسيدتها ـ وبالنصر على محسن يوم الجلسة القادمة

وخرجت من الحجرة .

حينما تنفس صباح اليوم التالى لتلك الليلة التى بات « محسن » فيها داخل السجن ـ استيقظت « اصلاح » من نومها قبل طلوع الشمس بقليل فلما لم تجد زوجها قد أتى من الخارج . ظنت أن الوقت مبكر.

ولكنها ما كادت تتأكد من مبيته خارج المنزل ـ حتى هبت جالسة فى فراشها ـ وقد شرد لبها ـ ودب فى نفسها الهم والقلق ـ وتزاحمت عليها الأوهام والظنون .

ثم يضيق صدرها وترهقها الوحدة . فتصمم على الاتصال بأسرتها لتخبرهم بهذا النبأ .

ولكنها ماتكاد تمسك (بسماعة التليفون) حتى يغلبها الاعتماد على الله فتعيدها مكانها. مخافةأن تقضى على والدها الذى ساءت صحته . وزاد مرضه ثم تعود وتجلس فى سريرها مطرقة ـ تستعيد بالذكرى الحال التى كان عليها زوجها أمس قبل خروجه . لعلها تهتدى إلى سبب لهذا المبيت .

ـ انها لتذكر ملامح وجهه حينما كانت نازلة الى حجرة الاستقبال ومعها « يسرية » ليستقبلا السيدات اللاتى جئن لسماع درس الدين الاسبوعى ـ إنه لم يكن يبدو على قسمات وجهه شىء غير عادى .

ـ ثم إن صوته الهادىء وهو يسلمنى راتب المنزل الشهرى ـ لايبعث الا على الاطمئنان والسلام ـ وإن كان قد أخذ فى جيبه جميع مبلغه الخاص به طوال الشهر ـ فكثيراً ما يفعل ذلك .

وأخيراً رفعت رأسها ـ وقد هدأت نفسها هدوء العاجز المستسلم للقضاء.

وأسرعت لتسابق بصلاتها طلوع الشمس .

وكان من عاداتها أخذ حمام كل صباح

فما انتهت منه حتى عادت إلى سريرها ـ وجلست تقرأ ما اعتادت أن تقرأه كل يوم من أحكام الدين والقرآن .

وقبل أن تنتهى من القراءة ـ أقبلت « داده حليمه » ـ كبيرة الخدم ـ وقد كانت مربيتها منذ طفولتها ثم لازمتها بعد زواجها . فكانت لها بمثابة أم حنون وحيتها قائلة :

ـــ طاب صباح سيدتى .

ـــ طاب صباحك يا أماه .

وجلست لتؤنسها وتزيل وحشتها

وكانت مثلها فى الإيمان والتقوى ـ فاشتركت معها فى سماع القرآن ـ وكانت قد حضرت درس أمس الدينى ، وفهمت من « الاستاذ » معنى الآية الكريمة .

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » .

فلم تشر إليها عن زوجها بما يزيد فى آلامها من الريبة والظنون ـ ولم تتكلم بما يعد غيبة ونميمة فى حقه . بل صرفت عنها كثيراً من الأفكار ولم تتركها حتى تناولت شيئاً من طعام الإفطار .

وفى تلك الفترة كان الهرج قد بدأ بين باقى الخادمات . بخصوص مبيت سيدهن خارج البيت .

ثم اجتمعت « فاطمة الطاهية بنفسه ومبروكه وأم على » والتفعن

بعضهن حول بعض – وفى أيديهن المكانس وأدوات التنظيف . وراحت كل منهن تتكلم بما توحيه إليها نفسها – فمن قائلة – لا شك أنه تزوج – ومن مشفقة – لهف نفسى على سيدتى الصابرة – ومن متشفية – لا بدله من يوم فالله لا يترك ظالما ولا مظلوما – ومن موافقة – ومن مخالفة .

وأخيراً واللجاج بينهن قد بلغ منتهاه – أقبلت خادمة خمرية اللون ممتلئة الجسم – من خدم « أسرة سيدتهن » تستأذن فى مقابلة « سيدتها إصلاح » ... فصمتن عند رؤيتها – وانفرط عقدهن .

دخلت الخادمة الحجرة التى بها « إصلاح » فى حال يرثى لها – وجه أصفر ، وشفاه باهتة ، وعينان محمرتان .

وما كادت ترى « إصلاح » حتى انحنت عليها . تقبل يدها وقدمها . ثم صاحت بين البكاء والنحيب .

— سيدتى ليس لى غيرك فى الوجود ينقذنى مما أنا فيه .

فنظرت إليها « إصلاح » فى دهشة قائلة :

— ما وراءك يا « خضره » إهدئى أولا – ثم قولى ما تشائين .

— بارك الله فيك يا سيدتى. فأنت ملجأ الضعفاء وناصرة المظلومين .

فزادت دهشتها ونظرت إليها متسائلة فى قلق – واستطردت الفتاة قائلة :

— إغفرى لى ياسيدتى تلك الجرأة فإن مصيبتى كبيرة ، وعارى عظيم وأقسم أنه ليس لى ذنب فى ذلك – فهو الذى اغتصبنى . واعتدى على شرفى. والآن جئت إليك محتمية بك . بعد أن طردتنى سيدتى « زينات هانم » مجردة من النقود والملابس .

— ثم جعلت تهذى وتتمتم .

— آه ياربى – الموت ولا الفضيحة . . كيف أعيش يا إلهى .

obeikandi.com

وأين أذهب ـ وليس لى أحد فى الوجود ـ وإلى من ألجأ إذا طردتنى سيدتى « إصلاح هانم »

وأجهشت بالبكاء ثانية .

وكانت « إصلاح » فى حيرة من أمر تلك الفتاة الغامضة ... فلما رأت بكاءها ـ زادت حيرتها وبدا عليها القلق والذهول ـ ثم أخذتها الشفقة بها والرثاء لحالها فاقتربت منها مهدئة وقالت :

ـ لكنك « يا خضره » لم تخبرينى . من هو ذلك المجرم الذى اعتدى عليك ؟

ـ آه يا سيدتى . . . إنه سى . . . سيد ... سيدى « سامى بك » هو والد ذلك الطفل الذى يتحرك فى أحشائى .

فما كادت « إصلاح » تسمع ذلك حتى دارت الدنيا فى عينيها . واطبقت عليها الهموم والمآسى ـ ثم صاحت فى استنكار :

ـ أخى ؟ . . أخى « سامى » ؟ هذا فظيع . . وهل أنت واثقة من ذلك « ياخضرة » ؟ . . إياك أن تقولى زوراً وبهتانا .

ـ أقسم لك ياسيدتى أن هذه هي الحقيقة . لكنه أنكر عندما طلبت منه سيدتى « زينات هانم » ذلك ثم طردتنى ـ وحذرتنى من أن ترانى فى أى مكان ـ فجئت لك والأمر إليك .

وتمتمت فى بكاء .

ـ بارك الله فيك ياسيدى « حسين بك » فوالله ياسيدتي قبل زواجه مادخل حجرتى يوما . وما كلمنى بريبة قط

وكانت إصلاح تستمع إليها فى تأثر وقد استحوذ عليها شعور الشفقة

ونداء الإغاثة ـ ماذا تفعلة لتلك البائسة؟ وأين تأويها لتستعارها ـ وأطرقت مفكرة ـ وساد الصمت بينهما ـ ثم رفعت رأسها وهبت واقفة كمن اهتدت الى ضالتها .

وما هى إلا فترة وجيزة حتى كانت قد أمرت السائق بإعداد السيارة وأخذت الخادمة ، وتوجهت بها إلى مدينه « السعادة »

أتذكر هذه المدينة ؟

ـ لعلك لم تنس تلك الضيعة القريبة من القاهرة . التى كان « شاكر باشا » قدتبرع بها لجمعية (المسلمات المجاهدات) بناء على رغبة ابنته « إصلاح » لتؤسس عليها هذه المدينة ... وأظنك فى شوق لمعرفة ما كان من أمرها بعد أن قامت سيدات الجمعية الموسرات ـ بتأسيسها من مالهن وحدهن .

ـ لقد أصبحت تلك المدينة ملجأ المحتاجين وبيت من لا بيت لهم ولا معين .

* * *

أنظر هذه هي « مدينة السعادة »

وها هى سيارة « إصلاح » قد أقبلت .

فما أن وقفت ببابها حتى دخلت «خضرة» قسم اللاجئات مطرقة صامتة.

فما رأينها حتى أقبلن عليها يسألنها عن حالتها وسبب مجيئها .

فتملكتها الحيرة وغمرها الخجل .

وفى بكاء ونحيب أخبرتهن بأنها فقيرة مات زوجها ـ وليس لها أحد فى الوجود .

فرق لها قلب إحداهن وانتحت بها ناحية . وراحت تطيب خاطرها وتمنيها العيش الرغيد فى هذه المدينة .

ومرت بهما فترة ـ جلجل فى أثنائها صوت المؤذن لصلاة الظهر فأسرعت الفتيات إلى المسجد .

وعند ماهمت « خضره » بالذهاب معهن استوقفتها الفتاة قائلة :

ـــ إن المستجدة لاتشترك فى شىء . حتى تقضى مدة داخل مكان منعزل تتطهر فيه من الآثام ـ وتتوب من الذنوب ـ فصلى هنا .

فما سمعت « خضره » ذلك حتى اضطربت وتخيلت السجن فى ذلك المكان ـ وظنت أن سيدتها قد أتت بها لتسجنها بإيعاز من والدتها وأخيها . ثم تمتمت خافتة :

ـــ آه ياربى . . هل جئت لأسجن . ويفتضح أمرى داخل هذا السجن ؟ وبكت عيناها

ولاحظت الفتاة اضطرابها ـ وسمعت بعض هذيانها فقالت مشدوهة :

ـــ « خضره » !! لا تزعجى . وعلام البكاء ؟ أتظنين أنه كالسجن الذى تعرفينه ؟ ذلك الذى يدخله المجرم وقد ارتكب جرماً واحداً حتى إذا خرج منه . كان أشد جرما ـ وأكثر خطراً ؟

فعاودها الهدوء . ونظرت إليها مستفهمة ـ وتابعت الفتاة قائلة :

ـــ لا تظنى ذلك يا أختاه ـ فإن هذا المكان لم يكن سوى « معهد دينى » مكتوب على بابه « الدين إصلاح وتهذيب » يتلقى فيه اللائحون . وكل من يرتكب إثما من المقيمين هنا . جميع الأحكام الدينية . والشرائع الإسلامية . فهو وإن كان يشبه السجن فى الغاية ـ إلا أن تعليم الدين فيه يحل محل الحبس ـ والعمل بشرائعه . يقوم بدل العقاب والشغل الشاق ـ لذلك لا يلبث المجرم أن يخرج منه مستغفراً تائباً ـ وقد عرف أمراً طالما

كان غافلا عنه — إذ يعرف أن بعد هذه الحياة الفانية . حياة دائمة — سعادتها العمل « بكتاب الله وسنة رسوله »

وأنا نفسي قد قضيت فية أياما — عرفت فيها طريق الخير من طريق الشر ثم أصبحت أراقب الله وحده فى جميع أقوالى وأفعالى . فلا تخافى منه — فإن فيه الهدى والفلاح — ثم تركتها قائلة :

— انتظرى هنا فسأصلى . وأعود إليك .

ووقع بصر «خضره» وهى واقفة على مدرسة ودار للتمثيل وأخرى للسينما ومصانع وحوانيت كثيرة ، ومراعى تعج بالماشية والأغنام — فلبثت حيناً ذاهلة — يشرد بها الخيال . وكأنها فى مدينة كبيرة صالحة لرفاهية السكان .

وبغتة شعرت بيد الفتاة تربت على كتفها . وقد عادت بعد الصلاة .

وفى تلك الفترة كانت « إصلاح » تتفقد أحوال المدينة . وقد سرت من قلة عدد الجرائم . ولمست فضل التهذيب والإصلاح بتعاليم الدين .

وما عادت إلى بيتها حتى أخبرتها « حليمه » بأن « محسنا » قد اتصل تلفونيا بالمنزل من مكتبه . وأنه سيأتى فى ميعاده بعد الظهر .

عاد « محسن » إلى داره مثقلا بالهموم والأفكار بعد مبيته أمس داخل السجن . وقد أفرج عنه بكفالة مالية حتى يحين ميعاد الجلسة .

وكان شبح السجن لايزال يتراقص أمام عينيه ـ فجعل يتطلع إلى جنته بعينين حالمتين ـ وعاوده الحنين إلى حوريته الجميلة .

وما كاد يراها عند دخوله حتى أقبل عليها فى شوق وتلقاها كما كان يفعل فى أيامهما السعيدة . ثم تهالك على سريره تعبا .

أما هى فقد ألقت عليـــه نظرة فتتها حزينة وتلقته بدهشة يخفيها هدوء ورزانة ـ فقد رأت على وجهه أثر الهم والأسى . وكان كمناهض من مرض أو كمن أرق الليل كله . تغلب الصفرة على وجهه ، ويظهر شىء من الحمرة فى بياض عينيه .

ومرت بهما فترة صمت شامل ـ ثم بدأ يعتذر عن مبيته فى الخارج بصوت خافت متقطع الكلمات ـ وكان قد عزم على إخفاء ماجرى له أمس ـ فاختلق لها عذراً يدور حول وفاة أحد أصدقائه الأعزاء .

ولما كان فى حال من الأعياء والجوع ، فإنها لم تعلق على ما سمعته ـ واكتفت بهذا القدر ريثما يتناول غداءه وتعود إليه حيويته .

ثم أخذتها الشفقة به ـ والرأفة بحالته فأعانتـــه على تبديل ملابس الخارج بملابس البيت .

ولاشك أن قيام هذه الزوجة النادرة بهذا العمل المثالى والظهور بذاك الشعور النبيل بعد الذى كان من أعمال زوجها ـ لما يثير عجبك ويدعو إلى دهشتك ـ ولكنك لو سألتها حينئذ عن السبب فى هذا التسامح :

ولماذا لا تعامله بما يناسب أعمـــاله ؟ أو من جنس أفعاله ؟ ــ لأجابتك ــ بأنها تفعل ذلك لأنها تعرف أن عليها واجبات ومسئوليات لابد أن تحرص على أدائها ، «ولو قصر زوجها فى واجباته» طاعة لربها الذى قال:

« يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » .

ولهذا لا تقصر إلا فيما تراه منافيا لتعاليم الدين ويغضب الله .

وما كاد (محسن) ينتهى من ارتداء (ثوبه المنزلى) حتى ذهب مع زوجته يجر قدميه إلى حجرة الطعام .

وعلى المائدة ــ أعادت (إصلاح)الحديث حول الحادث الذى سبب مبيته فى الخارج .

وكان قد بدأ يشعر ببعض النشاط ــ فجعل ينسج لها قصة مثيرة عن وفاة صديقه الوهمى وأنه كان ملازما له طوال الليل ، إلى أن دفن فى الصباح ، لعدم وجود أقارب له . حتى جاء على ذكر المعطف ، والقفاز ، والنقود التى كانت داخل المعطف ، فأخبرها أن خادم هذا الصديق قد سرق كل هذه الأشياء . أثناء اهتمامه بالمحتضر . ولم يعثر له على أثر .

وكان أسلوب قصته غاية فى الحبكة . ومثيراً للأحزان . فلم تأخذها الريبة فى أقواله بل تقدمت إليه معزية مواسية .

وهنا تراه وقد تخفف من بعض همومه بتصديق زوجه ، واستعاض بعض نشاطه بتناول الطعام ــ يقبل عليها على غير عادته فى الأشهر الأخيرة يحادثها فى شئونها الخاصة ويبدى إرتياحه لزيارتها « مدينة السعادة » .

ومن المدهش أنه لم يكتف بذلك بل راح يسألها فى اهتمام عن هذه المدينة وعن أعمالها فيها .

وما لبث أن قال مستفهما :

— لقد سمعت من قبل أن سيدات الجمعية هن اللائى فكرن بتأسيس تلك « المدينة » من مالهن وحدهن . ولكن الذى يهمنى الآن ، هو معرفة المصدر الذى تحصلن منه على المال اللازم لمعيشة اللاجئين مادمتن لا تعملن حفلات خيرية ولا تجمعن تبرعات مالية .

وكانت (إصلاح) تستمع إليه فى دهشة ممزوجة بفرح خلعه اهتمام زوجها بشئونها الدينية على غير عادته — فما صمت حتى أجابت قائلة :

— يسعدنى أن أرى منك اليوم هذا الاهتمام . ويسرنى أن أخبرك عما تريد — أجل يسرنى ذلك إذ أن مشروع هذه المدينة فى الواقع يعد جديداً فى نظمه ، وكفالة اللاجئين تعتبر غريبة فى اتجاهها — وذلك لأنها تنتحى ناحية دينية قلما تخطر ببال أحد .

وتوقفت لحظة — فلما رأت اهتمامه قد أخذ عليه مشاعره تابعت :

— فالإسلام ولو أنه فرض الإحسان وأوجبه على الغنى الموسر — إلا أنه لم يأمر الفقير بأن يستجديه — أو يتقاعد عن العمل فى انتظار ما تجود به أكف المحسنين ، والتحايل على المتبرعين بأنواع الحفلات . ومختلف المغريات — وفى ذلك قال ﷺ :

(لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه) .

هذا هو الإرشاد الحكيم . والهدى النبوى الكريم . الذى رأت سيدات (الجمعية) أن يجعلن منه دستوراً يسرن عليه فى محاربة (الفقر) واستئصال رذيلتى (الطمع والتواكل) من نفوس اللاجئين — أقول رذيلتى الطمع والتواكل دون غيرهما. لأن المرء إذا حفت بنفسه الأطماع . واستساغ

الكسل ـ دب فى قلبه الحقد والحسد . وجعلها تربة خصبة لنمو بذور كثير من المبادىء الخطرة ، والبدع الهدامة التى تنافى تعاليم الدين وخلق الإسلام . . . لهذا أنشأن بالمؤسسة الحقول والمراعى — بعد أن أسسن المبانى التى تضم بين جدرانها الوسائل اللازمة لمختلف الحرف والمهن الصناعية والتجارية والزراعية .

وكان محسن من أقوالها مدهوشا ، فمضى يرنوا إليها فى إعجاب وإصغاء على حين استطردت قائلة :

— ولما كان العمل وحده . لايكفى دون توجية حكيم وإرشاد قويم — وهذا لا يتأتى إلا إذا اقترن العمل باتباع (كتاب الله وسنة رسوله) كان اتباعهما هو دستور تلك المؤسسة ، وهدفها الأول فى الإصلاح .

ولهذا لم يمض العام حتى أثمر المجهود . وكان الكسب الحلال . ثم كان أن شعر كل فرد بأنه مسئول عن نفسه . غير معتمد إلا على ربه وعمله .

ثم ختمت حديثها بقولها :

— ولعلك فهمت الآن السبب الذى من أجله لانحتاج فى كفالة اللاجئين إلى إعانات مالية . أو إقامة حفلات بإسم الخير .

وما كادت تنتهى من حديثها حتى بدت على وجهه دلائل الإقناع — وأظهر إعجابه بمبادئهن . وأثنى على مجهودهن .

وكانا قد فرغا من الطعام فصعدا إلى حجرتهما .

ومن العجيب أنه أمضى بقية هذا اليوم مقبلا على زوجه كما كان يفعل فى أشهرها الأولى . حتى إنه لم يخرج من المنزل . ولم يفكر فى الخروج .

* * *

مشت حياة الزوجين بعد ذلك هادئة رتيبة متشابهة ، فكان من مكتبه إلى منزله — لا يخرج بعده إلا مع زوجته لعيادة والدها الذى أصبح فى أيامه الأخيرة .

وتقلب المقل — فأهمل أمر سهام — وعاد إلى الإهتمام بزوجه المحبوبة .

واستمر على هذا الحال حوالى أسبوع شعرت (إصلاح) خلاله بالسعادة الزوجية تعاودها شيئاً فشيئا . واستعاد (محسن) فيه نحته وزايله الضعف والشحوب .

وفى نهاية هذا الأسبوع جلس الزوجان بعد العشاء فى شرفة الفيلا النائية عن الجيران وكان الجو معتدلا — ونسيم الليل يهب رقيقاً معطراً — فامتد بهما السمر ، وغمرتهما نشوة من السرور — فشعرا بسعادة : تشرحها الجلسة الهادئة . ويعبر عنها الثغر الباسم .

والحق أنها كانت جلسة ممتعة رأت (إصلاح) فيها من اهتمام زوجها بها وإظهار حبه لها ، ما أعاد إليها ذكريات الأشهر السعيدة . وجعلها ترسل إليه من عينيها الساحرتين نظرة تفيض بالحب والأمل كأنها تقول — أرجو أن تدوم علينا هذه السعادة — لكنها أحست بهاتف يهتف فى نفسها — هيهات أن تدوم — فاضطربت وأخفت اضطرابها .

وفى تلك الجلسة الجميلة أفضى (محسن) إلى زوجه بعزمه على إقامة (حفلة شاى) فى الأسبوع المقبل تكريماً لأحد أصدقائه الممتازين بسبب تعيينه (سفيراً فى الخارج) وأخبرها بأنه سيحضر هذه الحفلة كثير من الوجهاء وعقيلاتهم ، وطلب إليها القيام بإعدادها وتنسيقها بما يعهده فيها من الذوق والمهارة فى مثل هذه المناسبات .

وكعادة (إصلاح) التي أصبحت ديدنها ؛ لم تشأ أن تجيبه قبل التثبت من أن هذا الطلب لا ينافي تعاليم الدين .

وسرعان ما جعلت من نفسها سائلة ، ومن عقلها مسئولا ، وراحت تسأله ويجيبها :

— حفلة خاصة بتكريم صديق زوجي . فماذا في ذلك ؟

— لا شيء فتكريم الأصدقاء واجب لزيادة الصلة ورابطة الأخوة ، وبهذا يأمر الدين .

— وماذا في إعداد الموائد الخاصة بتلك الحفلة ؟

— لا بأس بهذا أيضاً إذا كان يقصد منها إكرام الضيف فالرسول يقول : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) .

— إذاً فلا إثم ولا معصية في إطاعة زوجي فيما طلب الآن .

وما لبثت أن أومأت إليه بالقبول وتم الاتفاق .

وكان القمر قد بعد بنوره ، وأظلمت الشرفة — فقاما ودخلا حجرتهما وناما في سرور .

* * *

وتلاحقت الأيام — وكلما مر يوم اقترب ميعاد الحفلة — حتى إذا لم يبق على ميعادها سوى يومين — ذكر (محسن) زوجه بها . ولم تكن قد نسيت — فتركته لحظة — ثم عادت وقدمت إليه برنامجاً خاصاً بموائد الشاي — وبالنظام الذي وضعته .

وعلى أريكة حجرة النوم الكبيرة — جلس محسن بجوار زوجه شاكراً مسروراً .

ويالها من لحظة سارة تلك التي مرت به وهو يقرأ البرنامج .

— إنه معجب بكل ما أعدته فيه من تنسيق وإبداع .

وما أوفقها من فرصة يغتنمها ـ إنه سوف يقدم زوجه إلى أصدقائه كما يقدمون له زوجاتهم .

واطمأنت نفسه ورقص قلبه واستمر فى قراءته .

لكنه ما كاد يقرأ آخره ـــ حتى عبس وجهه . وقطب حاجبيه .

وما لبث أن مزقه ورمى به إلى الأرض وجعل يكلم نفسه ـ إذاً فهى تقصد بهذا الإعداد الرائع والحفل البديع الذى رسمته ـ أن يكون بالطابق الأول للرجال بإشرافى ! ! على أن يعمل مثله بالطابق الثانى للسيدات بإشرافها ! ! . كيف يكون ذلك ؟ ـ إنه ليتصور الآن نظرات أصدقائه العصريين وعقيلاتهم ـ إنها نظرات تشع بالسخرية والتبرم من ذلك الجو الرجعى البغيض ـ هذا مستحيل ـ ولا يمكن أن يكون .

ومرت بهما فترة صمت فهمت (إصلاح) فيها بسبب تمزيقه البرنامج : وانتهى (محسن) فيها من تصوراته : ثم أقبل عليها يحملها على ضرورة ظهورها أمام أصدقائه ومخالطتهم ولو فى هذه الحفلة فقط .

وهنا عادا إلى سابق اختلافهما ـ إذ راحت (إصلاح) تحثه على وجوب الابتعاد عن محارم الله ؛ وراح هو يسخر منها ويرغمها على مايريد ويهواه.

وأخيراً وبعد محاضرات لا فائدة منها تذكرت (إصلاح) الحديث الذى تلوذ به كلما عجزت عن إصلاح الغير :

(ائتمروا بالمعروف . وتناهوا عن المنكر . حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك نفسك) .

فصمتت واكتفت بإصرارها على مخالفته .

رأى محسن هذا الرفض. فاستحوذ عليه الغيظ ـــ وسمع إصرارها على مخالفته ، فعاوده الضيق .

وما لبث أن عزم على إقامة الحفلة بأحد (الفنادق الكبرى) .

وكانت الساعة قد أشرفت على السادسة مساء فأسرع بارتداء ملابس الخارج .

لكنه ما كاد يهم بالخروج حتى تذكر تكاليف الحفلة وما تحتاج إليه من نقود . فعاد إلى مجلسه ثانياً ولبث فترة مفكراً .

ـــ فمرت بخاطره أملاكه المرتهنة وديونه ـ ثم نقوده التى سرقت منه فى تلك الليلة المشئومة ، وأطرق حائراً .

ثم بدت الحيرة أكثر وضوحا ـ لقد كان قيام زوجه بإعداد الحفلة معناه أنها ستقوم بجميع تكاليفها من مرتب المنزل . ولو لم يتكلما فى ذلك ـ أما الآن . فمن أين له نقود إقامتها ؟ ـ واستمر حائراً . يقلب الأمر على جميع الوجوه . فلا يجد له حلا ـ فيالها من لحظة مريرة ـ ماذا يعمل ؟ وكيف يتصرف ؟ لقد ضاقت به الدنيا ، وسدت عليه السبل ، واستبد به اليأس .

وأخيراً وقد تخلى عنه الأمل . . وقع بصره على أصبع يده اليسرى فرأى (خاتمه الماسى) الثمين ـ فجعل يحملق فيه لحظة ـ ثم هب واقفاً ـ لا حل إلا فى رهنه ـ وغادر المنزل .

وما لبث أن نفذ عزمه وأرسل الدعوة إلى مدعويه على فندق (شبرد) كما أرسل إلى (سهام) خطاب اعتذار عن تقصيره وبداخله بطاقة دعوة .

أما (إصلاح) فقد وقع هذا التهديد والوعيد فى نفسها بعد خروج زوجها وقعاً شديدا .

وما لبثت أن أطرقت واجمة تستعيد بالذكرى أيامها التعسة ، وقد استبد بها الضيق واستحوذت عليها الهموم والأفكار .

ومن غريب أمر إصلاح هذه الليلة أن إطراقها لم يدم طويلا ووجومها لم

يلازمها أكثر من لحظات خاطفة — بدأت بعدها تشعر بإحساس عجيب وشعور مخالف .

إذ أخذ ينقلب غضبها من زوجها إلى لوم نفسها من أجله . وتفكيرها فى أعماله وأقواله — إلى ندم على ما فرط منها نحوه .

— ترى أى شعور ذلك الذى سبب لها هذا التغيير ؟

— لقد هبط عليها الشيطان فى تلك اللحظة محاولا إيقاعها فى المعاصى بأسلوب جديد ومن طريق غريب — ذلك هو طريق العاطفة — « وإذا تحكمت العاطفة وقع المحظور » — فراح يصور لها مخالفتها لزوجها جحوداً منها بمعاملته الطيبة — ورفضها لمطالبه غلظة وجفاء — فلو أنها وافقته على عمل هذه الحفلة — كما يريد ، لاستمر أسير هواها — ولو اتبعت مايرضيه ، ماتركها لحظة — وأنها بهذه الأعمال سوف تفقده وتفقد حبه — وأنه لن يعدم أن يجد أخرى توافقه فيما يريد — فلماذا لا توافقه فترضيه وتسعد معه ؟

وهكذا ظل يجعلها تتحامل على نفسها — حتى هب عقلها مستيقظاً (وعقل المؤمن لا تدوم غفلته) .

وفى الحال هتف فى نفسها مذكراً بالحديث الشريف :

(من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله شر مونة الناس . ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس) .

فما لبثت أن استجابت إليه . واختارت رضاء ربهـا — وليفعل زوجها ما يشاء .

ثم تذكرت أن يوم هذه (الحفل) سيوافق أول أيام شهر (رمضان) .

فحمدت الله على أنها لم توافقه ؛ وتنفست الصعداء — وعادت إلى ما كانت عليه قبل أسبوعين من الصبر والتوكل .

ظل (محسن) أثناء (حفلة الشاى) التى أقامها (بفندق شبرد) قلقاً لتأخر حضور (سهام) مشغولا بأمرها .

فلما انتهت الحفلة ولم تحضر ، ولم تعتذر . أيقن من إصابتها بمكروه.. أقعدها عن الوفاء بوعدها فى الحديقة . ومنعها من الحضور إلى هذه الحفلة . ووعندئذ شعر بنبضات تفيض باللهفة إلى رؤيتها . ثم صمم على زيارتها غدا بالمنزل .

فلما كان عصر اليوم الثانى . استعد للذهاب إلى منزلها ـ وكان من عادته ألا يأخذ سيارته فى مثل هذه الزيارات ـ فاستقل أول سيارة صادفته ـ وهناك استقل (المصعد) وما أن صعد إلى الطابق الذى به مسكنها . حتى أخرج من جيبه مفتاحا اعتاد أن يفتح به الباب كلما كان يحضر إليها وما لبث أن دخل توآ إلى حجرتها .

لكنه ما كاد يفتح بابها حتى جمد فى مكانه مصعوقا ، ثم تراجع مبهوتاً دون أن يتكلم ، فقد رأى أمامه (سهام) تلك التى ضحى من أجلها بكل شىء : (زوجه . وماله . وشرفه) تجلس مع رجل طويل القامة . أسمر اللون . حليق الشارب وأمامهما زجاجات الخمر. وكؤوس الشراب .

فما رأياه حتى ذعرا واضطربا — ثم هبت (سهام) واقفة — وسرعان ماجمعت قواها ، ودفعت به بعيداً عن الحجرة .

وهناك صاحت فى غضب :

— بأى حق تدخل بيتى . وتقتحم حجرتى ـ دون استئذان أيها الوغد الخائن ! !

فكاد يقع على الأرض ـ لكنه تمالك نفسه وصاح فى حنق :

ـــ إخرسى أيتها الفاجرة . أنت الخائنة . وقد رأيتك بعينى .

فضحكت ضحكة عالية مبتذله ثم نظرت إليه ساخرة وقالت :

ـــ أنا الخائنة أم من يدهمه البوليس مع فتاة ساقطة فى منزل حقير ؟

فدارت به الأرض ، وغلى دمه فى عروقه ـ ثم جمع أطراف شجاعته واقترب منها والشرر يتطاير من عينيه وقال مهدداً :

ـــ لا تلفظى بقول وإلا حطمتك بيدى .

فزاد رنين ضحكها المبتذل وقالت فى جرأة :

ـــ إذا لم تخرج حالا فسأرشد عنك البوليس مرة ثانية حتى تعرف قدر (سهام) التى حاولت خداعها .. أخرج أيها الوغد . وإلا فسأنادى صديقى ، وخدمى ، ليحملوك على الخروج .

سمع (محسن) هـذا فكاد يجن ـ ثم سمع وقع أقدام صديقها تقترب فلم يجد بداً من الانصراف .

وما هى إلا برهة حتى كان هائماً على وجهه . يذرع الشارع جيئة وذهابا . وهو لا يعى شيئاً مما أمامه ـ وسار مهموما يفكر فيما يفعله تجاه هذه الغادرة بعد أن عـــرف السبب الذى دفع (بفتاة الحديقة) إلى اتهامه بالباطل .

وقد كان حتى هذه اللحظة لا يعرف سبباً لتلك التهم التى وجهتها إليه أما وقد أدرك أنه كان ضحية فخ دنىء نصبته تلك المرأة الفاجرة فلابد من التبليغ عنها : انتقاما لشرفه ؛ ولتبرئة نفسه .

إنه ليفكر فى هذا كله — ولكنه لا يلبث أن يعدل عنه . مخافة وقوعه فى جريمة أخرى — حيث لا شهود معه ولا دليل .

ثم تذهب به الأفكار وهو سائر إلى التفكير فى زوجته — فينحى باللائمة عليها .

أليست هى التى ألجأته إلى البحث عن امرأة . تتفق مع ميوله . وتماشى رغباته — لاشك أنها هى الآثمة — لو كانت زوجة وفية لضحت برغباتها فى سبيل رغباته — ولو كانت مخلصة ؛ لما خالفته وسببت نكد عيشه — أتراه غافلا عن قصدها يوم أن استأذنته فى تأدية فريضة الحج هذا العام ؟ — لو أنها كانت تحبه ما فكرت لحظة فى فراقه — لكنها لم تزد عن كونها إمرأة (والنساء كلهن نفاق) .

ثم ينتبه . فيجد نفسه سائراً فى الطريق الذى عاد منه .

وهكذا حتى ينتهى به المطاف إلى أول حانة تصادفه . فيتهالك على أحد مقاعدها أمام مائدة صغيرة — وكان محتفظاً فى جيبه بباقى نقود « الخاتم المرتهن » فأخذ فى احتساء الكأس تلو الكأس لينسى همومه وأفكاره .

ومنذ تلك الليلة هام (محسن) على وجهه ؛ وأسرف فى الشراب . وارتياد أماكن الميسر — ودفعه سوء ظنه فى اخلاص زوجه إلى إهمالها — فطال سهره فى الخارج ، وكثر احتجابه عن المنزل — ثم جره التمادى فى الغفلة عن ذكر الله . إلى قضاء شهر رمضان فى معاقرة بنت الحان . ومصاحبة إخوان الشيطان .

وهكذا بعد « محسن » عن طريق الخير — فتلقفه الشيطان وأضله .

« ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين »

وكذلك ينتقم الله بأنواع المعاصى . من الذين يحيدون عن طاعته . ويتبعون (هوى) نفوسهم « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

والآن هيا نترك «محسنا» يخبط مع شيطانه ـ ونعود إلى زوجه لنرى ما كان من شأنها بعد هذا الانقلاب الجديد .

***

كانت « إصلاح » تعرف أن لعمل الخير فى « رمضان » أجراً مضاعفاً عن غيره من الشهور — وتعلم أن له حرمات من الحتم مراعاتها وإلا نقص من أجر « الصوم » وضاع ثوابه — من أجل ذلك كانت تراعى أن تصوم نهاره صوماً منزهاً عما يبطله من المنكرات والمحظورات ثم تقوم ليله تطوعاً واحتساباً — وكان لها فى إطعام الفقراء طوال أيامه طريقة مثلى — فكنت ترى يومياً وقت ميعاد الافطار عدداً من المساكين فى ضيافتها يأكلون — وقد اجتمعوا فى حجرة « بالبدروم » حول مائدة كبيرة بإشراف كبيرة الخدم — حتى إذا قرب ذلك الشهر من الانتهاء لم يفتها إخراج زكاته عنها وعمن تعول من خدم المنزل

ولقد استطاعت طوال هـــذا الشهر أن تسيطر على نفسها — فلم تدع للهم وإهمال زوجها سلطاناً على عقلها — وكانت قد اتخذت من وحدتها مجالا لبث روح الإيمان بين خدم المنزل جميعاً — فلم ينته هذا الشهر حتى كان الإيمان رائدهم والتقوى تعمر قلوبهم .

ثم أقبل شهر عيد الفطر ، وكان قد اقترب ميعاد الحج — فاستعاضت خلاله عن سعادتها الزوجية المسلوبة . بأمانيها فى حجها المنتظر — وبإعداد معداته ولوازمه .

وكانت السيدات قد انتظمن فى الحضور إلى منزلها لسماع درس الدين الأسبوعى — فكان لها من ذلك كله — عون على تخفيف هجر زوجها لها وإهماله إياها .

* * *

. وانتصف هذا الشهر — ففتحت «إصلاح» منزلها لآخر « درس دينى » إذ لم يبق على سفرها إلى الحجاز — سوي ميعاد قيام الباخرة التي ستقلها هى ومن معها من السيدات (أعضاء جمعيتها) .

وبينما كانت تستعد لاستقبال السيدات إذا بجرس التليفون يصل إلى سمعها ، فما أن رفعت « السماعة » إلى أذنها حتي سمعت صوتا نسائياً مألوفا لديها . ومحبباً إليها . عرفت فيه صوت صديقتها الأستاذة « سنيه المحامية » فلم تتمالك نفسها أن قالت :

— (سنيه) ؟ يالها من فرصة سعيدة ! !

وتدفق الشوق. وتبودلت التحيات .. ثم بدأت الأستاذة الحديث قائلة:

— (محسن بك) موجود الآن ؟

— كلا (ياسنية) — هل من داع ؟

— كنت أريد أن أسأله بعض أسئلة بخصوص القضية .

— القضية ؟ أى قضية تعنين ؟

— يا للذاكرة يا (إصلاح) ... القضية التي بات زوجك بسببها ليلة فى (السجن) منذ أكثر من شهرين .

وطبعاً لم تكن (إصلاح) تعلم شيئاً .. فصمتت لحظة تفكر (سجن ؟

— سجن ؟ — متي ؟) وسرعان ماعادت بذاكراتها على ضوء تلك المدة فوجدتها تتفق مع أول ليلة بات فيها زوجها فى الخارج بحجة موت صديقه

وما لبثت أن صاحت دون شعور :

— آه . . تذكرت .

وسمعت الأستاذة صيحتها فواصلت حديثها قائلة :

— يؤسفنى أن أخبرك بأننى منتدبة من قبل المرأة ضده . كما يؤسفنى إخبارك بأن التهم ثابتة عليه — ومن أجل هذا وذاك . كنت أرغب فى التحدث معه . لعلى أجد منه ما أستطيع أن أعمله لصالحه — فهل لديك ما يفيد فى هذه القضية ؟ .

فزاد دهش « إصلاح » من ذلك الذى لم تستطع أن تفهم منه شيئاً وأردفت قائلة :

— إننى آسفة يا صديقتى لأني لا أعلم شيئاً عما تقولين .

— ماذا ؟ ألم تقولى تذكرت ؟

— أقصد تذكرت ليلة مبيته خارج المنزل فقط .

فأسقط فى يد « سنية » . وندمت على تسرعها وقد كانت تعتقد أن (إصلاح) تعلم بظروف هذه القضية — لكنها ما كادت تسمع منها ذلك حتى داخلها شعور بأن (محسنا) يخون زوجه فى الخارج . وأنه لهذا يخفى عنها أسراره .

وسرعان ما وجدت فى نفسها ميلا إلى الإنتقام منه — ورغبة ملحة فى إيذائه — انتقاما لصديقتها العزيزة . ثم قالت معتذرة :

— (إصلاح) . . إني آسفة يا عزيزتي لإزعاجك . وقد كنت أظنك

مطلعة على أسباب تلك القضية ـ ولكن هذه إرادة الله الذى لايخفى عليه شىء . وقد أراد أن تعلمي . ولا يسعنى تجاه ذلك إلا أن أخبرك بجميع التفاصيل .

ثم راحت تسرد على مسامعها تفاصيل حوادث القضية كما هى مدونة بالمحضر . وكما سمعتها من موكلتها .

وما انتهت من القصة حتى راحت تتابع قائلة :

ـ فما كدت أتأكد من أن المتهم هو (زوجك) حتى تألمت ـ وزاد تألمى. كوني موكلة عن المرأة ضده . ولهذا أسرعت بالتحدث معك قبل أن أعد « مرافعتى » . لعلى أقف على ما يمكننى أن أعملة نحوه إكراماً لصداقتى لك ـ أما الآن فإني أحمد الله على أن جعل فى يدى القصاص منه . وسأعرف كيف ينال جزاءه . وأنا تحت أمرك فى كل ما تريدين .

ويالها من لحظة مريرة . تلك التى سمعت فيها « إصلاح » بذلك النبأ .

وما أقسى هـــذه الأخبار على أى زوجة مهما أوتيت من شجاعة وصبر ـ وأى شعور يستحوذ عليها أكثر من شعور الانتقام . والرغبة فى الايذاء ـ وهاهى الفرصة سانحة لإصلاح؛ وفى يدها القصاص ـ وها هي صديقتها تزين لها ذلك ـــ وتنتظر موافقتها .

لكن الإسلام دين العدل ـ ودين قول الحق وعدم الظلم ـ وإصلاح « ذات دين » عظيم . وخلق كريم ، وضمير حى ـ وقد فهمت من القصة التى سمعتها من صديقتها . ما أقنعها بأن فيها كثيراً من أقوال الزور ، والتلفيق ضمن التهم الموجهة إلى زوجها ـ فماذا فعلت ؟ وبماذا أجابت ؟

— لقد تناست كل شيء — إهمال زوجها لها — وسوء معاملته إياها — وخيانته وكذبه عليها — ولم تذكر إلا قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم [1] شنئان [2] قوم على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى » .

وسرعان ما تابعت الحديث قائلة :

— لقد فهمت من أقوالك يا أختاه — أن المرأة تتهمه بما يمكن أن يكون بريئا منه. وخصوصاً اتهامها إياه بالسرقة. ويؤيد براءته ماأعرفه عنه فى ذلك اليوم . فقد سرقت نقوده ومعطفه وقفازه — وإذاً : فهو المسروق لا السارق — لهذا أرجو أن تهتمى بإظهار الحق — لا من أجلى — ولا من أجل «محسن» . ولكن من أجل تحقيق العدالة. وإزهاق الباطل — فإذا تحققت لديك براءته — فلا تراعي أمرى، ولاأمر موكلتك. بل التزمى طريق الحق والعدل ، ابتغاء وجه الله وحده — وإني لأشكر لك شعورك نحوي ونبل عواطفك .

وكانت « الأستاذة » تستمع إليها فى إعجاب وإكبار فما صمتت حتى راحت تثنى عليها قائلة :

— لله درك يا « إصلاح » — فما أنت إلا ملك كريم . وقد نبهتنى إلى كثير مما يكشف الستار عن التلفيق فى هذه القضية وإلى وجوب تحقيق العدل والحق .

ولم تكد تنتهى هذه المحادثة حتى كان « أستاذ الدين » قد حضر وبدأت السيدات يفدن تترى — فأسرعت « إصلاح » نازلة إلى حجرة الاستقبال لاستقبالهن .

---

(١) يحملنكم (٢) عداوة

ولقد حدث والأستاذ يشرح درسه أن أقبلت « سيدة عجوز » ترتدي معطفاً وخماراً أسودين وكان برفقتها « سيدة كهلة » يظهر عليها « الثراء والصلاح » من هيئتها الظاهرة ، والمسبحة التي كانت في يدها .

فصمت الأستاذ حتى جلستا ثم راح يواصل درسه .

وكان من عادة الأستاذ أن ينادي « إصلاح » « بذات الدين » .

فما كادت « السيدة الصالحة » تسمع منه هذا « النداء » حتى انتبهت وجعلت تنظر إلى « إصلاح » وتطيل إليها النظر . وقد أخذها العجب من رؤية ذاك الشاب على هذه الحشمة في هذا العصر .

وسرعان ما التفتت إلى جارتها العجوز ومالت على أذنها هامسة :

— من تكون تلك الشابة « ذات الروب الطويل والخمار الأبيض » ؟

فمالت العجوز بدورها على أذنها . وأجابت في همس :

— إنها « إصلاح هانم » ربة هذا المنزل . وهي حرم « محسن بك المستكاوي » .

فاهتز قلب (السيدة الصالحة) وبدا عليها الإهتمام بشأن (إصلاح) حتى لكأنها تعرفت عليها . أو كشفت عن بعض صلتها بها . لكن جارتها لم تلاحظ شيئاً من ذلك . واستمرت تتابع سرد ما لديها من معلومات قائلة :

— ووالدها (شاكر باشا) رجل عظيم وثري كبير ـ لكن وا أسفاه ليست موفقة في معيشتها الزوجية ـ (ولا أطيل عليك) فزوجها يريد إرغامها على شرب الخمر . والخروج عارية ومقابلة أصدقائه ـ وهي كما

ترين ـ أدب . وكمال . وحشمة . ودين ـ ثم تنهدت متمتمة :

إيه . . دنيا . . رحم الله زمنا . كان فيه الرجل يذوب غيرة إذا رأى واحداً من الرجال ينظر إلى زوجه ، أو يسمع صوتها ـ نهايته ـ (استمعى إلى الدرس) وقانا الله شر فساد هذا الزمن . وهدانا فيه إلى طاعته .

وفى تلك اللحظة نظر إليهما (الأستاذ) مستنكراً صامتاً . فابتعدت العجوز عن جارتها . وتابع (الأستاذ) الدرس .

وفى نهاية هذا الدرس أعلن (الأستاذ) توقف الدروس إلى ما بعد عودة ربة المنزل من أداء فريضة الحج ـ ثم خرجت السيدات بعد أن أدين صلاة العشاء شاكرات مودعات ـ وقد اطمأنت قلوبهن ، بما سمعنه من العظات الدينية . إلا قلباً واحداً ظل مشغولا (بإصلاح) ـ ذلك هو قلب السيدة الصالحة :

ـ فياترى من تكون ؟ ـ وما صلتها بها ؟

٢٦

نامت (إصلاح) تلك الليلة مستسلمة لقضاء الله ، راضية بكل ما يأتى به . بعد الذى عرفته من صديقتها ، عن خفايا أعمال زوجها وكذبه ـ مكتفية بعدل الله وانتقامه .

وكان من عاداتها أن تسترجع قبل نومها كل ما تعمله طوال يومها من خير وشر ـــ فتحمد الله على الخير ، وتستغفره وتتوب إليه من الشر .

والليلة ما كان أكثر حمدها لله الذى أعانها على تأدية الشهادة فى قضية زوجها ، منزهة عن الباطل ، مجردة من الأهواء .

ولئن كان قد أساء إليها زوجها فحسبها الله الذى اقتص منه .

(وكفى بالله حسيبا) على ظلم العباد .

وانصرم الليل وأقبل النهار ؛ فاستيقظت (إصلاح) من نومها .

وبعد أن أدت صلاة الفجر ، وقرأت ما تيسر من القرآن . عادت تواصل نومها هادئة راضية ـــ واستمرت نائمة حتى إذا أضحى النهار ـــ وتهادت شمسه ـــ هبت من نومها فزعة .

وما فتحت عينيها حتى صاحت فى شىء من الراحة .

ـــ حمداً لله لم يكن هذا الوحش الضارى سوى حلم مزعج .

لكن ما بال قلبها يداخله شعور غريب ؟ ويحدثها بوقوع أحداث جسام ؟ ـــ لا شك أنها أوهام من أثر ذلك الحلم . لا تلبث أن تنقشع بعد حمام الصباح وصلاة الضحى .

وفيما هى تهم بالقيام من سريرها ، إذ بإحدى الخادمات تقبل عليها

ويبدها بعض أوراق من النوع الخفيف .

فلما رأت (إصلاح) هذه الأوراق فى يدها صاحت فى دهشة :
ماذا بيدك يا تاعسة ؟

— إعلان يا سيدتى ـ أتى به رجل كان يسأل عن سيدى .

— ماذا ؟ إعلان ؟ هاته ـ وما الذى قاله الرجل ؟

— يقول إنه ذهب به إلى مكتب سيدى ـ فما لم يجده هناك أتى به إلى هنا .

وتناولت (إصلاح) الإعلان بيد مرتعشة وقلب مضطرب .

ولما كان زوجها متغيبا عن المنزل منذ ثلاثة أيام فقد رأت لزاما عليها استلامه .

— ترى ماذا به ؟ . .

واهتزت الأوراق فى يدها أثناء قراءته وشملتها موجة من الذهول ثم راحت تنظر فيه قائلة فى اضطراب :

— وامصيبتاه ! أملاك مرتهنة ؟ وربا مركوم ؟ ثم حجز على الأملاك لبيعها فى مدة لاتتجاوز اليومين ؟

يا للداهية الدهياء ـ ما هذا الذى أقرأ ؟ ومتى حصل كل هذا ؟ وفيم صرف ؟ وما الداعى إلى إخفاء أمر ذلك الدين عنى ؟

أسئلة أخذت تتدفق على نفسها كتدفق السيل الجارف ـ حتى إذا لم تستطع من نفسها جوابا أطرقت واجمه ورأسها فوق راحتها وقد سقط الإعلان من يدها على أرض الحجرة .

ومرت بها لحظة رهيبة كانت فيها نهبا لصراع عنيف بين اغواء (الشيطان) وسلطان (العقل) فجعلت تقلب وتعيد فى الماضى والحاضر حتى عادت إلى ذكرى الاعلان فتساءلت :

ـــ والآن ماذا أفعل ـ وكيف أتصرف ؟

ثم أين (محسن) ليعلم بهذا الإعلان ؟ وأين الوقت حتى يراه ويتصرف فيه ؟ وأكثر من هذا وذاك أين له ذلك المبلغ الجسيم المطلوب لرفع الحجز ؟

ودعت الحوادث شبيهاتها . فتذكرت ما سمعته أمس من « الأستاذة » فانثالت على نفسها الهموم وتداعت الأفكار .

ـــ ماأشبه اليوم بالأمس وإن اختلفت الحوادث، وتباينت الأسباب ـ دين يصل به إلى الحجز ، ومعاص تدفع به إلى السجن ، لقد تجاوز الحد وخرج عن الرشد .

واستحوذ عليها اليأس فعادت تتساءل :

ـــ لكن... أليس لهذا العيش من آخر؟ ـ أليس لكل شيء نهاية كما له بداية ؟ ـ هذه أعماله ـ وتلك صفاته ـ لا يصلحه نصح ـ ولا ينفع معه صبر ـ ماذا يفيد في إصلاحه ؟ ماذا ينفع في هديه ؟

ـــ لا شيء .. لا شيء .. إنها جناية الوالدة ـ فلولاها ما تم الزواج .

وجلجلت دقات الساعة تنبيء بقرب زوال وقت الضحى فتذكرت الصلاة .

وعند ما فرغت من (صلاة الضحى) راحت تدعو بين يدى الله أن يعينها على تحمل هذه الكارثة ويوفقها لما فيه رضاه .

وما هي إلا فترة وجيزة حتى خمدت ثورة ذلك الصراع العنيف ولم تعد تسمع إلا صوت عقلها ينبعث في نفسها منبها .

ـــ حذار من إيحاء الشيطان ـ إنه يحتال ليضمك إلى حزبه كما كنت قبلا ـ الزواج من بواعث القدر وإن ظهر لك أن والدتك هي السبب ـ أنسيت قوله تعالى :

(يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيما) .

فسكنت نفسها قليلا ، وأصغت إليه ملياً ـ واسترد مذكراً فى قوة :

لا تزعزعى إيمانك بوساوسه ـ أنسيت الآية الكريمة .

(ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) . ... لا تقنطى من رحمة الله ـ أنسيت الوعد الحق (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) .

وكأنما ذكرى هذه الآيات قد بعث فى قلبها الهدوء والاستقرار .

فما لبثت أن قالت نادمة :

ـ آه ـ أستغفر الله ـ إنى لأذكر كل هذا ولا أنساه .

وغلبها الإيمان ـ فاستعاذت من الشيطان . ثم دب فى قلبها الرضاء بعظيم الأجر ـ فعادت إلى سريرها وقد عزمت على الإصلاح بعد العفو والصبر .

وفى حزم واستسلام أخذت تفكر فى الحالة التى سيصبح عليها زوجها بعدهذا الحجز والبيع وجعلت تتخيل كربه . وماسيجلبه عليه ذلك الحادث من العار والفضيحة .

ثم استولت عليها غريزة حب إصلاح الغير فراحت تسائل نفسها .

ـ أليس من الممكن أن يدفع به هذا الدمار إلى التمادى فى المعاصى ؟ ألم يزين الشيطان لكثير من أمثاله الانغماس فى اللذات ـ بحجة التسلى عن الهموم والمآسى ؟ فما لها لا تجرب فى هديه وإصلاحه نوعاً آخر غير النصح إليه . والصبر عليه ؟ ما أعظم التضحية بالنفس والمال فى سبيل الله ـ وما أكثر ثوابهما إذا كانا بقصد تفريج الكروب وإغاثة المحتاج .

— ألم يقل الرسول الكريم (من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة)

— حقا ما أحوجنى إلى تفريج تلك الكربة فى ذلك اليوم الموعود .

— فماذا لو ساهمت بسداد هذا الدين ، وسارعت فى أدائه قبل فوات الأوان .

شعور كمين يدفعها إلى هذه التضحية — ووحى من إيمان يحفزها إلى التنفيذ ابتغاء وجه الله . فإذا لم يصلح زوجها فحسبها الله الذى تعمل من أجله .

وعاودها ذكرى العهد الذى كانت قد قطعته على نفسها بأن تكون عونا للمحتاجين من الناس — فما لبثت أن صرت الجرس بجانب سريرها فأقبلت كبيرة الخدم — ومارأتها حتى صاحت :

— داده حليمة ؟ ... إلى بدفتر حسابات البنك .

وجاءت به — فتناولته منها وراحت تقول :

— عشرة آلاف جنيه أودعتها باسمى عقب زفافى . أرجو الله أن يكفى مابقى منها لسداد الدين .

ثم أخذت تقلب صحائفه متمتمة : — هذا المبلغ سحب فى سبيل الله — وذاك سحب لزكاة المال المدخر والحلى — وهذا فى شأن نفقات الحج وجعلت تجمع وتستقطع ثم صاحت : — حمداً لله — الباقى يكفى لسداد المطلوب .

ولم يمض الميعاد المحدد حتى تم سداد الدين ؛ ورفع الحجز عن الأملاك .

على أنها ما كادت تطمئن من هذه الوجهة . حتى روعت بوفاة والدها التقى البار — فيا لتجمع المصائب — ويالحكمة الأقدار .

فتح قصر (زينات) هانم أبوابه لأول حادث محزن لم يسبق أن حدث فيه مثله .

فقد كان كما تعلم لايرى فيه سوى حفلات الطرب ومحافل الأنس والشراب .

ولقد استمر ثلاثة أيام يعج بوفود طوائف المعزين والمعزيات (لزينات هانم وأولادها) حتى ضاقت بهم غرفه على كثرتها وسعتها — وبالرغم من موت (الباشا) فقد ظل هذا القصر كعهده السابق من العظمة والبهاء . وكأن لم ينقص منه أحد .

وفى خلال هذه الأيام كانت (زينات هانم) تتقبل العزاء وهى كما هى لاتغادرها روح الغطرسة « الاستقراطية » ؛ ولا تفارقها مظاهر الأناقة « العصرية » وإن كان يخالطهما بعض مظاهر الحزن والتأثر .

وكانت إلى حالتها العادية أقرب منها إلى حالة الحزن «و الترمل » — وكانت بملابس الحداد الأنيقة والخمار الأسود الشفاف — أكثر فتنة وإغراء وكانت ممتلئة صحة ونشاطا .

أما إصلاح فقد كانت بادية الصمت ينطق وجهها بما فى فؤادها من صبر واستسلام — على حين امتزج حزن (سوزان) بآمال المستقبل والزفاف السعيد . إذ كانت هى وخطيبها قد عقدا الآمال على ماسترثه من تركة والدها لسداد ديونه التى كانت حجته فى تأخير العقد والزفاف .

ولهذا كان تقسيم الميراث هوشغلها الشاغل طوال أيام المأتم الأولى .

وفى أمسية . وقد خلا القصر من وفود المعزين . إجتمع الأخوة الأربعة للبحث فى مسألة تقسيم ميراث أبيهم وما سيخص كلا منهم من تركته ـ ثم رأوا أن يشركوا والدتهم باعتبارها شريكة معهم فى هذا الميراث

لكن ما بال « زينات هانم » تبدوا صامتة فى شرود ووجوم ؟ وما لها قد انصرفت عن مجلسهم بما يظهر عليها من الأفكار والهموم ؟ عجباً ! ! ـ لماذا لم تشترك مع أولادها فى هذا الحديث ؟ ـ لماذا لم تجب عن سؤال واحد منهم ؟ ـ ترى ما الذى خالط نفسها وسبب وجومها؟

يا لله . . . لقد شحب وجهها . وإرتخت عضلات جسمها ، وإختل توازنها ووقعت على الأرض .

وانكفأ الابناء على أمهم صائحين فى فزع .

ـ أماه ؟ ماذا جرى ؟ ويح أنفسنا ـ الطبيب حالا .

لقد شلت حركة أرجلها ومرضت « بالفالج » .

وانتشر خبر مرض « زينات هانم » بين الأصدقاء والصديقات ـ فامتلأ القصر بزوارها وعوادها . وانقلب العزاء فى موت « شاكر باشا إلى الاستفسار عن صحة « زينات هانم » .

ولكم سهر فى أول المرض بجانب سريرها محبون ـ وتتطوع وقتئذ لتمريضها معجبون ـ وكم فاضت عبرات متملقات ومتملقين . والكل آمل فى الحظوة لديها بعد الشفاء ـ لكن المرض أخذ يزداد يوما بعد يوم، وساءت حالتها . وأصبح الوجه النضر شاحبا باهتا . والجسم الممتلىء فى خفة ورشاقة . هزيلا نحيلا . وبقى ساكناً لا يتحرك منه سوى النصف الأعلى ويديها . وعز الشفاء وانقطع الأمل .

عند ذلك أخذ يتناقص عدد زوارها ويقل عوادها . وكلما زادت وطأة

المرض . قل العواد . وأهملها من كانوا أصدقاء وكن صديقات — وشغل الكل بحفلات جمعياتهم ومسرات حفلاتهم . حتى خلا القصر منهم أو كاد ولم يعد يكثر من هذه الزيارات سوى الطبيب وشوقي (خطيب سوزان) ولعلك لا تغفل عن سر إخلاصه وزياراته — وسبحان المبدل المغير لكل حال .

واها منك أيتها الدنيا الغادرة — يامن لا تدومين على حال .

حتى (زينات هانم) أصبحت تشعر بغدرك وخيانتك — إنها لتشعر الآن . بأن كل ما في نفسها قد أدركه التغيير بسبب عدم استقرارك على حال — فكبرياؤها وغطرستها قد محقتا وتحطمتا . وأفكارها وآراؤها تبدلت واختلفت — حتى عقلها استيقظ وراح يحتقر ملاهيك وملذاتك — إنها أصبحت تحس بشعور يصلها بعالم غير عالمك المزيف ، ويبعدها عن محيطك الفانى — ويدفعها إلى أعمال قد تبدو غريبة بالنسبة إليها — فتراها وقد عجز الطب عن شفائها تلجأ إلى منزل الداء ومن بيده الشفاء . تفزع إليه بالليل والنهار . تسأله العون وتخفيف الآلام — ثم تراها وقد استيقظ عقلها تكثر من التوبة والندم على ما كان منها من السخرية بالدين وأهله ثم يدفعها هذا كله إلى استدعاء ابنتها (إصلاح) قبل سفرها إلى الحجاز للندم أمامها على ما كان منها تجاه تدينها وتقواها .

فلما حانت ساعة السفر — دخلت (إصلاح) حجرة أمها وكانت مضطجعة فى سريرها نصف اضطجاع وظهرها مسندا إلى وسائد مرتفعة وقد أخذتها غفوة التفكير .

وإذ شعرت بمقدم ابنتها . انتبهت وأخذت تنظر إليها . وكانت نظرات

كل منهما تعبر عما يفيض فى قلبيهما من لوعة الفراق الذى ما من بده بد .

وقبل أن تتكلم (إصلاح) بدأت الأم الحديث بصوت خافت مضطرب:

— إصلاح !!. ابنتى ؟ لقد استدعيتك كى أهيىء لك وداعاً لا تشوبه السخرية التى ودعتك بهما عندما سافرت مع زوجك من مصيف الأسكندرية إلى مصر الجديدة .

— لا تندهشى يا ابنتى — فقد أصبحت آسفة على زهرة العمر التى قضيتها ضالة مضلة — أسيء إلى غيرى بعد أن أسأت إلى نفسى — وإن كنت قد أسأت إليك فى الماضى . فهل لى أن أرى منك الآن صفحاً وغفراناً ؟

فترقرقت عينا إصلاح بالدمع . وانحنت على أمها تقبل يدها . وتغمرها بدموعها — ثم رفعت رأسها وقالت :

— سامحك الله يا أماه — وهل تظنينى إلا صافحة ؟

فأمالت الأم رأس ابنتها نحو صدرها — وراحت تربت على كتفها فى حنان فانكفأت (إصلاح) فوقها وامتزجت قبلاتهما بالعبرات .

وفى بكاء ونحيب تمتمت الأم قائلة :

— الآن سافرى يا بنتى على بركة الله — والزمى الطريق الذى هداك الله إليه . ولا تنسى الدعاء لى بالمغفرة — أستودعك الله (يا إصلاح)

أستودعك الله يا أماه .

وسافرت (إصلاح) بعد أن ودعت أمها وإخوتها . دون أن ترى زوجها أو تسمع كلمة وداع منه .

وسارت الباخرة بها وبمن معها تاركة أرض الوطن — وفى العين دمعه وفى القلب شغف إلى حج (بيت الله) والصلاة فى (مسجد رسوله) وزيارته

* * *

(لبيك اللهم لبيك ـ لبيك لاشريك لك لبيك ـ إن الحمد والنعمة لك والملك ـ لا شريك لك) .

هذا هو الدعاء الذى تردد عالياً من أفواه ركاب الباخرة التى كانت بها (إصلاح) عندما وصلت بهم إلى مدينة (رابغ)

كان ذلك فى مساء يوم الجمعة . وكان البحر هادئاً جميلا — والقمر يسطع بنوره السحرى . فوق مياهه الصافية وقد أحرم الركاب جميعاً (بالعمرة) ـ بعد أن تجرد الرجال من ملابسهم العادية . ولبسوا ملابس الإحرام التى لا تزيد عن (إزار) لف حول وسطهم (ورداء) فوق أكتافهم (ونعلين) فى أرجلهم ـ وكانت النساء قد لبسن الملابس الطويلة الفضفاضة. وضربن بخمرهن على جيوبهن . وأصبحن على الهيأة التى شرعها الاسلام لخروجهن فى الحج وغير أيام الحج .

ولقد استمر الجميع يرددون هذه التلبية ويكررونها كلما هموا بعمل أو دخلوا بمكان حتى وصلت بهم البـــاخرة إلى ثغر جدة مع غروب يوم السبت .

وارتفعت فى سماء جدة شمس الأحد المشرقة وكان الحجاج قد باتوا ليلتهم فى جده ـ فاستقلت (اصلاح) وصديقاتها (سيدات الجمعية) السيارة قاصدات الحرم المكى الشريف بمكة المكرمة .

* * *

هذا هو الحرم المكى الشريف .

يالله من مسجد عظيم ، يشغل هذا الحرم فراغاً كبيراً من أرض مكة المكرمة . وهو فناء واسع يسمح لآلاف الحجاج بالصلاة فيه فى وقت

واحد — تملؤه أعمدة قائمة — وله أكثر من عشرين باباً يدخل منها الوافدون من أية جهة يريدون — ويقصد هذا الحرم عدا الحجاج جميع أهل مكة للصلاة والتبرك . وقل أن تجد هذا الحرم خلواً من الناس — فهو دائماً مأوى الأتقياء وملجأ الغرباء ؛ وبمجرد الدخول فيه تكتحل عيناك برؤية الكعبة الشريفة . قبلة الصلاة — وأول بيت وضع للناس من بيوت الله — وهي مكعب مرتفع الأركان . شامخ البنيان . مغطاة بستائر من الحرير الأسود — قد نقشت بأحرف الذهب أستارها ، وزين الحجر الأسود أحد أركانها .

يشعر الناظر إليها بنور الربوبية يتلألأ فوقها . فيخفق القلب إجلالا وتزداد النفس إيماناً . وهي بعد مقصد طوائف الحجاج والأمل في تطهير ذنوب العباد .

وفي هذا الحرم — فيما يجاور الكعبة — مقام ابراهيم ، وحجر اسماعيل ، وبئر زمزم — وكلها قريبة من أرض المطاف الذي يحيط بالكعبة كما تحيط . الهالة بالقمر .

في هذا المكان الطاهر . وقفت (اصلاح) ومن معها بين آلاف الحجاج تائبة مستغفرة . تؤدي طواف القدوم . وهو أول مناسك العمرة وقد دعت الله أن يتقبل عمرتها ، ويهيء لها حجاً مبروراً .

ولم ينته هذا اليوم حتى كانت اصلاح وصديقاتها قد فرغن من تأدية هذه العمرة — وكان المطوف قد أعد لهن سكناً قريباً من أحد أبواب الحرم ، ليقمن فيه مدة وجودهن بمكة . « وكن قد أودعن أمتعتهن فيه عند قدومهن في الصباح » ، فما لبثن أن عدن إليه .

وما استقرت (اصلاح) فى البيت حتى كتبت إلى أسرتها مستفهمة عن صحة والدتها .

وامتدت إقامة إصلاح بمكة ـ عشرة أيام متشابهة الصباح والمساء . قضتها جميعها فى (إقامة) الشعائر الدينية . وكل ما تتطلبه أعمال الحج .

كانت إذا ما سمعت صوت المؤذن يدعو إلى الصلاة تسارع بالذهاب إلى الحرم ـ فإذا ما انتهت من الطواف حول البيت راحت تجلس بين السيدات ، فى المكان المخصص لهن بعيداً عن الرجال حيث تحضر صلاة الجماعة . وكانت حريصة على هذه الجماعة حتى فى صلاة الفجر .

هذا ما كانت تفعله داخل الحرم .

أما خارجه فكثيراً ما كانت تذهب إلى منازل الفقراء . ومعها الكثير من أنواع الصدقات ، تكسو عاريهم ، وتطعم جائعهم ، وتمد بالمال مساكينهم ومحتاجيهم ؛ حتى إذا فرغت من ذلك كله . كانت تجلس مع صديقاتها بالمنزل يقرأن القرآن ، ويتدارسن الأعمال الخاصة بمناسك الحج .

وقد حدث خلال تلك المدة أن جاء إلى إصلاح رسالة من صديقتها « يسرية » وفيها ترجوها أن تصف لها مكة وما عملته فيها .

كان ذلك بعد مرور أسبوع من إقامتها . وكانت تتأهب للخروج مع صديقاتها إلى الحرم ـ فما كادت تقرأ الرسالة حتى استأذنتهن فى التخلف . ثم جلست على أحد المقاعد ، أمام منضدة صغيرة ، كانت تتوسط الحجرة وراحت تكتب رد الخطاب .

مكة ٦ ذى القعدة

عزيزتي يسرية :

نحن لا نزال فى مكة ، وسنستمر بها إلى ما قبل وقفة عيد الأضحى بيوم واحد ثم نبرحها بإذن الله إلى « منى » ومنها إلى « جبل عرفات » يوم الوقفة ، على أن نعود إليها ثانية قبل نهاية العيد إن شاء الله .

ولقد استأجرنا منزلا قريباً من أحد أبواب الحرم الشريف — والمنزل أثرى جميل فرشت حجراته بالسجاجيد العجمية ، والأثاث النظيف والعرب أهل كرم ومودة — فما كادوا يرونا حتى راحوا يهيئون لنا أسباب الراحة ويمدوننا بما نحتاج .

تسألينني فى خطابك أن أصف لك مكة ، وما عملته فيها كما كنت أصف لك « باريس وسويسرا وفينا » أيام كنت أصيف مع أسرتي بها . وإنه ليسرني أن أجيبك إلى ما تطلبين .

لكن ما بالى لا أجد من نفسى القدرة على التعبير عما يخالج شعورى نحوهذه الأرض المقدسة . والبلدة العظيمة — إنه لشعور يقف خيالى عن تصويره ويعجز قلمى عن الكتابة فيه ! ومع هذا فقد يمكننى أن أعرفك بأنها «مدينة» تمتاز بجلال وروعة يشعربهما كل من يهل عليها وتطأ قدمه ترابها الطاهر — وتشم أنفه عبيرها المطهر — ومن هنا لا أرى وجه شبه ما بين هذه البقعة الطاهرة ، وبين غيرها من البلاد ، فى مشارق الأرض ومغاربها . ويكفى أنها كانت مهبط الوحى — ولم تزل أرض الحرم وقبلة العباد .

وإنى لأستطيع بعد ذلك أن أفاخر بها مدن العالم على أنها الوحيدة التى لم تجرؤ التقاليد الغربية أن تعبث بتقاليدها — ولم تستطع المدنية

الفاسدة أن تمحو طابعها الإسلامى الخالد — بل ولم تسمح قداستها لأى نوع من أنواع المغريات والملاهى المفسدة — أن تدنس حرمتها ، أو تلهى الحجاج عن العبادة والصلاة .

أما عن أعمالى هنا فأهم ما قمت به إلى الآن هو تأدية العمرة ، (وهى فريضة على كل داخل مكة) .

كان ذلك أول يوم وصولنا إلى مكة ، وقد كنا محرمين فى الباخرة بقصد هذا الاعتمار .

(والإحرام معناه ترك التأنق ولبس مايستر الجسم وتجنب بعض أعمال وخصال كانت مباحة فى غير أيامه) .

فلما وصلنا الحرم المكى — وقفنا بساحة المطاف للطواف حول البيت .

وهنا أقف قليلا ، كى أتخيل تلك الروعة ، التى استولت على مشاعرى وأنا واقفة أشاهد أول موقف عظيم وقفته فى حياتى .

ياله من موقف رائع ، تجلت فيه العظمة الإلهية . وذل العباد كما تجلت فيه المساواة بين الغنى والفقير — لقد خفق قلبى إجلالا وخشية ، وفاضت عيناى بالدمع ، خوفاً ورجاء . قبل أن ينطق لسانى بالاستغفار والدعاء — وعند ما رحت أطوف بالبيت ، مع الطائفين والطائفات . كنت لا أعى شيئاً مما حولى ، وإن كنت لا أجد موضعاً لقدمى من كثرة الناس — لكن هكذا كان شعورى . بل وشعور كل واقف بهذا الموقف العظيم .

تصورى رجالا كثيرين يهرولون حول البيت . ونساء كثيرات يطفن معهم وقد تلاصقت الأجسام ، واختلط الرجال بالنساء . ومع ذلك

فلا لفتة . ولا نظرة . ولا شعور نحو أى عوارق . بل عنت الوجوه للحى القيوم . وتحولت القلوب للرب المعبود .

وكلما طفنا بالبيت مرة اتجهنا بأعيننا إلى الحجر الأسود مكبرين ، ثم نعود إلى الطواف ثانية .

وهكذا سبعة أشواط — ما شعر كبيرنا فيها بتعب ، ولا أحس ضعيفنا منها بنصب — إذ الكل كانوا قد تجردوا من العالم الحسى ، إلى العالم الروحى — وانشغلوا عن شفاء الأجسام ، بشفاء الأرواح ، من الآثام . . . وما انتهى الطواف حتى صلينا ركعتين فى مقام إبراهيم . ثم سارعنا مهرولين ساعين داعين بين الصفا والمروة . وبهذا السعى لم يعد أمامنا سوى قص جزء من الشعر ـ وذبح ما تيسر من الهدى. للتحلل من الاحرام — ثم كان القص فى نفس الليلة . وكان الذبح فى اليوم الثانى . وبذلك انتهت العمرة .

ولا يفوتنى أن أخبرك بأننا سنعود إلى الإحرام بقصد الحج ابتداء من الغد إن شاء الله .

وإنى لأكتفى الآن بهذا القدر وإلى اللقاء .

« إصلاح »

وما انتهت حتى أغلقت الرسالة وأعطتها أحد غلمان المطوف لإرسالها بالبريد الجوى .

وكانت قد سمعت صوت المؤذن . يؤذن لصلاة الظهر فأسرعت لاحقة بزميلاتها إلى الحرم لتشترك فى صلاة الجماعة .

٢٨

مضى شهران على مرض « زينات هانم » كانت خلالهما تهيأ لأفكار مظلمة ولسر دفين أخذ يقلق مضجعها ويزيد فى مرضها .

على أنها لم تبح بهذا السر إلى أحد ولم تحاول إفشاءه لأى مخلوق .

واستمر هذا حالها ، حتى كان صباح يوم جاء فيه الطبيب لعيادتها وبالرغم مما كان يبدو عليها من مظاهر التحسن . فقد سمعته يهمس فى أذن الممرضة بما فهمت منه أنه لم يبق أمل فى حياتها .

ومن الغريب أن هذا الخبر على ما كان فيه من إزعاج ، فإنه لم يترك فى نفسها أى قلق أو يشغلها أكثر من فترة وجود الطبيب .

وبعد خروجه دق جرس (التليفون) بجانب سرير المريضة .

فأقبلت الممرضة كالمعتاد — لكنها ما لبثت أن رجعت إلى حجرتها ، فقد سمعت (زينات هانم) تجيب بصوت خافت :

— أشكرك (يا صفوت بك) ولا لزوم لحضورك فقد حضر الطبيب وأمر لى بالراحة التامة .

وأعقبت ذلك بوضع سماعة (التليفون) مكانها ثم راحت تتمتم .

(صفوت بك) هو الوحيد الباقى على وفائه من الأصدقاء والأحباء — ما أبغضه الآن إلى نفسى .

ومرت أمام عينيها صور الماضى معه فأطرقت فى أسف وندم .

ولم تكتف بهذا ولكن شريطاً متتابع الصور أخذ يستعرضه خاطرها . فجعلت تذكر . أصدقاء عديدين كانوا يحبونها ، ويساهمون فى الخير من اجلها . وصديقات عديدات كن يتملقنها ويظهرن الود لها — ثم صحفيين كانوا

وسرعان ما أعادته مكانه تحت الوسائد . واستسلمت للنوم هادئة .

* * *

ومضى النهار . . . وفى المساء جاء حسين وزوجه لعيادتها كالمعتاد . وما دخلا حجرتها حتى دخلت بعدهما (سوزان) ثم جاء (سامى) . والتف الجميع جلوساً حول سرير « والدتهم » وراحوا يتلطفون فى الحديث معها ؛ ويجتهدون فى إدخال السرور عليها ؛ وكانت الأم مستندة على الوسائد تستمع إلى أحاديثهم الممزوجة بالحب والحنان — وكانت قد تناست تلك الذكرى المؤلمة — فأخذت فى التبسط معهم ؛ ثم فى الحديث عن رسالة أتت من « إصلاح » اليوم ، وعن فرحها بقرب عودتها .

ومرت فترة شعر الأبناء فيها بالتحسن الطارىء على « والدتهم » فسروا سروراً عظيما .

وكان مرضها المفاجىء قد حال بينهم وبين تقسيم ميراث أبيهم فرأوا أن ينتهزوا هذه الفرصة السارة لإعادة التكلم معها فى هذا الموضوع .

ولكنهم ما كادوا ينوهون بهذه المسألة أمامها حتى لاحظوا على وجهها نفس الشرود والوجوم اللذين شاهدوهما يوم ذاك .

عند ذلك بهت الجميع . وظنوا أن ذكرى « الراحل » عزيزة عليها . ولا يليق بهم الخوض فيها حتى يتم لها الشفاء .

لكن أنى لها ذلك الشفاء وقد تبدلت حالتها فجأة . وغشى عينيها ظلام لم تعد تراهم . ولم تعد تسمع من أقوالهم شيئاً . ثم انعقد لسانها . وضعف نبضها وسكنت حركتها فى صمت رهيب .

رأى الأبناء هذا الذى طرأ على « والدتهم » فشمل الأسى نفوسهم ، وسرى الحزن العميق بينهم .

وسرعان ما انقلب مجلسهم وشغل كل منهم بهذه الحالة الفجائية .

وكانت سوزان بالقرب منها ، فأمسكت بها تمنع وقوع جسمها — وأسرعت « يسرية » تصرالجرس للممرضة — فى حين أخذ « حسين » يرفع الوسائد كى يهيىء « لأمه » مرقداً مريحاً ترقد عليه حتى تفيق .

وفى تلك اللحظة لاحت من الجميع التفاتة تحت الوسائد المرفوعة . . فرأوا المظروف المغلق .

وسرعان ما مد « سامى » يده واختطفه قبل أن تقع عينا الممرضة عليه ثم أودعه حجرته وكر راجعاً .

وجاءت الممرضة . على عجل وتذكرت أقوال الطبيب فى الصباح . . فأسرعت تستدعيه .

رأى الطبيب « المريضة » فتأكد لديه ما كان قد توقعه . ثم رأى جزع أبنائها فقال مهدئاً :

— لا تجزعوا يا أبنائى فهى بخير — ولكننى أرى حرصاً على مصلحة المريضة أن تتركوها بمفردها مع الممرضة حتى تفيق .

وانصرف .

وعقب انصرافه دلف الأبناء إلى حجرة « سامى » القريبة من حجرة المريضة وأخذوا فى الدعاء والابتهال .

واستمروا بين الابتهال والبكاء ، حتى تذكر سامى المظروف فمد يده وأخذه من فوق مكتبه .

ورآه الباقون . . فالتفوا حوله . ثم شغلوا معه بأمر هذا المظروف .

— ماذا به ؟ ولماذا وضعته والدتهم تحت وسادتها ؟ أيفتحونه أم ينتظرون حتى تفيق ؟ .

وأخيراً دفعهم حب الاستطلاع إلى فتحه .

فتح سامى المظروف فوجد به أوراقاً بعضها تحوى كتابة قديمة وبعضها حديثة الكتابة وجميعها عليها بعض آثار الدموع . . فتملكه العجب . . وجعل يتطلع إليها فى دهشة ثم أمسك بالأوراق الحديثة — وطفق ينظر إليها والجميع حوله مرهفوا السمع فى شوق ولهفة .

على أنه ما كاد يلمح بعض الكلمات الأولى حتى عرف أنها خاصة بأخيه حسين — فصمت لحظة . . وبدا عليه التردد . هل يسلمها إليه؟ أم يقرأها قبله؟

وغلبه الفضول ، واستولى عليه حب الاستطلاع فصمم على ألا يسلم المظروف إليه إلا بعد اطلاعهم عليه .

وسرعان ما راح يقرأ والجميع فى إصغاء إليه .

« اعترافات »

ولدى حسين :

لقد شاءت نفسى الأمارة بالسوء ، أن تنطوى على سر ما كنت أظن له كشفاً . أو يطلع عليه أحد يوماً من الأيام .

ولقد غرتنى الحياة الدنيا وزينتها فأودعته طي الكتمان وقذفت به فى عالم النسيان . وما كنت أحسب أنه مهما نبطن تظهره الأيام .

آه . . يا بنى . . لقد أراد الله للأيام أن تتداول ليظهر الحق ويزهق الباطل — وعندئذ ينقلب نعيم الحياة الكاذب إلى عذاب الضمير القاتل .

على أنى أرى لزاماً على قبل الاعتراف بهذا السر الأليم ، أن أخبرك بنبأ مضى عليه أكثر من عام ، كنت أخفيه عنكم لا لشىء إلا لأني رأيت أن أسدل الستار على كل ما عساه أن يلامس هذا السر ويوقظه .

أتذكر يا ولدى يوم كنا جلوساً حول مائدة الطعام ، ودخل علينا « سامى » مسروراً وأخبرنا بكسبه « مائتى جنيه » فى « الميسر » من شاب يدعى « محسن المستكاوى » .

— لا شك أنك تذكر ذلك — ولعلك تذكر أيضاً غفلتى عنكم وقت ذاك وهو يمثل حركات الرجل الذى خسر نقوده فى « الميسر » . ثم تذكر بعد ذلك أنى فاجأتكم بإقامة « حفل » باسم الخير ، بنادى « السيدات العصريات » وشددت على « سامى » فى ضرورة إحضار هذا الشاب إليها . . وفهمتم يومئذ أن غرضى من هذا ، هو جمع مال الخير من الأغنياء الكرماء أمثاله .

لا يا ولدى فما شىء من الخير كنت أعنى وقتذاك . ولكنى فقط كنت قد ابتدعت ذلك لكى أتحقق من شخصية هذا الشاب لمشابهة اسمه ولقبه أحد أفراد أسرتى .

ثم تمت خطتى وبان لى بعد محادثته أنه نفس الشخص الذى توقعته . ولكنى ما كدت أقدم إليه نفسى حتى ظهر لى أثناء حديثه — شبح ذلك (السر الأليم) عند ما علمت منه أن مربيته « عسرانه » لما تزل فى خدمة أسرته (وهى الوجيدة التى تعرفه) منذ كانت فى خدمتى — فأمسكت ثم أخفيت .

نعم ، يا ولدى — لم أخف عنه وعنكم هذا النبأ ، وتلك القرابة إلا حفظاً لذلك السر « الخطير » الذى سيكشف لك عن خفايا مصائب انقيادى وراء التقاليد التى أباحت اختلاط النساء بالرجال . وسهلت مخالطة الزوجات بأصدقاء أزواجهن .

ولدى . . كم يؤلمنى أن أبوح لك باعتراف يكدرك كشفه ، وتفزعك معرفته . . ولكنى مرغمة على أن أطلعك عليه حتى لا أضاعف جريمتى

السابقة بالكذب والسرقة . . أو بعبارة أوضح . بإدخال أبناء غير شرعيين ، فى ميراث من ليس بأبيهم .

ولقد بكيت مراراً . وترددت كثيراً قبل البدء فى كتابتى إشفاقاً على ولدى « سامى » وابنتى « سوزان » ، من أن يكون اعترافى سبباً فى حرمانهما من الميراث ، فى تركة (شاكر باشا) التي هى حق شرعى لك ولأختك « اصلاح » دون سواكما .

. . آه يا إلهى . . !

تشجع يا ولدى ، واستمع لهذا السر المشئوم الذى كان السبب فيما أصابنى تلك الليلة التى اجتمعتم فيها لتقسيم الميراث بينكم .

وإنه ليعز على أن أطلعك مع هـذا الإعتراف ، على مذكرات طال الزمان بها ما كنت لأطلعك عليها ، لولا أنها تحتوى على ماض يؤيد اعترافى ويثبت أقوالى .

كما يعز على أن أكشف عن تلك الحقيقة المرة التي ستؤلم شعورك وتكدر صفوك .

ولكنى أرجو أن تحسن الظن بى ، فما أردت بهذا الإعتراف إلا رضاء الله والبعد عن الآثام وعدم السكوت على توزيع المال الحرام .

وإنى أعيذك يا ولدى من شر ما هو مكتوب فى « مذكراتى » فقد كنت فريسة « سلطان الهوى والشيطان » .

واعلم أننى ما أقدمت على هـذا الإعتراف إلا بدافع الندم والتوبة وبوحي من يقظة الضمير الذى تنبه فأمرضنى وحطم جسمى وأدمى عينى وقرب منيتي . وكلما زاد مرضى واشتدت آلامى تذكرت أن هذا جزاء ماقدمت من معاص وندمت على غرورى بالحياة واستهتارى بأوامر الدين .

أواه من عذاب الضمير . . إنه ليؤنبنى من أجل تلك الطفلات الماجنة التى كنت أقيمها باسم الخير . وانغماسى فيها — ومن أجل أستاذ الدين واستهزائى به . وظلم الخادم التي اعتدى عليها « ساعى » وطردى لها — آه . . كم يعذبنى الآن من أجل ابنتى « إصلاح » ومحاولتى حملها على اتباع التقاليد الزائفة وحياة الضلال التى كنت أحياها — وفوق ذلك يذكرنى بزوجى — فهو وإن كانت تقع عليه مسئولية أخطائى لتساهلة أمام تصرفاتى الضالة المضلة ؛ إلا أننى نادمة الآن على ما كان منى نحوه من خيانة وجحود فاللهم رحمتك بى ومغفرتك .

وإنى لأرجو يا ولدى أن تعينى على تخفيف وزرى وتساعدنى على نيل رحمة ربى — فاغفر لى ما تقدم من ذنبى ، واطلب لى عفواً عن ذنوبى من غافر تواب .

وها هى المذكرات كما دونتها فى حينها .

استمع الأبناء إلى هذا الاعتراف ، وهم مأخوذون لا يشعرون أهم فى يقظة أم هم يحلمون . وكانوا فى حال يعجز اللسان عن وصفها والقلم عن الكتابة فيها .

وما انتهى سامى من القراءة حتى وجد نفسه قد انقض ممسكا بالأوراق التى بها المذكرات دون أن يشعر أو يتكلم . وبالرغم من ممانعة حسين الشديدة له — فإنه راح يقرأها عليهم ، بقلب مضطرب ويد مرتعشة . وحال يرثى لها .

* * *

٩ يناير سنة ١٩١٩

حضر اليوم أحد أقاربى وهو (على بك المستكاوى) وطلب يدى من عمى فلم يوافق لأنه سبق أن طلق زوجه كان له منها طفل فى الشهر الأول يدعى « محسن) فكدرنى ذلك لما كان بيننا من الحب .

٤ يناير سنة ١٩٢٠

مضى عام فيه تزوج « على بك » بفتاة تدعى « عنايات » وخطبت أنا لشخص يدعى «شاكر بك التركى» وافق عليه عمى لما كان يتصف به من دين وثراء .

واليوم تم زفافنا وانتقلت معه إلى « فيلا » يملكها بالعباسية .

٣ ابريل

اجتهد « على بك » من يوم زواجى فى مصادقة زوجى ، وقد أخفى اهتمامه بى أمامه ثم أخذ يظهر له من الوفاء والإخلاص ما أشعره بأنه ألزم له من أخ شقيق ..

وعلى أن زوجى من المحافظين على الحجاب إلا أنه ما كان يحجبنى عن « على بك » مخافة اغضابى — ولاعتقاده بحسن أخلاقه واستقامته .

٥ مايو

سافر زوجى اليوم إلى أوروبا فى مهام وظيفته ، وتركنى مع خادمتى « عسرانة » فى حراسة « على بك » لثقته فى وفائه .

٩ يونيه

قام « على بك » بحراستى خير قيام فكان لا يدع مكاناً من أماكن اللهو دون أن يصحبنى إليها — غير أنه اليوم لم يشأ أن نتنزه فى الخارج

وآثر أن نلعب « الكنكان » فى البيت — وكنا اثنين والشيطان ثالثنا . فكانت الخطيئة وكان أسف وندم .

٣١ أغسطس

مضت ثلاثة أشهر على سفر زوجى ، بدأت فى نهايتها تظهر علامات الخطيئة — واليوم جاء زوجى من الخارج وقد أنعم عليه برتبة (باشا) وجاء إلينا محملا بالهدايا فقابلناه مثقلين بالخطايا .

٥ مارس سنة ١٩٢١

تم أمس الوضع وكان توأمين سمى أحدهما (سامى) والثانية (سوزان) دون أن يتطرق الشك إلى زوجى .

وفى نفس اليوم زارنا (على بك) ورأى ولديه ، فاستيقظ ضميره وظهر عليه الأسى والارتباك .

٦ مارس

مات (على بك) مساء أمس بالسكتة القلبية تاركا زوجه (عنايات هانم) وطفلته الرضيعة (يسرية) فحزن عليه زوجى .

أما أنا فلم أتأثر لموته فقد دفن سرى معه — ولم يبق من يعرف ذلك « السر » سوى « عسرانه » تلك الخادمة الخائنة التى تركتنى والتحقت بخدمة زوجة « على بك » الأولى .

٢ مايو

ما أسعدنى اليوم بانتقالنا إلى قصر جميل بالزمالك سبق أن اشتراه زوجى لإعجابى به وأطلق عليه اسمى .

ومن هذا اليوم، أرى أنه لاداعى لتدوين مذكراتى فقد تبدل كل شىء .

وما فرغ سامى من القراءة حتى رمى بالورق فوق مكتبه وتهالك على

القعد ـ شاحب الوجه محطم الأعصاب ، فى حين نظر الباقون بعضهم إلى بعض فى حيرة وقد انعقدت الألسن وساد بينهم صمت موحش وبالأخص (سوزان) فقد عمها الذهول وخيم عليها الكرب والبلاء .

غير أن الاقدار قد اقتضت أن يكون مع كل عسير ـ نوع من التيسير .

فلم يمض كثير على تلك الحالة المؤثرة ، حتى لكأن الله الرحيم أراد أن يرحم هؤلاء الأبناء من شر ما هم فيه وينقذهم مما هم عليه إذ دخلت عليهم الممرضة فزعة تنبئهم بما بدل الحال وغير الأحوال فقد أخبرتهم بموت والدتهم وانتهاء حياتها .

وحينئذ انقلب موقفهم . وتناسوا ما أصابهم . وشغلوا بهذا الخبر .

وكان الليل قد ولى ؛ وانبثق الفجر ، فراحوا يستعدون لعمل اللازم ، فى مثل هذه المناسبات .

ولو كنت واقفاً عصر ذلك اليوم جهة حى (الزمالك) لرأيت سيارة دفن الموتى تخترق شارعه العظيم ، وليس بها سوى جثمان الفقيدة يرافقه ولداها (سامى وحسين) .

* * *

مضى اليوم ووريت (زينات هانم) التراب دون نعى فى الجرائد أو إعلان للعزاء ؛ ثم عاد الاخوان إلى أختيهما مطرقى الرأس . ولا يزال القلب مجروحاً ، واللسان صامتاً ، والاعتراف يشغل عقول الجميع .

وفى تلك الليلة بات القصر فى ظلام دامس وقضى الجميع ليلاء .

ليلة لم يكن همهم فيها مصيبة الموت . ولكن كان لكل منهم هم يشغله وشعور قد استحوذ عليه .

كان هم (حسين) موزعا بين قلقه على مصير أخويه (سامى وسوزان

بعد حرمانهم) من الميراث ـ وبين إشفاقه على مستقبل أخته (إصلاح) فيما لو عرف (محسن) بهذا الاعتراف المشئوم . وكانت (يسرية) تفكر فى (محسن) أيضاً باعتباره أخاً لها ظهر فجأة . وبظهوره يتحتم عليها أن تطلعه على وصية والده الخاصة باشتراكه معها فى ميراثها .

أما (سوزان) فقد ظل همها منحصراً فى الخطة التى يجب أن تتبعها لقطع علاقتها بخطيبها ـ حتى لا ينكشف أمرها أمامه .

فى حين كان (سامى) قلقاً من أجل الحال التى سيصبح عليها ، والفقر الذى ينتظره حيث لا وظيفة لديه ولا شهادة معه .

وهكذا مضت تلك الليلة بسوادها وعظم بلائها .

وما انبلج صباح اليوم الثانى حتى روعت (يسرية) ببرقية تنبىء بوفاة خالتها فى إحدى مدن الوجه القبلى .

ولما كان هذا الخبر يحتم عليها السفر ، لحضور المـــأتم والعزاء فقد سافرت هى وحسين فى نفس اليوم تاركين (سوزان وسامياً) مع بعض الخدم الذين ظلوا باقين فى القصر إبقاء على ذكرى الباشا الراحل بعد أن خرج أكثرهم أثر وفاته مباشرة .

٢٩

سجى الليل وأظلم الكون وخيم على القصر السكون والوحشة . وقد مضت بضع ساعات على سفر حسين وزوجه .

فى تلك الليلة دخلت (سوزان) حجرتها باكية . إذ كانت قد أوصدت دون خطيبها الباب بعد أن تمكنت من الحصول على فسخ خطبتها التى دامت بينهما ثلاث سنوات .

ولم تكد تنفرد بوحدتها وحرمانها ، حتى ارتمت منكفئة على سريرها بخمارها الأسود ، وثوب الحداد الذى لا أثر للتأنق فيه — واستسلمت لبكاء تجاوبت له أركان الحجرة .

ثم أخذتها غفوة استيقظت بعدها فزعة ، وقد تمثلت لها صورة (خطيبها) عند ما دخل عليها الليلة مواسياً — فراحت تسترجع الكلمات المؤلمة التى اصطنعتها وألقتها على مسامعه لإيثارته وإغضابه .

ومضت لحظة رهيبة . تذكرت فيها ألفاظ الطمع والأنانية التى نسبتها إليه وحصلت بسببها على قطع كل أمل في زواجهما — فانهالت عبراتها وتراكمت عليها المصائب والأحزان .

وما أشد الوحدة وما أمر الفراق ؛ وما أقسى هذه البلايا على مثل تلك التى نشأت بين حياة الترف والنعيم .

ثم ألقت نظرة حولها بعد هذا التأمل والبكاء . كمن تبحث عن مواس أو معين .

فلما لم تجد غير سكون موحش ، وأشباح تتراقص أمام عينيها —

تملكتها رهبة الوحدة وروعة الأحزان ـ فأضاءت نور الحجرة ولبثت حيناً ساهمة الوجه ، شاردة النظرات ، تفكر فى حاضرها ومستقبلها .

ـــ لقد ماتت أمها وأعز أحبابها . وبموتها ظهر عدم بنوتها لمن كانت تشمخ بجاهه وتعتز بأبوته وثرائه .

يا لهول الذكرى !

ـــ إنها لم تعد إلا ابنة لرجل زان خائن للباشا ، مجرم فى نظرها . وبذلك فقدت خطيبها وخاب أملها .

ثم زفرت زفرة حارة وعادت تتابع الذكريات :

ـــ ما أسوأ الفرق بين ما كانت فيه وما آلت إليه ـ فقر بعد غنى وذل بعد عز ـ وحرمان بعد تمتع ونعيم ـ أين ألجأ ـ وكيف أعيش ؟ وعلى من أعتمد ؟

وفاضت عيناها بالدمع وأنفاسها بالتأوهات الحارة .

وفيما هى بين الهواجس والبكاء . إذا بأخيها سامى ـ يدخل عليها مطرق الرأس تخنقه العبرات . وقد روعته الحال التى كانت أخته عليها فتقابلت نظراتهما الباكية . ثم جلس على مقعد بالقرب منها وأطرقا فى صمت باك ـ وخيم الهم عليهما ـ وساد الحجرة صمت رهيب ـ لم يسمع خلاله سوى زفرات حارة ، وتنهدات تقطع نياط القلوب .

ومرت بهمـــا فترة قطع (سامى) بعدها الصمت بسؤالها عن شوقى (خطيبها) فقد علم من البستانى بخروجه منذ قليل .

فلم يكد يسمع منها نبأ فسخ خطبتها حتى اختلج جسمه اختلاجة مفاجئة. وتمتم فى ذهول كمن يكلم نفسه :

— فسخت خطبتك ؟ يالتجمع المصائب ! !

وأطرق باكياً .

فزاد بلاء سوزان — واشتد كربها ثم أخذت تهذى فى بكاء خافت .

— آه ياسامى . . لقد انهالت على المصائب . وليس لى قدرة على تحملها . فكيف الخلاص ؟ وكيف الاحتمال . إن حملى ثقيل ومصيبتى كبيرة وعقلى يكاد يجن كلما تصور — فتاة وحيدة يتيمة الوالدين فقدت المال والجاه وعطف الأم — خطيبة تهدمت آمالها . وضاع مستقبلها — قصر منيف انقضت أركانه فوق رأسها وخلا من جميع مباهجه وعما قريب ستصبح غريبة عنه .

وتطلعت إلى أخيها بعينيها الدامعتين وقالت فى شبه عتاب :

— وأنت . . أنت يا سامى — ليتك كنت من أرباب الأعمال فأعيش فى كنفك وأنسى بعض ما أنا فيه من المصائب والبلايا .

واختنق صوتها بالعبرات وتوقفت عن الكلام وانفجرت باكية .

وكان (سامى) يستمع إليها فى تحسر . وكأن صاعقة قد انقضت على رأسه فأطرق خجلا .

ثم قال فى توسل :

— رفقاً بحالى يا أختاه . ولا تذكرينى بجنايتى على نفسى فإن مصيبتى كبيرة وبلائى عظيم .

فأدركت سوزان أنها زادت فى آلامه وهمومه فقالت معتذرة .

— عفواً يا أخى ولا تؤاخذنى بما أهذى به فما ذلك إلا بسبب ما فى نفسى من الحسرة . وما أصطلى بناره من مرارة الحرمان . وظلام المستقبل .

فعاد سامى إلى إطراقه ثم رفع رأسه ونظر إليها قائلا :

— لو تعلمين يا أختاه ما أعانيه منذ علمى بتلك الكارثة لفضلت لأخيك الخلاص من هذه الحياة المرة — والعيشة البائسة .

إننى أحتقر نفسى كلما تذكرت أنى أصبحت فقيراً وليس لدى ما يؤهلنى للعمل فى وظيفة . أو ما يساعدنى على إنقاذك وإسعادك .

وكانت (سوزان) قد انصرفت إلى همومها فعاد — إلى إطراقه وأخذ يكلم نفسه نادما .

— ليتنى أتممت تعليمى ولم أعتمد على ثراء أو جاه — ليتنى اتخذت سبيل أخى (حسين) ولم أتخذ مع الشيطان سبيلا — أين كان عقلى الذى تنبه الآن بعد فوات الأوان ؟ أين كان ذلك الضمير الذى استيقظ فى هذه الليالى الحالكة السواد — إنه ليذكرنى بتلك الخادمة التى اعتديت على شرفها وكنت سبب طردها ظلماً وعدواناً — إنه يعذبنى الآن من أجل ذلك المخلوق البرىء الذى كنت السبب فى وجوده — من يربيه ؟ — ومن يراعيه ؟ — إننى لأتخيله أمام عينى فى مجاهل الحياة المستقبلة . سفاكا للدماء سراقا — شريداً فى الأرض — طريد العدالة — وهذه جنايتى وتلك آثامى .

واستبد به الهم فاسترد يائساً :

— أيتها الدنيا الغرور ؛ ماذا بقى لى فيك ؟ بل ماذا بقى لى فى الحياة جميعها ؟ — لا شىء إلا أن أموت بجرعة سم أو طلقة مسدس — لقد فاض بى كأس الهم . ولا أمل لى فى الحياة .

ثم هب واقفاً كمن يريد التخلص من الحياة وآلامها بالانتحار .

وكانت سوزان قد تنبهت وسمعت عزمه الأخير . فوقفت قبالته وأمسكت بتلابيبه وجعلت تتوسل إليه فى بكاء :

ـــ بربك لا تفعل يا سامى ـ ورفقاً بنفسك ـ إن لم يكن من أجلك فليكن من أجل أختك البائسة التى ليس لها من عائل سواك .

وفى تلك اللحظة عاودتها ذكرى لم تكن تأبه لها من قبل ـ ذكرى « أستاذ الدين » الذى طالما كانت تهزأ به فما لبثت أن تابعت قائلة :

ـــ أما سمعت من أستاذنا كثيراً من الآيات والأحاديث فى وجوب الصبر على المصائب والرضا بكل مايأتى الله به ؟

وما زالت به حتى عدل عن عزمه ورضخ لنصائحها .

وأخيراً تم الاتفاق بينهما على أن يبحث سامى عن عمل بسيط يعيشان منه ـ وشقة صغيرة يسكنان فيها .

وكان قد انتصف الليل فقام سامى إلى حجرته لينام .

* * *

دخل سامى حجرته . وماهى إلا لحظة حتى أغلق بابها عليه واستغرق فى نومه .

أما (سوزان) فلم يطرق الكرى جفونها . بل ظلت ساهدة مستسلمة لهواجسها وأحزانها .

وما لبثت أن سكنت إلى نفسها تستعيد بالذكرى بعض ما كانت عليه فى الماضى السعيد .

ـــ لقد كنت أعيش فى بحبوحة من العيش بين ملاهى الحياة ولذاتها . فظننت ألا حياة غير هذه الحياة السعيدة ـ ولا شقاء بعد ذلك النعيم ـ ثم اعتمدت على ثراء من كنت أظنه أبى وعلى منزلة أمى ـ وأهملت ما كنت أسمعه من « إصلاح » فى وجوب الاعتماد على الله وحده .

وحضرتها بعض أقوال أختها ونصائحها الماضية فاستطردت فى أسف :

— آه . ما كان أشد غفلتى حينذاك — إننى لأذكر الآن أننى سمعت منها مراراً تلك الآية الكريمة (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) .

نعم — أذكر ذلك الآن نادمة على حياة اللهو والضلال التى كان جزاؤها الشقاء والحرمان .

وظلت فترة تفكر فى معنى تلك الآية الكريمة . وفى عاقبة سخريتها واستهتارها بأوامر الدين ثم عادت تكلم نفسها فى ندم :

— حقاً لقد كانت « أختى » تعمل الصالحات حفظها الله من أهوال ماجرى فى غيابها . أما أنا فكنت أسلك طريقاً دامساً . فكان جزائى أن تكشف لى هذا البلاء كى أعيش فى شقاء — لذلك آمنت الآن بكل ما كنت قد سمعته من تعاليم الدين — آمنت بأن لا بقاء فى نعيم الدنيا . ولا سعادة إلا فى العمل للآخرة — نعم آمنت يا إصلاح بثاقب رأيك وبعد نظرك بعد أن رأيت آخرة أمى وما آل إليه مصيرها — حقا يجب أن أسلك طريقك كى أحصل على رضاء الله وسعادة الدارين .

— لا بد أن أقتدى بك طائعة مختارة بعد أن عرفت أن الله عزيز ذو انتقام — وأن (حزبه هم المفلحون) فاللهم امنحنى الهداية إذ لا سعادة إلا لمن هديته إلى طاعتك .

وهكذا رسمت سوزان لنفسها تلك الليلة نوعا جديداً من الحياة معبراً عن تغلب سلطان العقل — خالياً من الأهواء والشهوات .

ثم أخذتها سنة من النوم فنامت مستسلمة .

ما أقسى غدرات الزمان ؛ وأشد تقلباته .

لقد ظهر على القصر الخراب ، وأظلم نوره . وأغلقت أبوابه ونوافذه .

وأصبح حديث المتحدثين . وعظة الغـــافلين . كما أصبح (سامى وسوزان) يشعران بأنهما غريبان فيه . . وقد أحاط بهما الذل . وحل بهما الشقاء . وأخذا يستعدان لمقاومة الفقر والحرمان فى صمت وخفاء .

وقامـــا يشعر الغنى أو من هم فى بحبوحة من العيش بآلام ذوى الحاجة والفقر .

بيد أن (حسينا) الذى تشبع قلبه بالإيمان ورقت عواطفه تعاليم الدين لم يغفل عن التفكير فى مصير هذين البائسين طوال أسبوع سفره مع زوجه .

فمـــا إن رجعا حتى أسرعا تواً إلى القصر . دون أن يفكرا فى الذهاب إلى منزلهما .

ولا تسل عن شعور الأسى الذى استولى عليه حينما دخل على « البائسين » ولاحظ عليهما آثار هزال الجسم واصفراره وقد كسا وجهيهما ذل الحرمان وبؤس الكارثة .

واستولى عليه الموقف — فتذكر القول المأثور — (ارحموا عزيزا ذل . وغنيا افتقر) .

عند ذلك أخذ فى مواساتهما والترفيه عنهما فى عطف وحنان .

وما لبث أن تناول معهما طعام الغداء — ثم ذهب بهما مع زوجه إلى « الشرفة » المطلة على الحديقة — وكانت الشمس تعلو فوق الأفق والهواء

يهب هادئاً منعشاً ، ومع ذلك فقد ظلت على وجه (سامى وسوزان) آيات الملل والتبرم بالحياة .

وفيما كان (حسين وزوجه) يواسيانهما إذ أتى البريد برسالة عليها طابع « المدينة المنورة » .. لاشك أنها من (إصلاح) .

ولما كانت (يسرية) قد أرسلت إليها تنعي والدتها حين وفاتها . كانت فى رسالتها مواساة لاخوتها وفيها عزاء . لكن مع الأسف . زادت هذه الرسالة فى حزن (البائسين) ومصابهما . فطفقا يبكيان فى لوعة زادت فى عطف (حسين) وحركت كوامن بره وشفقته .

— لهف نفسه . . ماذا يفعل لتخفيف بلأمهما ؟ ماذا يعمله لانقاذهما ؟.

ومرت به فترة تفكير صامت تعمد بعدها فتح الحديث عن تركة والده .

فأطرق (سامى) . وصمتت (سوزان) وشحب وجهاهما فى ذل وانكسار .

عند ذلك اقترب بمقعده منهما . . وكانت (سوزان) تجلس على مقعد بجانبه (وسامى) أمامه . فما لبث أن أمسك بيديهما وراح يشعرهما بأنهما لادخل لهما فيما كان من أعمال والدتهما ـ وأنه واثق من بر (إصلاح) بهما وأنه سيظل وإياها أخوين لهما كما كانا قبلا دون أن يجعلا لاعتراف والدتهم دخلا بينهم .

ويالها من لحظة سعيدة تلك التى أخذ (حسين) فيها يؤكد لهما عزمه وإصراره على أن يكون تقسيم ما ترك الوالد بينهم جميعاً وكأنهم أخوة أشقاء .

فقد شعر هذان (المحرومان) فى تلك اللحظة كأنهما فى حلم

جميل ـ وما استيقظا منه حتى راحا يبتسمان للمستقبل ، ويمطران منقذهما بالشكر والدعاء . .

ومضت ساعة رفرف فيها السرور. إذ تعمدوا جميعاً خلق أحاديث بعيدة عن آلام الذكرى ومصيبة الكارثة .

ثم أخذ الحديث يتدرج معهم حتى وصل بهم إلى ذكر (محسن) وما يجب اتخاذه نحوه بخصوص (اعتراف والدتهم) .

ـــ أيخبرونه بذلك الاعتراف الذى يسقط أختهم (إصلاح) فى نظره ؟. أم يكتمونه عنه ويجعلونه سراً دفيناً ؟

ولقد كانوا يفضلون عدم اخباره ويسدل الستار على ذلك السر الأليم بينهم . لولا أن يسرية انفردت برأى رأى الجميع وجوب الأخذ به .

كان هذا الرأى متعلقاً بمسألة (وصية) تركها والدها وهى صغيرة ولم تنفذها والدتها لجهلها بقدر (محسن) وعدم معرفتها بأخباره .

ولما كان خوف (يسرية) من الله ومحافظتها على أوامره يحتمان عليها تنفيذ تلك الوصية ـــ كان لابد لها من أن تطلع (محسناً) على ذلك الاعتراف الذى يثبت أخوته واستحقاقه .

لهـذا تم اتفاقهم على أن يذهب (حسين) إلى « محسن » ويطلعه على ذلك الاعتراف قبل عودة أختهم من الحجاز .

ـــ لكن أين « محسن » ؟

ـــ إنهم جميعاً لم يروه منذ الليلة الأولى لموت والدهم .

ـــ فيا ترى ماذا كان من أمره بعد ذلك الغياب الطويل ؟

ـــ إننا سنرى .

٣١

كانت «إصلاح» جالسة مع صديقاتها بمسجد الرسول (ﷺ) بالمدينة المنورة (بعد أن أدين فريضة الحج) ، فى نفس اليوم الذى عقدت فيه « بالقاهرة » جلسة « محسن » المتهم فيها من « فتـــاة الحديقة » بالاغتصاب والسرقة .

فى ذلك اليوم ذهب « محسن » إلى المحكمة ، وكان قد حضر من الخارج لحضور هذه الجلسة ، بعد رحلة طويلة قضاها هائماً على وجهه مع بعض رفقائه وأصحابه .

وما هى إلا فترة وجاءت الأستاذة «سنية» ومحامى «محسن» والفتاة .

فلما نودى على القضية الخاصة « بمحسن » — وقف ممثل الاتهام فأعلن ثبوت التهم الموجهة إليه ، من الفتاة .

ثم أذن للأستاذة بأن تؤدى مهمتها — فارتعدت فرائص محسن. وغاب لونه وجعل يتطلع إليها وهى واقفة فى خوف واضطراب .

وأمسكت « الأستاذة » بالأوراق وراحت تنظر فيها وقد اتجهت إليها الأنظار فى صمت وإصغاء .

وقبل أن تبدأ فى الترافع طن فى أذنها صوت « إصلاح » فى التليفون.

— فإذا تحققت لديك براءته فلا تراعى أمرى ولا أمر موكلتك بل التزمى طريق الحق والعدل ابتغاء وجه الله وحده .

وكأنما صدى ذلك الصوت قد بعث فى نفسها قوة فى الحق والعدل فتوقفت لحظة ثم بدأت تترافع .

ولما كانت تعرف إدانة موكلتها ، وكانت قد وثقت من ذلك كل

الوثوق — كانت مرافعتها أقرب إلى تبرئة المتهم من إدانته . . وكان ذلك منها فى شجاعة ولباقة أثارت إعجاب الحاضرين ودهشة محسن .

وما انتهت حتى قام محامى المتهم ، فأعلن تبرئته من كل ما وجهته إليه الفتاة بالحجج القاطعة والبراهين القوية .

ثم توقفت الجلسة للمداولة وانعقدت ثانية ، واستعد القاضى لينطق بالحكم .

فاختلج فؤاد الفتاة وارتجفت أوصالها كما اضطربت أعصاب محسن وخفق قلبه ، وراح ينظر كل منهما إلى القاضى وهو ممسك بالأوراق التى دون بها الحكم .

وساد الصمت بين الجميع ، ونطق القاضى بالحكم — فإذا هو يقضى ببراءة المتهم .

ولا يمكنك أن تقدر حالة « محسن » التى كان عليها عند ما سمع ذلك الحكم العادل النزيه . إذ كان ذهول الدهشة قد استولى عليه فلم يصدق ما سمع — وكان سرور النصر قد ملك عليه مشاعره فلم ير غريمته وهى تخرج أمامه تجر أذيال الفشل .

واستمر على هذه الحال حتى ثابت إليه نفسه وعاد الدم يجرى فى عروقه وعندئذ تأكد من تبرئته وكاد يطير من الفرح .

على أن سرور « محسن » بتبرئته لم يكن بأعظم من إعجابه بما أبدته تلك « الأستاذة » العادلة التى رأى فيها خروجاً عن المألوف فى إظهار الحق ومراعاة العدل .

« والأستاذة » ولو أنها كانت صديقة « لإصلاح » إلا أنه لم يسبق

« لمحسن » أن رآها أو عرف بأن لزوجه صديقة بهذا الإسم ـ لهذا رأى لزاماً عليه أن يقدم شكره وتقديره لتلك العادلة التى سهلت للمحكمة مهمتها فى إظهار الحق . وإزهاق الباطل .

وما لبث أن دلف إلى حجرتها مستأذناً فى الدخول ـ ثم راح يعطرها بعبارات الشكر والتقدير ويثنى على دفاعها وتزاهتها النادرة .

وكان دخول محسن إلى حجرتها قد هيأ لهـا فرصة للتحدث معه عن صديقتها « إصلاح » .

فما كاد ينتهى حتى اعتدلت فى جلستها ونظرت إليه وهي تعبث بالأوراق التى أمامها على المكتب وأنشأت تقول فى شبه نصيحة :

ـــ إذا كان هناك (يامحسن بك) من تستحق الشكر والتقدير فلتكن هى زوجك الوفية المخلصة .

وكم كانت دهشة محسن حينما سمع ذكر زوجه فقد كان حتى هذه اللحظة لايعلم شيئاً مما قامت به من نبل وتضحية حيث لم يتقابلا بعد المحادثة التليفونية التى كانت بين زوجه والأستاذة. سوى مرة فى مأتم والدها ثم سافر إثر علمه بمرض والدتها لتمضية أجازته الصيفية فى رحلة من رحلات اللهو والرياضة مع بعض فريق النادى المشترك فيه . ولم يحضر سوى اليوم لحضور جلسته .

لذلك ظل صامتاً مبهوتاً يسائل نفسه فى اضطراب :

ـــ ماشأن زوجه ؟ وماصلتها بهذه القضية ؟ ومن أين علمت بها ؟

ثم جمع أطراف شجاعته وقال متسائلا :

ـــ هل لسيدتى أن تفصح لى عن قصدها ؟

وخفق قلبه وغاب لونه .

ـــ نعم يا « محسن بك » ـ وإنه لمن حسن حظك أن تكون زوجاً لإصلاح هانم تلك لزوجة النادرة الوجود .

فزادت دهشته ونظر إليها صامتاً .

واستطردت الأستاذة فقصت عليه كل ما كان بينها وبين إصلاح من حديث تليفونى ثم أعقبت ذلك بمدحها والإعجاب بها .

وكان «محسن» مصغياً إليها فى تأثر واهتمام عظيمين ـ أيقظا فيه كوامن الندم وعظيم التقدير . ومالبث أن قال موافقاً على ماسمعه منها من مدح وإعجاب :

ـ الحق ماقلت يا أستاذة وإننى لسعيد الحظ بهذا الملاك الطاهر وماعرفت قدرها إلا الآن . ولايسعنى أمام ذلك سوى شكرك المزدوج على هذه العواطف النبيلة نحو زوجى ـ ودفاعك النزيه الذى أنار الحقيقة ثم ودعها وانصرف .

* * *

ظل محسن طوال الطريق يفكر فيما قالته الأستاذة عن زوجه التى كان يسىء الظن بإخلاصها ويرميها بالنفاق .

ومالبث أن استيقظ حبه الدفين الذى كان يحاول إخماده كلما بدا له منها مخالفة لميوله وأهوائه . وحينئذ شعر بالحنين واللهفة إلى رؤيتها وبدافع يدفعه إلى الإعتراف لها بخطئه والركوع تحت أقدامها شاكراً معتذراً عما كان من إهماله وأعماله ـ ثم جعل يسرع الخطا حتى وصل إلى البيت .

لكن ما باله لا يجد عطرها الشذى يفوح عبيره فى المنزل ؟ ولا يسمع صوتها الجميل يغرد فيه ـ ويحه إنه ليشعر فى بيته بوحشة كئيبة ـ إنها وحشة تحمل إليه ذكريات أيامهما السعيدة حينما كان يعود إلى المنزل فيجد

زوجه فى زيارة إحدى صديقاتها فى الخارج — لهف نفسه لابد أنها سافرت إلى الحجاز دون أن يودعها .

ودخل حجرة نومه بخطا متثاقلة وكانت مقفلة النوافذ وقد خيم على المنزل الصمت إلا بعض أصوات كانت تنبعث من حجرة الخدم .

وهناك ارتمى على (الأريكة) وقد تعلق بخيط من الأمل — ربما منعها من « الحج » مرض والدتها .

وكأنما أقنعه هذا الأمل — فشرع يفكر فى الذهاب إليها عند أسرتها لكن كيف يذهب بعد هذا الغياب الطويل . قبل أن ينفرد بزوجه ويطلب عفوها عن تقصيره واساءاته ؟ — ألم يكن لزاماً عليه ألا يتركها فى محنتها ؟ وأن يشاركها حزنها ويواسيها فى مصابها ؟ — ثم يسبح فى هذه الأفكار ويغيب عن نفسه .

ومضت فترة سمع بعدها وقع أقدام (داده حليمه) وهى تفتح (شرفة الحجرة) فانتبه ونظر إليها مستفهماً فى لهفة كما ينظر الغريق إلى قارب النجاة .

ويا لها من لحظة تلك التى سمع منها فيها بنبأ سفر إصلاح — لقد أحس بعد خروجها كأن سهماً قد أصاب قلبه — وأنه أفقد وعيه .

وقبل أن يفيق هبت من الشرفة نسمة معطرة بعبير (ياسمين الحديقة) فخيل إليه أن زوجه لاتزال فى المنزل وأنها فى حجرة الزينة المجاورة . وأنها ستشرق عليه بعطرها الشذى وزينتها المعهودة التي تلازمها مادامت فى البيت ؛ فجعلت عيناه تدور فى الحجرة وكأنه ينتظر قدومها .

وفى تلك الحركة وقع بصره على رزمة خطابات كانت موضوعة فوق

« المذياع » بالحجرة ، فقام من مقعده وأخذ يفرزها قائلا : خطابات باسمى ؟ ولكن . . ما هذه الأوراق التى تجاورها ؟

وألقى إليها نظرة عابرة . فشعر كأن الدنيا تدور أمام عينيه ـ وكأن صاعقة من السماء قد انقضت فوق رأسه .

ـــ أتعرف لماذا ؟

ـــ لقد رأى الإعلان الذى به أمر الحجز وبيع الأملاك .

ولاشك أن إحدى الخادمات كانت قد التقطته من أرض الحجرة يوم أن وقع من يد (إصلاح) ودسته بين هذه الخطابات .

ولا يمكن أن تتصور ماعراه فى تلك اللحظة لأن تاريخ الإعلان كان قد أفقده صوابه ـــ فراح يضرب كفاً بكف فى حيرة وارتباك ـــ وأخيراً وبلا تفكير ـــ رأى نفسه يقفز (الدرج) قاصداً (بنك الرهونات) .

وهناك وجد مالم يكن فى حسبانه . فقد عرف بسداد الدين فى حينه كما عرف اسم منقذته ومبعث أمله .

وكأنما أجهزت تضحيات زوجه المستترة وأفضالها المتتابعة . على مافيه من شجاعة . فكادت عيناه تدمعان لولا أن تمالك نفسه وخرج مسرعاً .

* * *

عاد محسن إلى منزله وهو أشد تقديساً لزوجه وتقديراً لأعمالها الجليلة فدخل حجرته وأوصد بابها عليه فى صمت وتأثر .

وما هى إلا لحظة استبدل فيها بملابس الخارج ثياب البيت ، حتى أدار مفتاح المذياع (لعله يجد فيه السلوى) واستلقى على سريره .

غير أنه لم يسمع شيئاً مما كان يذاع — فقد كان مشغولا بما فى نفسه عن كل ما حوله — كان مشغولا بزوجه فترك لخياله العنان يسبح فى ماضيه من يوم زواجه إلى الآن .

وسرعان ما بدت له زوجه بحسنها وثقافتها ، ثم بجليل أعمالها وعظيم تضحياتها ؛ فكفكف دمعة حارة وغاص فى بحر من الندم والتأسف .

وفيما هو فى آلامه إذا به يفيق على صوت المقرىء فى المذياع يردد تلك الآية الكريمة . (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

فانتبه مسلوباً حتى لسكأن قوة خفية كانت تدفعه إلى تدبر هذه الآية وتفهم معانيها — وما لبث أن صاح فى نفسه :

— عجباً ! ! ألم يخلق الله الإنسان فى هذه الدنيا إلا لعبادته ؟

يا لغفلتى . . ألم يوجدنا فيها إلا لطاعته ؟

وأيقن أنه كان جاهلا بحقيقة الحياة فاستطرد .

— ما دامت العبادة هى الغرض الحقيق من وجودنا فى هذه الدنيا فلا شك أنى كنت مخطئاً فى تصرفاتى ، وكانت زوجى أبعد منى نظراً وأكثر فهماً — لك الله يا زوجى الرشيدة من سخريانى وجهلى — فلقد غرتنى مباهج الدنيا وملاهيها فحسبت الحياة لذائذاً ولهواً .

وتغلب عقله بعد طول غفلته — فراح يحيى باللائمة على نفسه .

لماذا كان يهمل تلك التى فهمت الغرض من وجود الانسان فى الحياة ؟ لماذا كان يتركها تعانى آلام الوحدة ومر الحرمان ؟ أية إساءة أسلفتها إليه ؟

— ألكونها كانت لاتريد أن تشترك فى حفل يعمل باسم الخير والشر ينبع منه ؟ أم لكونها كانت تريد إكرام الضيف لأنه ضيف لا لاختلاط

الرجال بالنساء ومخالطة الأزواج بزوجات الأصدقاء ؟

ـــ حقاً . ما أعجب تصرفاته السابقة .

ـــ أيعقل أن يظفر زوج بمثل تلك الدرة النادرة ثم يستنكر أعمالها ويسىء إليها .

كيف يكون مسلماً ثم يبيح لزوجه الظهور عارية ومكالمة أصدقائه ؟

ـــ أيعقل أن يكون مسلماً ثم يسخر ممن تقيم حدود الإسلام وتتبع أوامره ؟

ـــ لا شك أن مثل هـــذا الزوج شيطان ، وإن كان يبدو فى صورة الإنسان .

كيف يكون إنساناً يعقل ، وقد كان يستنكر المعروف ويبيح المنكر ؟

كيف يكون إنساناً يعقـــل وقد كان يتخبط وراء شهواته ولذاته ؟

الآن فقط يحس أنه إنسان يعقل ويفكر ـ الآن فقط يشعر بأنه مخلوق جديد غير ذلك العربيد المستهتر ـ إحساس غريب يدعوه إلى الندم على مافرط منه طوال حياته ـ شعور مفاجىء يدفعه إلى تقدير جميع أعمال زوجه والاقتداء بها . إنه ليشعر الآن بأن كل شىء فى نفسه قد لحقه التغيير إلا حبه لزوجه الوفية ـ إنه ليذكر أعمالها الدينية فيرى السعادة تحيط به وتملأ قلبه ، ثم يطوح بذاكرته فى آفاق عهده الغابر فيتذكر خليلاته الخليعات وصديقاته المستهترات فتسود الدنيا فى عينيه ويحتقر نفسه .

ياله من تلك الذكريات المتناقضة ـ إنهـا ذكريات يختلط فيها الوفاء بالغدر والصدق بالنفاق ، وتتلاقى فيها تضحية الزوجة المخلصة بأنانية الخليلات ـ وتقواها باستهتارهن وفسقهن .

ثم يفيق من تأملاته على صدى صوت زوجه فى أول شجار بينهما يردد :

(إنى وأنت يا زوجى من دين واحد والذى فرض على طاعته قد فرضها وأوجبها عليك أيضاً . فلم لا نتحد سوياً على طاعته ويكون حبنا فى الله أدوم واقوى) .

— يا لله ! صوت ينبعث الآن إلى نفسى وكأن كل كلة منه مصباح يضىء حياتى — نصائح ثمينة صادرة من قلب مخلص عامر بالإيمان .

— لك يا زوجى الوفية ما تريدين فنعم الرأى ونعم العمل به .

وكان قد تأخر عن ميعاد الغداء فقام عالى الهمة . مطمئن النفس إلى حجرة الطعام .

وما انتهى من تناول غدائه حتى ذهب لتوه إلى مكتبة زوجه .

وهناك أخذ يستخرج بعض كنوزها الدينية وما فيها من كتب نفيسة ليسترشد بها ويعمل بما فيها .

واستمر بقية يومه يقرأ كتب الدين فى شغف ويدرسها فى إعجاب فوجد فيها حلاوة ولذة ما كان يجدهما فى غيرها من الكتب والروايات التى كان يهواها .

ولما أوى إلى فراشه كان قد لاح له من هدى الدين ماشعر معه بكثير من الندم على مافاته من عدم الاطلاع على هذه النفائس من قبل .

ومنذ تلك الليلة استقر (محسن) فى منزله يقرأ القرآن ويطالع كتب الحديث والأحكام .

وكان لا يزال أمامه بعض أيام من أجازته . فظل أسبوعا ملازماً بيته لا يبرحه إلا من أجل الصلاة فى المسجد ؛ ثم لايلبث أن يعود إلى مواصلة دراساته الدينية .

وفى نهاية هذا الأسبوع وصل إليه خطاب من صديق عزيز عليه .

— أتدرى ممن هذا الخطاب ؟

إنه من صديقه (ممدوح) وفيه يعتب عليه إهماله إياه وعدم سؤاله عنه من يوم زواجه .

عند ذلك رأى (محسن) من البر بصديقه أن يسارع بالسفر إلى الزقازيق (البلدة التى بها ممدوح) ليقضى عنده عدة أيام فى غياب زوجه

وحينما عزم على السفر تذكر خاتمة الماسى المرتهن « هدية ممدوح إليه » فما لبث أن سدد — دينه — واستلم خاتمه ثم سافر إليه .

٣٣

كان الوقت أصيلا عندما وصل محسن إلى منزل « ممدوح » ، فلما صعد السلم وانتهى به إلى السطح وجد لافتة نحاسية باسم صديقه على باب شقة صغيرة لا تزيد عن حجرتين صغيرتين .

وطرق الباب ففتحه (ممدوح) بنفسه .

وما كاد يراه حتى صاح مهللا فى ترحيب :

— محسن ؟ . . . يا لها من مفاجأة سارة . . .

وتعانق الصديقان — ثم جلسا على السرير متجاورين وجعل ممدوح ينظر إليه فى دهشة ممزوجة بالفرح .

ومالبث أن صاح مازحا :

— وأخيراً جئت يا سيد محسن — ألم تزل تذكر صديقك ممدوحا ؟ خلتك نسيته بزوجك العصرية وحفلات والدتها اللانهائية —

ألم تعدني بزيارة منك بصحبتها وأنت تودعنى على المحطة ؟ فأين تلك الزوجة المصونة والجوهرة المكنونة ؟

فأجاب محسن معتذراً :

— إننى آسف ياصديقى إذ جئت وحدى — أما زوجى فقد سافرت إلى الحجاز .

فتطلع إليه مليا ثم صاح ساخراً :

— حجاز ؟ هأ . هأ . هاى . . حجاز أم باريس ؟ يا صديقى العزيز ماذا تقول ؟ لعلك خلتنى جدك فجئت تخدعنى — والله أوحشتنا ياحسن ..

لكن خبرني ؟ أنسيت أنني الذى أوحيت إليك بخداع جدك وإخفاء صفات زوجك العصرية عنه ؟ فلماذا تحاول اللف والدوران .

— لا تظن يا صاحبي أنني أكذبك — وما قلت إلا الحق وسوف أخبرك بكل شيء بعد أن استبدل ملابسى وأصلى العصر .

فزادت سخرية (ممدوح) وراح يقهقه ثم قال :

— تصلى العصر ؟ إنك تنقلنى من عجب إلى عجب ياصديقى وإننى أخشى ألا أكون أمام (محسن المستكاوى) ! أمتأكد من أنك (محسن) صديق ممدوح ؟ أكاد لا أصدق ذلك .

فتبسم (محسن) ضاحكا ثم قال :

— ستعرف كل شيء بعد ياصديقى فلا تتعجل .

قال هذا ثم شرع فى استبدال ملابسه . ومافرغ من الصلاة حتى راح يقص على صديقه قصة حياته مع زوجه وما جرى له من يوم زواجه إلى أن استقام حاله وصلحت نفسه . ثم اغرورقت عيناه بالدمع لذكرى إساءاته لزوجه .

وكان ممدوح فى أول الأمر يستمع إليه فى سخرية ولا يكاد يصدق سمعه . لكنه ماكاد يرى على وجه محسن علامات الجد ودلائل الصدق والتأثر حتى اكتست ملامحه أمارات التصديق وراح يصغى إليه فى صمت وتأثر ، وماختم (محسن) قصته حتى قال (ممدوح) مهنئاً :

— حمداً لله ياصديقى على استجابته لدعاء جدك الأكبر ، وهنيئاً لك بتلك الزوجة التى جمعت بين سعادة الدنيا والآخرة . والآن فقط عرفت السر فيما كان يبدو على (إصلاح هانم) ليلة الحفلة التى خطبتها أنت فيها .

غير أن لى رجاء واحداً وهو ألا تدع لذكرى ماضيك وإساءاتك لزوجك أثراً فى نفسك ـ ولك أن تطمئن بعد ياصديقى فمثل تلك الزوجة لايحمل قلبها ضغناً ولا تنتظر منها سوى الصفح والغفران .

وكان قد حان ميعاد العشاء فتركه لحظة .

وما لبث أن أحضر منضدة صغيرة وضعها أمام السرير ثم راح يهيء له ماعنده من الأطعمة .

وبالرغم مما فهمه ممدوح عن استقامة (محسن) فإنه قد أحضر بين طعامه زجاجة خمر وكأسين للشراب .

عند ذلك تطلع محسن إليها مستنكراً ثم صاح قائلا :

ـــ ياصاحبي . لقد ولى عهد هذه الخمر وانقضى . وما كان أجدرنى بتركها من زمن مضى . ولقد صدق الرسول حيث قال : « الخمر مفتاح كل شر » وحسبي من الشر مالحقنى العار منه والدمار . ولقد تبت عنها توبة لارجعة لها ولاعودة بعدها .

وكان يتكلم بعزم وإصرار . فما لبث (ممدوح) أن نزل على إرادته ورفع الخمر عن المائدة ثم جلس بجواره .

وعندما شرعا يأكلان لاحظ محسن دلائل الوحدة تحيط بما على المائدة من أنواع الطعام وكان قد رأى آثار الفوضى مخيمة على نظام البيت . فأخذته الشفقة بصديقه والرثاء لهذه الحياة التى يحياها وتمنى أن يوفقه الله إلى من تسعده وتنير ظلمات بيته .

وسرعان ما فاتحه فى وجوب زواجه وترك حياة العزوبة ـ وكان

(ممدوح) قد بدأ يشعر باستقامة حال صديقه ويحس بأنه أمام رجل كامل الرجولة يعتمد عليه ، وصديق عاقل يعمل بمشورته . فما لبث أن عزم على الأخذ برأيه .

وعندما استلقى على فراش النوم كانت قد اختمرت فى رأسه فكرة الزواج الذى كان يأباه .

وفى سكون الليل ظل ساهداً يفكر فيمن يختارها شريكة لحياته المستقبلة وقبل أن يداعب الكرى أجفانه كان قد أجمع رأيه على بعض صاحباته وصديقاته ممن يراسلنه ويراسلهن .

وما كاد يجتمع بصديقه على مائدة الإفطار فى الصباح حتى عادا إلى الحديث معه حول هذا الموضوع الذى بات يشغله . ومالبث أن قال فى لهجة تحوي معانى الأخوة الصادقة :

— لقد كنت يامحسن مستشارك ومرشدك أيام كنت تجهل حقائق الحياة ولاتعرف فيها سوى اللذات والملاهى . أما وقد أصبحت رجلا عاقلا متزنا . فانى أرجو ألاتبخل على برأيك فيمن تصلح شريكة لحياتى المستقبلة .

وقبل أن يجيب «محسن» راح يصف له إحدى الفتيات اللائى يراسلنه وماهى عليه من مميزات عصرية .

ولم يكتف بتلك الفتاة بل شرع يصف له غيرها من الفتيات العصريات ويقدم له مميزات أسر كل منهن .

وكان محسن مصغياً إليه فى صمت وقد بدا على وجهه اهتمام الصديق المخلص .

فما انتهى ممدوح حتى أطرق مفكراً ثم رفع رأسه وتطلع إليه متسائلا :

— أتريد رأيي يامدوح ؟

— ومن لي غيرك ياحسن رشيداً مخلصاً .

— وتتزوج بمن أشير بها عليك ؟

— من أجل هذا تكلمت الآن ياصديق .

فاعتدل محسن في جلسته ونظر إليه مليا وراح يقول :

— ممدوح ... صديق ... أنت تعرف أني تقلبت كثيراً بين مسرات الحياة ولذاتها في مشارق الأرض ومغاربها . وتبعا لذلك عاشرت كثيراً من أنواع النساء وخبرت أحوالهن على اختلاف طبقاتهن وأديانهن . ومع ذلك فما وجدت خيراً من المرأة التي تخاف ربها وتحافظ على أوامر دينها .

وكان قد فرغ من تناول الطعام . فوضع يده على كتف صديقه متطلعاً إليه واستمر يتابع في إخلاص :

— الزوجة التقية يا ممدوح كنز الرجل . ومصدر سعادته في دنياه وآخرته . فهي التي تمهد له طريق الخير وتعينه على نوائب الدهر . ولقد صدق الرسول حيث قال :

(الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة) .

واعلم ياصديق أن مسألة الزواج من المسائل الهامة التي يجب أن تنظر إليها بعين العقل والحكمة أكثر من النظر فيها بعين العاطفة والانقياد وراء الأهواء والشهوات . ثق بي ياصاحبي ، فالسعيد من اتعظ بغيره . وعمل بمشوره مجرب مخلص .

ونصيحتي إليك ألا تنقاد وراء شهواتك ولا تتزوج إلا (بذات الدين) .

وكان قد حان ميعاد خروج ممدوح إلى ديوانه فخرج تاركا صديقه وقد ارتاح إلى رأيه وعزم على الأخذ به .

مضى يوم وأعقبه ثان وثالث (وحسين) لم يزل يبحث عن (محسن) بين منزله وبين النوادى التى كان معتاداً الجلوس فيها .

ولما كان محسن لا يزال عند صديقه ولا أحد يعلم بمقره ـ فقد وجد حسين مشقة كبيرة فى البحث عنه دون جدوى .

وفى اليوم الرابع عاد (محسن) إلى القاهرة . يرافقه صديقه (ممدوح) وكان قد قام بأجازة قصيرة رأى أن يقضيها فى البحث عن شريكة لحياته بين الأسر المحافظة التى كان يعرفها قبل نقله إلى « الزقازيق » .

ولما كان قد صمم على أن يتم هذا الأمر خلال تلك الأجازة القصيرة فإنه ما كاد يصل إلى « المحطة » حتى استأذن من (محسن) معتذراً بذلك الموضوع الهام .

وكان قد حان وقت صلاة الجمعة . فقصد ((محسن) عقب انصراف صديقه إلى مسجد قريب من المحطة ليؤدى الصلاة فيه .

وعند ما انتهت الصلاة خرج قاصداً منزله .

لكنه ما كاد يجتاز عتبة المسجد حتى سمع صوتاً يهتف باسمه ـ فالتفت خلفه ، وإذا به أمام (حسين) شقيق زوجه . فصاح مهللا .

ـ حسين ؟ مصادفة سعيدة ـ ماذا جاء بك إلى هذا المسجد ؟

وسلما فى شوق .

وكانت رؤية (محسن) يصلى فى المسجد قد أدهشت (حسيناً) ولكنه كان مؤدبا رقيقا . فلم يعلق بكلمة . واكتفى بما رأى ثم

أجاب على سؤاله قائلا فى ارتياح بهذا اللقاء :

— لقد كنت أودع صديقاً لى سافر منذ قليل — (ورب صدفة خير من ألف ميعاد) . . . وتوقفا للتحدث .

وأراد محسن أن يطيل الحديث ويستمع إلى أخبار زوجه — فتأبط ذراع « حسين » وسار به إلى أحد المقاهى القريبة وجلسا يتحادثان .

وما إن عرف بموت والدته حتى ظهرت عليه دلائل التأثر وقدم له عزاء حاراً وأظهر أسفاً شديداً عن تقصيره معتذراً بأسباب نفسية طارئة سببت ما كان من غيابه الطويل — ثم أخذ يسأله عن أخبار (إصلاح) فى لهفة وشوق .

ولم يطل بهما الحديث عنها حتى حول (حسين) الكلام إلى موضوع « الاعتراف » مبتدئاً بالحديث من يوم مرض والدته إلى ليلة وفاتها .

وكان محتفظاً بالمظروف فى جيبه . فما لبث أن قدمه إليه . .

ثم جلس ساهما ينتظر ما عسى أن يقوله بعد قراءة مابه .

أخذ (محسن) المظروف . وما كاد يفرغ من قراءته حتى تزاحمت فى مخيلته الذكريات . فجعل يذكر نظرة الاهتمام التى قابلته بها (زينات هانم) أول مرة وقع بصرها عليه فى (حفلة النادى) ثم عبارات الترحيب به . وسؤالها عن أحواله . واضطرابها عند ذكر اسم والده .

وتمادى فى تصوراته حتى غفل عن (حسين) الذى كان قد أقلقه الانتظار واستولى عليه الاضطراب ،

وفيما كان (حسين) فى قلقه واضطرابه ؛ إذا بمحسن ينظر إليه فى صمت ثم يطوى الأوراق ويجعلها داخل المظروف .

ويالها من لحظة تلك التى مرت (بحسين) قبل أن يعرف رأى (محسن) فى هذه الكارثة . فقد شحب لونه وبدا خجله .

ولاحظ ذلك (محسن) فأشفق وتألم . وكانت قد أساءته جناية والده . فما لبث أن بدأ الحديث قائلا :

— عفواً أيها الأخ العزيز . . إذا كان أبى قد ملأ قلوبكم بالأحزان ونشر فى أفقكم المآسى والآلام .

وكان (حسين) من هذا الرد مبهوتاً ؛ فلمعت عيناه دهشة مما لم يكن يتوقعه . وقبل أن يفيق من ذهوله تابع (محسن) قائلا :

— اصغ إلى يا أخى ولا تحزن لما كان فى الماضى . لقد أخطأ والدى وأخطأت والدتك ؛ فليسامحهما الله — أما نحن فما ينبغى لنا أن نحمل نتيجة وزرهما .

ثم استولى عليه الموقف فقال كمن يحدث نفسه :

— آه . . . كم يؤلمنى أننى كنت سبباً فى آلام زوجى وهذا والدى يزيدها آلاما على آلام . . لكن مهلا فسوف أجعلها تنسى الماضى بأحزانه وأحيطها بمستقبل سعيد وعيش رغيد .

وناوله المظروف وعاد يتابع .

— على أننى لسعيد بأخوتكم تلك التى ستزيد فى رابطة المصاهرة محبة ووئاماً .

ولم يكتف بذلك بل أخذ فى مواساته وتخفيف آلام الذكرى عليه .

وكان يتكلم بنبل وإخلاص أثرا فى نفس (حسين) فعادت إليه الطمأنينة وفاض لسانه بمدحه والإعجاب به .

وأقبل «خادم المقهى» بالقهوة فطفقا يشربان ويتكلمان فى مودة وأخاء

ثم أعاد « محسن » الحديث عن إصلاح فتذكر « حسين » رسالتين كانتا فى جيبه ـ إحداهما من (يسرية) بخصوص وصية والدها ـ والأخرى برقيـة من « الطور » تنبئ بعودة (إصلاح) بعد ظهر الغد .

وكانت رسالة (يسرية) معه من أول يوم بحث فيه عن (محسن) أما برقية (إصلاح) فقد وصلت إليه وهو خارج صباح اليوم لتوديع صديقه .

أخذ (محسن) الرسالتين وكلتاهما عزيزة عليه . . ثم راح يقرأ برقية زوجه فى لهفة وسرور . وما انتهى من قراءة الرسالة الثانية حتى اتجه إلى (حسين) وقال :

ـــ يحسن أن تترك مسألة وصية والدى وسوف أنظرها فيما بعد . أما الآن فأرى ضرورة ذهابي معك لعزاء أخوتي ومواساتهم .

قال هذا وناول « خادم المقهى » حسابه ثم قاما قاصدين القصر .

دخل (محسن) القصر ـ وما كاد يرى التغيير الذى طرأ عليه من نقص خدمه . والوحشة التى كانت تغمر أرجاءه ـ حتى تقطر قلبه هماً وحزناً . ولبث حيناً بالطابق الأول شارد العقل ؛ ساهم النظرات . أمام هذا الانقلاب المريع .

ثم أفاق على صوت (سامى) وقد أقبل لتحيته .

وبعـد أن قدم إليه العزاء صعد ثلاثتهم إلى الحجرة التى كانت بها (سوزان ويسرية) ـ ولم يكن عندهما علم بمجيء (محسن) ـ فما رأتاه حتى هبتا لملاقاته فى دهشة وبكاء ـ وكان الموقف مؤثراً فراح يغمرهما بعطفه ويواسيهما فى حنان .

وحان وقت الغداء فقام الجميع إلى حجرة الطعام .

وعلى المائدة قرر الإخوة أن تكون مقابلة (محسن) لزوجته (على محطة القاهرة) مفاجأة دون سابق إخبارها ـ على حين يسافر (حسين وسامى) إلى ميناء « السويس » لاستقبالها هناك ـ أماسوزان ويسرية فتكونان بانتظارها فى منزلها بمصر الجديدة .

ومافرغوا من الطعام حتى كان قد خطر (لمحسن) خاطر ارتاح إليه وصمم على تنفيذه ـ فقد رأى أن يذهب إلى منزل جده ليزيل مابه نحوه ونحو زوجته قبل عودتها .

وزالت من الأفق آثار النهار وجنحت الشمس إلى الغروب فاستأذن إخوته ليذهب إلى جده .

ها قد وصل (محسن) إلى منزل جده بعد غيابه الطويل .

وها هو واقف بباب المنزل ينظر حوله متردداً فقد تذكر أنه خرج منه آخر مرة مطروداً من جده ـ ثم تردد مرة أخرى لعل جده يراه أو تلمحه خالته ـ لكن يده سبقته . فقرع الجرس . وانفتح الباب وظهرت به (مربيته عسرانه) .

وقبل أن يسلم عليها حملقت فيه مليا ـ ثم صاحت مهللة :

ـ مرحباً (بسيدى محسن بك) وقبلت يده .

وما كاد يدخل حجرة جده حتى جعل الجد ينظر إليه فى دهشة ـ وكان مستلقياً على سريره بجلباب البيت . فنهض جالساً وراح يرحب به فى حنان .

ـ هذا أنت (يامحسن) . مرحباً بك ياولدى .

فاغرورقت عينا (محسن) بالدمع فرحاً بهذا اللقاء غير المنتظر ـ ومال على جده يعانقه ويقبل يده . والجد مسرور برؤيته . ثم جلس على الكرسى تجاه سريره ـ وتكرر ترحيب الجد ـ وزادت دهشة (محسن) وعجب من تبدل حالة جده وتغير مقابلته .

وفى تلك اللحظة جاءت خالته وقد ضربت بخمارها على جبينها ـ فهب (محسن) لتحيتها ـ فاحتضنته باكية وقبلته فى شوق . ثم راحت تعاتبه على انقطاعه وتسأله عن زوجته مستفهمة عن موعد عودتها من الحجاز .

وكان (محسن) من تلك المقابلة مبهوتاً لايدرى سبباً لهذا التحول من جده ولامن أين جاءت خالته بخبر سفر زوجته .

ومالبث أن بدأ الحديث معتذراً :

ـــ إني آسف ياخالتى لما كان من انقطاعى عن زيارتكم . وقد جئت لأعتذر ولأزيل الفكرة السيئة التى لدي جدى عن زوجتى .

ونظر نحو جده وتابع .

ـــ فهل أستطيع ذلك ياجدى ؟

وماأشد الدهشة التى استولت عليه حينما نظر الجد إليه وقال فى هدوء :

ـــ لا تقل شيئاً ياولدى فقد عرفت عنها كل شىء جزاها الله عن صبرها خير الجزاء .

فسر (محسن) على مابه من الدهشة والعجب ثم قال مستفهماً :

ـــ جدى يعرف حقيقة زوجتى ؟ . . حمداً لله فقد كفاني ما أردت إظهاره ـ وهل علم جدى بتدينها وصفاتها ؟

ـــ أمس فقط . من خالتك . بعد رجوعى من سفرى .

فزاد عجب (محسن) ونظر إلى جده متسائلا :

ـــ أسافر جدى إلى بلادنا ؟

ـــ نعم ياولدى بعد شفائي من المرض الذى كان قد اعتراني بسببك . إذ كنت أظن بزوجك الظنون ـ وحاشا ياولدي أن أظن فقد كنت رأيت بعينى ليلة زفافك ماحملنى على ذلك .

فانبسطت أسارير (محسن) وقال ضاحكا :

ـــ والآن هل سر جدى بتحقق دعاء جد العائلة الأكبر ؟

ـــ حمداً لله يابنى . . (خير متاع الدنيا المرأة الصالحة) .

فزاد سرور (محسن) بماسمعه ومالبث أن اتجه إلى خالته متسائلا :

— بالله ياخالة من أين أتت إليك أخبار زوجتى ؟

وكيف عرفت بسفرها ؟

فتبسمت خالته وقالت فى بساطتها المعهودة :

— لقد رأيت زوجتك ياولدى بعينى وأنا داخل منزلك وسمعت عن حقيقتها . فما وجدت لها مثيلة فى هذا الزمن .

فنظر إليها مبهوتاً وعاد يسائلها فى دهشة :

خالتى رأت زوجتى وفى منزلى ؟ — إن هذا لعجيب — وهل عرفتك ؟ وماذا قالت لك ؟

— لاياولدى . إنها لم تعرفنى . ولم تكلمنى إلا كما كلمت غيرى .

— عجباً وكيف كان ذلك ؟

فاقتربت منه وراحت تخبره بأسلوبها الساذج :

— كان ذلك ياولدى منذ أكثر من شهرين . وكان جدك قد سافر إلى « بلادنا » عندما دعتنى هذه الجارة — (وأشارت إلى المنزل الذى أمام النافذة) لأذهب معها لأستمع إلى درس « دين » فى منزل « سيدة » بمصر الجديدة — كثيراً ما كانت تذكرها أمامى بالمدح والإعجاب حتى اشتقت إلى رؤيتها . . وفعلا ذهبت معها .

وانتابتها نوبة سعال كان (محسن) فى أثنائها ينظر إليها متلهفاً لسماع بقية حديثها . ثم استطردت أثر زوالها فقصت عليه الحديث الذى كان بينها وبين جارتها فى آخر درس دينى بمنزل (إصلاح) قبل سفرها إلى الحجاز .

« ولعلك تذكر ذلك الحديث » .

وما فرغت من سرد قصتها حتى قالت :

— الحق ياولدى إننى فرحت بها بقدر ماتألمت من معاملتك لها .

وعندما رجع جدك أمس من سفره — أخبرته بكل ماسمعته عنها ، ورأيته فيها . ففرح وحمد الله وعزم على الذهاب إليها بنفسه بعد عودتها من الحجاز — ولكن « لاأخفى عنك » فقد ساءته أعمالك ومعاملتك لها .

وكان (محسن) مصغياً إليها فى اهتمام فما انتهت حتى أسرع قائلا فى أسف:

— عفا الله عن أعمالى السالفة مع زوجى (ياخالتى) . ولقد ندمت عليها وعزمت على ألا أعود إليها .

ونظر إلى النتيجة المعلقة على الحائط أمامه وقرأ : (٣ أكتوبر سنة ١٩٤٦) وتابع :

— وليكن تاريخ هذا اليوم شاهداً على قولى وعزمى .

* * *

ومر عامان . وأبحرت الباخرة (سودان) بركابها إلى بيت الله الحرام .

ولو كنت أيها القارئ ضمن حجاج عام « ١٩٤٨ » ومن ركاب تلك الباخرة لرأيت بين نزلاء الدرجة الأولى أسرة تقية سعيدة مكونة من زوج وزوجة وطفلتهما ومربيتها .

ولم تكن تلك الأسرة السعيدة سوى « إصلاح » وزوجها « محسن » وطفلتهما « زيزى » ودادة « حليمة » .